كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار

تأليف
عز الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي
المتوفى ٦٧٨ هـ

ويليه

تقبيح الحسن وتحسين القبيح

لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي
المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

ويليه

نسيم الصبا

لأبي محمد بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن
ابن حبيب الحلبي
المتوفى سنة ٧٧٩ هـ

ويليه

صفة صاحب الذوق السليم ومسلوب الذوق

لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
المتوفى سنة ٩١١ هـ

اعتنى بها
مصطفى عبد القادر عطا

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : KAŠF AL-ᵓASRĀR FĪ ḤUKM AL-ṬUYŪR WAL-ᵓAZHĀR
followed by TAQBĪḤ AL-ḤASAN WATAḤSĪN AL-QABĪḤ
followed by NASĪM AL-ṢABĀ
followed by ṢIFAT ṢAḤIB AL-ḌAWQ AL-SALĪM WAMASLŪB AL-ḌAWQ

Classification: Literature

Author : ᶜIzzuddīn ben Aḥmad al-Maqdisi
and: Abū Manṣūr al-Ṯaᶜālibi
and: Ibn Ḥabīb al-Ḥalabi
and: Jalāluddīn al-Sayūṭi

Editor : Muṣṭafā ᶜAbdul-Qādir ᶜAṭā
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 192
Size : 17*24
Year : 2010
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار
ويليه: تقبيح الحسن وتحسين القبيح
ويليه: نسيم الصبا
ويليه: صفة صاحب الذوق السليم ومسلوب الذوق

التصنيف : أدب
المؤلف : عزالدين عبدالسلام المقدسي
وأبو منصور الثعالبي
وابن حبيب الحلبي
وجلال الدين السيوطي
المحقق : دار الكتب العلميـــة - بيروت
الناشر : مصطفى عبد القادر عطا
عدد الصفحات : 192
قياس الصفحات: 24*17
سنة الطباعة : 2010
بلد الطباعة : لبنـــان
الطبعة : الأولى

DKi
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-3360-1
ISBN 2-7451-3360-8

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف في سطور

هو: عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي، عز الدين: واعظ، له نظم ونثر. توفي بالقاهرة ٦٧٨ هـ : ١٢٨٠ م.

من كتبه: «تفليس إبليس» مناظرات له مع الشيطان، و «حل الرموز» تصوف ، و«الروض الأنيق» مواعظ، و«كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» وهو كتابنا هذا و«إفراد الأحد عن أفراد العدد» و «ديوان شعر» في ٦٢ ورقة.

ينظر ترجمته في: شذرات الذهب (٥/ ٣٦٢) ومرآة الجنان (٤/ ١٩٠) والبداية والنهاية (١٣/ ٢٨٩) وكشف الظنون (٤٦٣)، والخزانة التيمورية (٣/ ٢١٧) وهدية العارفين (١/ ٥٧١).

مقدمة المُصنِّف

الحمد لله البعيد في قُربه، القريب في بعده، المتعالي في رفيع مجده، عن الشيء وضده، الذي أوجد بقدرته الوجود بعد أن كان عَدماً، وأودع كل موجود حكماً، وجعل العقل بينهما حكَماً، ليميز بين الشيء وضدّه، وألهمه بما علّمه فعلم مُرّ مذاق مصابه من حلاوة شـهده. فمـن فكـر بـصحيح قصده، ونظر بتوفيق رُشده، علم أن كل مخلوق موثوق في قبضتي شقائه وسعده، مرزوقٌ من خزائن نعمه ورفده، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِـن رَّحْمَـةٍ فَـلا مُمْـسِكَ لَهَـا وَمَـا يُمْـسِكْ فَـلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ فلو صفت عين بصيرتك، وانجلت مرآة سريرتك، وأصغيت بسمع يقظتك، لأسمعك كل شيء موجود مـا يجده من منتقدات وجده، وما يكابده من وجدان بعده، ألم تسمع للنسيم كيف تنسّمَ أسـفاً لـبكاء الـسحاب علـى جـزره ومـده، وتأوّه لهفاً على تبسم البرق لما سمع قهقهة رعـده؟ ألم تسمع للربيع ما هو يبشرك بورود ورده، وأخبرك بنشور ورده وشرود برده، وسـعى إلـيك بانقلاب الشتاء لجرده ومُرده، ووشى اليك القبول بوشي الروض وبرده، وشـكى إليك البان ما بان من تمايل قده، وأنهى إليك الأقحوان ما حاز من ألوان الزهر وجُـنده، وحقـوق أعلامـه المعلمـة بـسعده، ووثـب النرجس قائماً للقيام بورده، وأقبل الـشقيق علـى تـشقيق ثـوبه وقـده، فكأنه ثلكى لا طماً على حمرة خدّه، ووصف إليك الجلـنار جُل نار هجوه وصده، وناح العندليب على عوده الرطيب ورنده، وباح العاشق الكئـيب بمـا يكابـده مـن هوى زينبه وهنده، وهام في فلوات خلواته طرباً بما سمعه عن طيب نجده، وفرَّ هارباً إلى من يعلم خفايا ما أبداه وما لم يُبده، فالعارف من شكر سوابغ الـنغم، واحتقر معادن الحكم، ولم يقنه من اللبن إلا بزبده، وعلم أن الله تعالى ما أحدث حدثاً، وأهمله عبثاً، بل كلّ واقف عند حده، باقٍ على حفظ عهده، مقرٌّ بتصديق وعيده ووعـده ﴿ وَإِن مِّـن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أحمده على كل حال وأسأله توفيق حمده، وأُصـلي علـى سـيدنا محمد رسوله وعبده، الذي أنزل عليه في مُحكم كتابه العزيز مخبراً بـرفيع مجـده ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ..﴾ صلى الله عليه وآله وصحبه وعشيرته وجنده.

أمـا بعد: فإني نظرت بعين التحقيق، ورأيتُ بنور التصديق والتوفيق، أن كل مخلوق مقـر بوجـود الخالـق، وكل صامت في الحقيقة ناطق، فاستعربت الإشارات، واستقرأت العبارات، فرأيت كلا ناطقاً بلسان حاله ولسان قاله، لكنّي رأيت لسان الحال أفصح من

لسان القال، وأصدق من كل مقال، لأن لسان الخبر يحتمل التكذيب والتصديق، ولسان الحال لا ينطق إلا بالتحقيق. فالناطق بلسان الحال مخاطب لذوي الأحوال، والناطق بلسان القال مقابل لأهل الصحة والاعتلال.

وقد وضعت كتابي هذا مترجماً عمّا استفدته من الحيوان برمزه، والجماد بغمزه، وما خاطبتني به الأزهار عن حالها، والأطيار عن مقرّها وارتحالها، وسميته: «كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار»، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار، وتذكرة لذوي الاستبصار، فاعتبروا يا أولي الأبصار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

فمن طالع مثالي، وفهم ضرب أمثالي، فذاك من أمثالي، ومن أعجم علي إشكالي فليس من أشكالي، فأقول والله لعبده كالي: أخرجني الفكر يوماً لأنظر ما أوجدته أيدي القدم في الحدث، وأحدثته القدرة البالغة للجدّ لا للعبث، فانتهيت إلى روضةٍ قد رق أديمها، ونمى خصيب رطيبها، وراق نسيمها، ونمَّ طيبها، وغنّى عندليبها، وتحركت عيدانها، وتمايلت أغصانها، وتنمقت أزهارها، وصوّت هزّازها، وتسلسلت جداولها، وتبلبلت بلابلها.

فقلت: يا لها من روضة ما أهناها، وخضرة ما أبهاها، وحضرة ما أصفاها، فليتنى استصحبت صديقاً حميماً يكون لطيب حضرتي نديماً.

فناداني لسان الحال في الحال: أتريد نديماً أحسن مني، أو مجيباً أفصح مني؟ وليس شيء في حضرتك إلا وهو ناطق بلسان حاله، منادٍ على نفسه بدنو ارتحاله، فاستمع له إن كنت من رجاله. وفي ذلك أقول:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ نَسِيمَ الصَّبَا ... لَه نَفَسٌ نَشْره صَاعِدُ
فَطَوْراً يَفُوحُ وطوراً يَنُوحُ ... كما يَفْعَلُ الفَاقِدُ الوَاجِدُ
وسكبُ الغمامِ ونوحُ الحمام ... إذا ما شَكَى الغُصْنُ المايدُ
وضوءُ الأقاحِ ونُورُ الصَّباحِ ... وقد هزَّهُ البَارِقُ الرَّاعِدُ
ووافَى الرَّبِيعُ بمعنىً بديع ... يُترجمُ عن وردِهِ الوَارِدُ
وكُلٌّ لأَجْلِكَ مُسْتَنْبَطٌ ... لما فيه نَفْعُكَ يَا جَاحِدُ
مُقرٌّ لهُ شَاكِرٌ حامِدُ ... وكُلٌّ لآلآئِهِ ذَاكِرُ
وفي كُلّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلّ عَلَى أَنَهُ وَاحِدُ

إشارة النسيم

فأول ما سمعت همهمة النسيم، يترنم بصوته الرخيم، يقول بلسان حاله، عن صريح لفظه ومقاله: أنا رسول كل محب إلى حبيبه وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه، إن استودعت سِرّاً أديته كما استودعته، وإن حُمّلتُ نشراً رويته كما سمعته، وإن صحبتُ مصحوباً اتّحدتُ فيه بلطافة إيناسي، ومازجته بصفاء أنفاسي، فإن طاب طبت، وإن خبث خبثت، كما قال الشاعر:

الرَّاحُ كالرِّيحِ إن مرَّت عَلَى عَطرٍ طَابت، وتَخْبُثُ إنْ مَرَّت على الجيفِ

ثم إني إن اعتللت صحّ بي العليل، وحيث حللت طاب بي المقيل، وإن تنفّست تنفّس المشتاق، وإن نمت توسوست العشّاق، فأنا ليّن الإعطاف، هيّن الانعطاف، سريع الائتلاف، ولولا وجودي في الوجود لما كان مخلوق موجود، يعرف لطفى ذوو الألطاف فلا تظن اختلاف هوائي سبب إغوائي، بل أختلف في الفصول الأربع، لما هو أصلح لك وأنفع، فأهبُّ في الربيع شمالاً لألقح الأشجار، وأُعدّل فصلى الليل والنهار، وأهب في الصيف صباً لأنمّى الثمار، وأُصفّى الأنهار، وأهب في الخريف جنوباً فتأخذ كل شجرة حد طيبها، وتستوفى حق تركيبها، وأهبّ في الشتاء دبوراً فآخذ عن كل شجرة حملها وأوراقها ويبقى أصلها. فأنا الذي تنمو بي الثمار، وتسمو بي الأزهار، وتتسلسل الأنهار، وتلقّح بي الأشجار، وتتروح بي الأسرار، وأبشرك في الأسحار بقرب المزار، وفي ذلك أقول:

يَاطِيب ما نقلَ النَّسيمُ لَمسْمعى عن طِيبِ ذيَّاك المحلّ الأرفعِ
وَافى لينشرَ ما انْطَوَى من نَشْرِهِ فَسكِرتُ مِنْ طِيبِ الشَّذَا المتضوّعِ
ولربما أعتلّ النَّسيم إذا بَدَتْ أنفاس شوقي المستكنُ بأضلعِي
هبَّ الصَّبا سَحَراً لتُبرَد عُلّتي فَأثارَ نار تَحرقّي وتَوجّعى
مَا ذَاكَ إلاَّ أنهَا لِمَا سِرْتُ مرّتْ عَلَى تِلْكَ الرُّبَا الأَرْبَعِ
فَتَحمَّلَتْ نَشْرَ الصَّبَا في طَيِّهَا فَسكرتُ وسَمِعْتُ مَا لم يُسْمَعِ
وَآفتْ تُبَشّرنى بِلَيْلَى أنَّهَا في حُسْنهَا سَفَرتْ فَلَم تَتَبَرْقَعِ
وَجَلَتْ عَلَى عُشّاقِهَا في حَانِهَا وَجْهاً تمنّع في حِمىً متمنّعِ

إشارة الورد

ثم سمعت مجاوبة الأزاهير بألوانها، والشحاريرُ بأقنانها، فرأيت الورد يخبر عن طيب

وُروده، ويعترف بَعرفه عند شهوده، ويقول: أنا الضيف، الوارد بين الشتاء، والصيف، أزور كما يزور الطيف، فاغتنموا وقتى فإن الوقت سيف. أعطيت نفس العاشق وكُسيت لون المعشوق، فأروح الناشق وأهيج المشوق، فأنا الزائر وأنا المزور، فمن طمع في بقائي فإن ذلك زور. ثم من علامة الدهر المكدور، والعيش الممرور؛ أنني حيث ما نبتّ رأيت الأشواكَ تزاحمني، والأدغال تجاورني، فأنا بين الأدغال مطروح، وبنبال شوكى مجروح، وهذا دمي يُرى عندما يلوح، فهذا حالى وأنا ألطف الأوراد، وأشرف الورّاد، فمن ذا الذي سلم الأنكاد، ومن صبر على نكد الدنيا فقد بلغ المراد. وبينما أنا أرفل في حلل النضارة، إذ قطفتني يد النظارة، فأسلمتني من بين الأزاهير إلى ضيّق القوارير، فيذاب جسدي، ويُحرق كبدي، ويُمزق جلدي، ويقطر دمعي الندى، ولا يُقام بأودي، ولا يؤخذ بقودي ، فجسدي في حُرق، وجفوني في غرق، وكبدي في قلق، وقد جعلت ما رشح من عرقي شاهداً لما لقيت من حُرقي، فيتأسى باحتراقي أهل الاحتراق، ويتروح بنفسي ذوو الأشواق، فأنا فانٍ عنهم بأيّاي، باقٍ فيهم بمعناي، أهل المعرفة يتوقعون لقائي، وأهل المحبة يتمنون بقائي، وفي ذلك أقول:

فإنْ غِبْتَ جِسْماً كنتَ بِالرُّوحِ ... فسِيّان قُرْبى إنْ تَأَمّلتَ والبعْدُ

فللَّهِ من أضْحَى من النَّاسِ قائلاً: ... إنَّكَ مَاءُ الوَرْدِ إذْ ذَهَبَ الوَرْدُ

إشارة المرسين

فلما سمع المرسين كلام الورد، قال: لقد لعب النسيم بالبرد، وباح النسيم بسره، ونشر السحاب عقود ظلّه، وتضوّع البهار بعرفه، وتبرج الربيع بقلائد نَحره، وخلع السرور عذاره، وبسط على الروض الأنيق أزهاره، وغرّد الهزار، ورد لعاشقة المزار، فقم بنا نتفرج، ونتيه بحسنه ونتبهرج، فأيّام السرور تُختلس، وأعمارها بأسرارها تُقتبس.

فلما سمع الورد كلام المرسين قال له: يا أمير الرياحين، من سلوك الأُمراء تأمّل الصواب في الآراء، تأمر باللو عبدك، وتحض على العيب جندك، وأسير الرعية، صاحب الفكرة والروية، فلا يعجبك حسنك إذا تماود غصنك، ولا لحسن أوراقك، وكرم أعراقك، فأيام الشباب كزيارة الأحباب، سريعة الزوال، دارسة الأطلال، كالطيف الطارق، والخيال المفارق، يطرق ويُلم، وينقطع وصله فلا يتم، وكذلك النبات، أخضر الجلباب، مورق العود، كالقباء المزرود، إذ حصد من أصله، وحكمت الأيام بشتات شمله. والنبات مختلف الأجناس، كاختلاف الحيوان من الناس: فمنها ما يصلح للنار، كالحطب اليابس من الأشجار، ومنها ما يُشمّ ويذبل، ويُجوّل خطابه وينصل،

وتطرقه حوادث الأيام، ويعود مرمياً على الأكوام، ومنها ما تؤكل ثماره، وتحسن في النار آثاره، فإياك والاغترار بزخارف هذه الدار، إنما أنت فريسة الأسد الهمام، وعليك إن نصحتك والسلام، وفي ذلك أقول:

يـا رَاقِـداً في اللَّـيلِ كَـمْ ذَا تَـنـامُ … أمَـا تَخَـافُ العُـتْبَ بَـينَ الأنـامِ
فَقُـمْ لِـمَــوْلاَكَ وَكُــنْ قَــائِلاً … في جِـندِسِ اللَّـيلِ وجُـنحِ الظَّـلامِ
يَـا ربُّ بالهَـادِي شِـفِيعِ الـوَرَى … المُـصْطَفَى ذُخْـرِي عَلَـيْهِ الـسَّلامُ
اهـدِي إلهـي مِـنْـكَ لـي تَـوْبَةً … تَمْحُـو ذُنُوبـي والخَطَـاْ والآثـامِ
فَقَــدْ أتَـيْتُ الآنَ مُـسْتَغْفِـراً … مُعْتَـرِفاً بالـذَّنْبِ لـي والـسَّلامِ

إشارة البان

فلما نظرت الأشجار إلى طرب البان بينها، وتمايُله دونها، لامُوه على كثرة تمايله، وعَنَّفوه على عجبه بشمائله، فتمايل هنالك البان، وقال: لقد ظهر عُذرى عند الناس وبان، فمن ذا يلومني على تمايل أغصاني، واهتزاز خرصاني، وأنا الذي بسطت لي الرياض مطارفها، وأظهرت لي الأزهار زخارفها، وأهدت إليَّ نسماتُ الأسحار لطائفها. فإذا رأيت ساعة نشور أموات النبات قد اقتربت، ورأيت الأرض وقد اهتزت وربت، ونفخ في صور رعدي ونسخ حكم وعيدي بإنجاز وعدي، وحان ورود وردى، فانظر إلى الورد وقد ورد، وإلى البرد وقد شرد، وإلى الزهر وقد اتقد، وإلى الحب وقد انعقد، وإلى الغصن اليابس وقد اكتسى بعدما انجرد، وإلى اختلاف المطاعم والمشارب وقد اتحد، فاعلم أن خالقها أحدٌ، ومنوعها صمدٌ، وموجدها بالقدرة قد انفرد، فلا يفتقر إلى أحدٍ، ولا يستغنى عنه أحدٌ، ولا يشاركه في ملكه أحدٌ، فهو الأحد الصمدُ الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفواً أحد.

فهناك تمايلت قدودي طرباً بطيب شهودي، وترنمت بلابل سعودي على تحريك عودي، ثم تدركني عنايةُ معبودي، فأفكرُ في عدمي ووجودي، وفوات مقصودي، فأنعطف إلى الورد فأخبره بورودي، وأخلع عليه من برودي، وأستخبره عن مصدري وورودي؛ فقال لي: وجودك كوجودي، وموجودك كموجودي، وركوعك كسجودي، فأنت بخضرة قدودك، وأنا بحُمرة خدودي، فلهم نجعلُ في النار وقودك ووقودي، قبل نار خلودك وخلودي.

فقلت: إذا صح الائتلاف، ورضيت لنفسك بالتلاف، فليس للخلان من خلال،

فنقطف على حكم الوفاق، ونختطف من بين الرفاق، وتُصعّدُ أنفاسنا بالاحتراق، وتقطر دموعنا بالإشفاق، فإذا فنينا عن صور أشباحنا، وبقينا بمعاني أرواحنا، فسيّان غدوّنا ورواحنا. وفي ذلك أقول:

وَرَدَ الوَرْدُ بَشِيراً بالذي ... فيه من لُطْف المَعَانِي قَدْ حَوَى
فَانْثَنَى البانُ لهُ منعَطِفاً ... لاثِماً نَشرَ الذي فيه انطَوَى
مَالَ يَشْكو أَهْيف القد له ... فَرْطَ مَا يَلْقَاهُ من حَرِّ الجَوَى
فَرَثَاهُ الوَرْدُ إذْ قَالَ لَهُ ... نَحْنُ خِلَّانٌ تَسَاهَمْنَا الهَوَى
فأَنَا أنتَ كما أنْتَ أَنَا ... نَحنُ في المَغْنَى جَمِيعاً بالسَّوَى
كم رُمِينَا في لَظَى نارٍ فلا ... صَاحِبِي ضَلَّ ولاَ قَلْبِي غَوَى
ولكُمْ قَدْ فرّقَتْ أيدي النَّوَى ... بَيْنَنَا والغُصْنُ مِنَّا ما ذَوَى
ألم تَرَ أَحْشَاؤنا قد حُشِيَتْ ... بِلَهِيب النَّارِ وَالقَلْبُ اكتَوَى
وبهَا أنْفَاسُنَا قَدْ صُعِّدتْ ... مِثْلَ مَا قَدْ قُطّرت منّا القُوَى
كلُّنا نَشْكُو بِشجْوٍ وَاجِدٍ ... ولكُلٍّ في هَوَاهُ ما نَوَى
قَسَماً حَقّاً يَمِيناً صَادِقاً ... بالذي قُدْماً على العرشِ اسْتَوَى
إنَّ في شَرْحِ غَرامِي عِبرةً ... لِذَوِي القَلْبِ إذا القَلْبُ ارعَوَى
كُنْتُ بالأمسِ كبدْرٍ طَالِعٍ ... وَأَنَا اليومَ كَنَجْمٍ قَدْ هَوَى

إشارة النرجس

فأجابه النرجس من حاضره، وهو ناظر لمناظره، وقال: أنا رقيبُ القوم وشاهدهم، وسميرهم، ومنادمهم، وسيّد القومِ خادمُهُم، أعلّم من له همة كيف شروط الخدمة، أشدُّ للخدمة وسطي، وأوثقُ بالعزيمة شرطي، ولا أزال واقفاً على قدم، وتلك وظيفة من خدم. لا أجلس بين جُلاّس، ولا أرفع للنديم رأسي، ولا أَمنعُ المتناول طيب أنفاسي، ولا أنا لعهد من وصلني ناسي، ولا قلبي على من قطعني قاسي. ثم لا يفارق فمي شرب كاس، وهو لي بصفوه كاسي. بُني على قضيب الزبرجد أساسي، وجُعل من العسجد واللجين لباسي، ألمحُ تقصيري فأطرق إطراق الخجل، وأفكر فيما إليه مصيري فأحدق لهجوم الأجل، والعجيب أنني واقفٌ على التفرقة في مقام الجمع، يُدرك معنى شذاى حاسة الشمَّ لا حاسة السمع، وهذا معنى لا خطر بقلبٍ ولا مر بسمع، فإطراقي اعترافاً بتقصيري، وإطلاقي لأحداقي نظراً فيما عليه مصيري، وفي ذلك أقول:

إنْ يَكُنْ مِنِّي دنا أَجَلِي ... آهُ وا ذلّي وَيَا خَجَلِي
قُمْتُ مِن ذُلّي على قَدَمِي ... مُطْرِقاً للرأسِ مِن ذَلَلِي
لَوْ بَذَلْتُ الرُّوحَ مُجْتَهِداً ... ونَفَيْتُ النَّوم عَنْ مُقَلِي
كُنْتُ بالتَّقصِيرِ مُعْتَرِفاً ... خائِفاً مِن خَيْبَةِ الأَمَلِ
إنْ يَكُنْ للعَبْدِ سَابِقَةٌ ... سَبَقَتْ في الأَعْصُرِ الأوَلِ
لم يكُنْ في القَادِمِينَ غداً ... نَافِعِي عِلْمِي ولاَ عَمَلِي
مُقْلَتي ما شَأْنها أَبَداً ... قطّ لاَ يَنْفَعُكَ مِنْ وَجَلِ
عَجِلاً في حَتْفِهِ وكَذا ... خُلِقَ الإنْسانُ مِن عَجَلِ

وقلت أيضاً:

تأَمَّلْ في رِيَاضِ الرَّوْضِ وانظر ... إلَى آثارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيُون مِنْ لجينٍ شاخصاتٍ ... بأحداقٍ كما الذَّهَب السَّبيك
عَلَى قَضِيبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِداتٍ ... بأَنَّ اللهَ ليس لَهُ شَرِيك
وأنَّ مُحَمَّداً خَيْرُ البَرَايا ... إلى الثَّقَلَيْنِ أَرْسَلَهُ المَلِيكُ

إشارة اللينوفر

فناداه اللينوفر، وحظه من السقم أوفى وأوفر، وقال: أما تعتبر أيها الحزينُ باصفراري، وأين من القضاء والقدر فراري، أنا الذي قد رضيت بعارى، ولست من العشق بِعَارى، الرياضُ قراري، والغياضُ داري، فإن كنتَ عاشقاً داري، فأهل الدارِ داري. هآ أنا أعشق صفآء المآء، فلا أفارقهُ في الصباحِ والمسآءِ، ومن العجب أنى به ولهان، وعليه لهفان، وإليه ظمآن، وأنا معه حيثما كان، فهل سمعتم بمثل هذا الشان، واقفٌ في الماء عطشان، أفتح عيني بالنهار، فيغار عليّ من نظر الأغيار، فإذا جنّ ليلي أنزلني عن رتبتي وحطني، وأخذني إليه وغطني، فأغوص في فكري، وأعود إلى خلوة ذكري، فتستغرق عيني في مشاهدة قرة عيني، فلا يعرف الجهول أينى، ولا يفرق العذول بين من أحبه وبيني، فحيث ما مال بي هوَائي، لا أنظره إلا حذائي. إن ظمئتُ رواني، وإن مِتُّ واراني، فحياة وجودي بحياته، وبقاء شهودي بثباته، وقيام ذاتي بذاته، وصفآء صفاتي بصفاته، فما بيتا بيّن، ولولاه ما كنتُ أثراً بعد عين، وفي ذلك أقول:

كَسَا الحبُّ جِسْمِي ثَوْبَ الضَّنَا ... فَروحي مِن شَوقِها في عَنَا
كأنَّ الهَوَى إذ رَمَى سَهْمَهُ ... لِقَلْبِي دُونَ الوَرَى قد عَنَا

تَدَانَـــى فَأَدْنَـــى إِلَىَّ مُهْجَتِـــي هـــوى كلمـــا قـــدْ دنَـــا قَـــدَّنَا
يَقُـــولُ لى الحـــبُّ: اَلا تَـــأَلَـفَـنْ سِـــوَانَا إذا كـــنتَ مـــن إلْـفِـــنَا
حَمَيْـنا الوصَـالَ ببِـيضِ النّـصالِ فـإنْ تَلْـقَ سُـمْر القَـنَا تَلْـقَـنَا
ولاَ تَجْـزَعَنَّ بِحَـدّ النِّبـالِ وَمُـرِّ الـنّكال ففـيه الـهَـنَا
ومُت مِثْلَ ما مـاتَ أَهْلُ الهَوَى وَذابُـوا اشْـتِيَاقاً فَـنَالُوا الْمُنَـى
ومـا ضـرُّهُمْ حِـينَ نَـادَيْـتُـهُـمْ عَلَـى طَـوْر قَلْبِـي أَنّـى أَنَـا

إشارة البنفسج

فتنفس البنفسج تنفس الصعدا، وقال: طوبى لمن عاش عيش السعدا، ومات موتَ الشهدا، إلى متى أموت بالذبول كمدا، وأكتسى بالنحول أثوابا جددا، أفتنى الأيام فما أطالت لى أمدا، وغيرتنى الأحكام فما أبقت لي جلدا، فما أقصر ما قضيت عيشا رغدا، وما أطول ما بقيت يابسا منجردا، وجميلة فضولى أننى أؤخذ أيام حصولي، فأقطع عن أصولى، وأمنع عن وصولى، ثم يتقوى على ضعفي، ويعسف بي مع ترفى ولطفى، فيتنعم بي من حضرني، ويجتلبني من نظرني، ثم لم ألبث إلا يوما، أو بعض يوم، حتى أسام بأنجس السوم، ويعاد على بعد الثناء باللوم، فحينئذ أعود يابسا، ومن النضارة آيسا، فيأخذنى أهل المعانى، ومن كان للحكمة يعانى، فتفشى بي الأورام الفاشية، وتلين بي الآلام القاسية، وتعصف بي الطبائع العاتية، ويدفع بي الأدواء العادية، والناس يتنعمون بيابسى ورطبى، جاهلون بعظم خطبى، غافلون عما أودع فيَّ من حكم ربي، ولسان الحال يقول عنى بلا ضجر، فإنى لمن تدبرنى عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن ادّكر، وفيَّ مزدجر لمن ازدجر، حكمة بالغة فما تغنى النذر، وفي ذلك أقول:

وَلَقَـدْ عَجِبْتُ مِـنَ البَنَفْسج إِذْ غَدَا يَحْكِـى بـأوْرَاقٍ علـى أغْـصَانِـهِ
جَيشاً طَـوارِقُهُ الزَّبَـرْجَدُ رُصِّـعَتْ أحْجَـارُ يَاقُـوتٍ عَلَـى خِرصَـانِـهِ
فَكَأَنّـمَـا أعْـدَاؤهْ بِجِـلاَدِهِ شِـيلَتْ رءوسُـهُم علـى عِـيدَانِـهِ

إشارة المنثور

فتأوه منظوم المنثور، بنفثه المصدور، ورشفه الموتور، وقال: ما هذا الغرور بالعمر المبتور، وما هذا السرور بالعيش المكدور، أما يعتبر العاقل بغصنى المائل، ولونى الحائل، وعمرى الزائل، وأيامى القلائل. غيرتنى حوادث الأيام، فقسمت لونى ثلاثة أقسام، فمنى الأصفر، كسى من السقم ثوبا معصفرا، ومنى الأبيض اليقق، والأزرق الذى كاد

بكمده يحترق.

فأما الأبيض، فلا يفوح عطره، ولا ينشق نشره، ولا يكشف ستره، وذلك لأنه كتم سره فما باح، وأخفى عطره فما فاح، وملك أمره فلا تلعب به الأهواء والرياح. وأما الأصفر، فخلع العذار واستراح، وتوشح من السقم بوشاح، وفاح بعطره في الغدو والرواح. ونشر أنفاسه في المساء والصباح، يقول بلسان حاله، وصدق مقاله:

إنْ غلَبَ وَجْدِي وبُحْتُ بما عِنْدِى ... فَلَيْسَ عَلَى العَاشِقِ إنْ بَاحَ جُنَاحُ
لاَ تَلُمْنِى إنْ بَدَا مِنّى افْتِضَاحٌ ... فمَا عَلَى مَنْ بَاحَ فى الحبِّ جُنَاحُ
فَبِحَقِّ اللَّهِ يَا نَسِيمَ الصَّبَا ... بَلِّغْ سَلاَمِى أَهْلَ تِلْكَ البِطَاحِ
وَقُلْ لَهُمْ عَنِّى مصْنَاكُم ... يُقْلِقُهُ البَرْقُ وَمَرُّ الرِّيَاحِ
مَا نَفَحت مِنْ نَحْوكُمْ نسْمَةٌ ... إلاَّ وسحَّ الدَّمْعُ شَجْواً وَسَاح
لَوْلاَكُمْ يَا أَهْلَ ذَاكَ الحِمَى ... مَا رَاحَ قَلْبِى مُوثَقاً بالجِرَاحِ
أَسَرْتُمُ القَلْبَ فَيكْفِيكُمْ ... لاَ تَقْتُلُونِى قَدْ رَمَيْتُ السِّلاحَ

وأما الأزرق منه، فانطوى فى جواه، وصبر على أذاه، وكتم بالنهار شذاه، وقال: أنا لا أبوح بسرى لعاشق، ولا أفوح بنشرى لناشق، فإذا جن ليلى أبديت ما بى لأحبابى، وشكوت مصابى لأهل أوصابى، فإذا دارت الكؤوس، شربت كاسي، وإذا طابت النفوس صعدت أنفاسى لجلاسى، فأنا لجلاسي كالخل المواسي، ومتى دعيت إلى أناسى سعيت على راسى، وإلى الله أشكو ما أقاسى من القلب القاسى، وما كتمت بالنهار عطرى، واخترت في الليل هتك سترى وإلا لأن في الليل خلوة العشاق، وراحة كل مشتاق، وغيبوبة الرقيب، وحضرة الحبيب، وإذا قال: هل من سائل جعلت أنفاسي إليه رسائل، وذلى لديه وسائل، وفى ذلك أقول:

أُصَعِّد أَنْفَاسَ شَوقِى إلَيْهِ ... وَأُوقِفُ طِيبَ ثَنائِى عَلَيْهِ
وَمَابِى إلَى وَصْلِهِ شَافِع ... سِوَى حُسن ظَنّى وذُلِّى لَدَيْهِ
وَقَلْبِى فَى سَخْطِهِ وَالرِّضَى ... سَوَاءٌ فَلاَ حَال عن حَالَتَيْهِ

إشارة الياسمين

فصاح بفصاحته الياسمين، وقال: أنا الياسمين، ويحكم إنى أفوح بوقاحة روحى بين الرياحين، وأتردد على الآثار حينا بعد حين، أجلب من خزائن الغيوب، ولا أسكن إلا في كماين الجيوب، أبوح بسرى أينما حضرت، وأفوح بعطرى أينما خطرت، لا أخفى

علـى ذى ذوق، ولا ينكرنـى من له شوق، فريحى على الرياحين يعلو، وزهرى ونشرى علـى الأزاهـير يـنمو، لأن مـن طاب معناه، كان أطيب وأذكى، ومن صح دعواه، كان أطهـر وأذكى، فمن أراد مراتب العلى فليعل بلطافة معانيه، وليرق فى درج معاليه، ولا يكـن ممـن قـصر في تدانيه، فما يفوز بأمانيه. ثم إن فى إشارة، وحقيقتها للعالمين بشارة، فأول اسمى ياس وآخره مين، فاليأس شين والمين زين، فلما اجتمعا ياس ومين دل على بينونة البين، وبشرا بقرة العين، وفى ذلك أقول:

رَأَيْتُ الـفَـأْلَ يُخبِرُنِى بِخَـبَـرٍ ... وَقَـدْ أهـدى إلـيَّ الـياسـمـينُ
قَـالَ: لاَ تَحْـزَنْ فـإنَّ الحُـزْنَ ... شَـيْنٌ فـإِنَّ الـيَأْسَ مـينُ

إشارة الريحان

فقـال الـريحان: قـد آن حضورى، وحان سرورى، فخذونى خديما، واتخذونى نديما، فـرطيب خـضرتى يخبر عـن طيب حضرتى، وكيف تستريح روح بغير ريحان، أم كيف يطـيب وقـت بغـير ألحان، أنا الموعود بى في الجنان، السارى بأنفاسي إلى صميم الجنان، فلونى أعدل الألوان، وكوني ألطف ما في الأكوان، فمن جنانى يستنشق نشرى النطوى في جنانـي، فأنـا ألـيف الأنهار، وحليف الأزهار، وجليس السمار، وكاتم الأسرار، فإن سمعـت في جنسى بالمنام، فلا تكن له من اللوام، فإنه ما نم إلا على عطره، ولا باح إلا بـسره، ولا فـاح إلا بنـشره، باح بسره إعلاما، ونشر بنشره أعلاما، فلذلك سمى نماما، فلـيس مـن نم علـى نفسه كمن نم على غيره، ولا من جاد بخيره كمن عاد بضيره، فقد جرت الأحكام، وجفت الأقلام، أن النمام مذموم بين الأنام والسلام، وفي ذلك أقول:

سَـائِلى عَـن خَفِـيّ سِـرّ غَرَامِـى ... وَيْـكَ اقـصر وَخَلِّنِـى وَهَيامِـى
أَنَـا مُـسْتودِعٌ لِـسِرّ حَبِيبِـي ... كَـيْفَ أُبْـدِي ولَـسْتُ بالـنَّمَّـامِ

إشارة الأقحوان

فـنادى علـى نفسه الأقحـوان، وهـو بمـا كـسى من النضارة فرحان، وقال: قد آن ظهـورى، وحـان سرورى، واعتدل فصل وجودى، وطاب في الحضرة شهودى، وكيف لا يطيب وقتى، وهذه الأنهار تجرى من تحتى، وكيف لا أؤدى بالشكر زكاه حولي، وقد تم لـي نـصابي مـن حـولى، ومـا ذاك مـن قوتـى ولا حـولى، فبياضى هو العلم المعلم، واصـفرارى هـو الـسقم المـبرم، واخـتلاف ألوانى هو المتشابه المحكم، فإن كنت للرموز تفهـم، فقم إلى تغنم وإلا فنم، وإن كنت لا تدري ما تم فحقيق أن يقام عليك مأتم، وفي

ذلك أقول:

إذَا لم تُـــدْرِكِ المَعْنَـــى وتَـــدْرِى خفَايَـــا مَـــا أقُــولُ فَـــلاَ تَلُمْنَـــى
نَـــصَحْتُكَ مُـــشْفِقاً بِلِـــسَانِ حَالِـــى وَمَـــا يُنْبِـــئُكَ شَـــرْحُ الحَـــالِ عَنِّـــى
أَمَـــا يَكْفِـــيكَ حَوْلِـــى كُـــلَّ حَـــوْلٍ وَمَـــا نَالَـــتْهُ أَيْـــدى الدَّهْـــرِ منّـــى
فكَـــمْ وَافَيْتَنِـــى فِـــى جَمـــعِ شَـــمْلٍ زَمَانـــاً ثـــمَّ جِـــئْتَ وَلَـــمْ تَجِدنـــى
حمـــامُ الأَيْـــك يُـــسْعِدُنِى إذَا مـــا شَـــكَوْتُ إلـــيهِ مَـــا أَلْقَـــى يُجِبْنـــى
يَـــنُوحُ علـــيَّ مـــن عَلِـــمَ بـــأنِّـــى ملقـــى للفـــنـاءِ بِكُـــلِّ فـــنٍّ
وَأنْـــتَ تظـــنّهُ لَعِـــباً وَلَـــهْـــواً فَتَمْـــرَحُ بَـــيْنَ عِيدَانِـــى وَغُـــصْنِى
حقـــيقاً أنْ يُـــنَاحَ عَلَـــيْكَ إِذَا لَـــمْ تُفَـــرِّقْ بَـــيْنَ أَفْرَاحِـــى وَحُزْنـــى

إشارة الخزامى فلما رأى الخزامي ما يكابده الزهر قيدا والتزاما، فمنها ما يضام، فينثر بعد النظام، وبالثمن البخس يسام، فقال: ما لي وللزحام، وما لي ومعاشرة اللئام، أنا من بين الأزهار لا أجاور الأنهار، ولا أسكن إلا على شفا جرف هار، بل أوافق الوحش في النفار، وسكنى البوادي والقفار، أحب من الخلوات فسيح الفلورات، ولا آسف على ما فات، فلا أزاحم في المحافل، ولا أتحمل منة الزارع والكافل، ولا تقطفنى أيدى الأسافل، ولا أحمل إلى لاعب ولا هازل، ولكننى بعيد عن المنازل،تجدنى بأرض نجد نازل، رضيت بالبر الفسيح، وقنعت بالعرعر والشيح، تعبث بنشرى الريح، فتحملنى إلى ذوى التقديس والتسبيح، فلا ينشق نشرى، إلا من له شوق صحيح، وذوق صريح، ومن هو على زهد المسيح، وصبر الذبيح، فأنا رفيق السواح، في الغدو والرواح، فأفوز بالأجور، وأسلم من حضور أهل الفجور، ومن يقترف المعاصي بالجحور، فلا أحضر على منكر، ولا أجلس عند من يشرب ويسكر، فأنا الحر الذى لا يباع في الأسواق، ولا ينادى على بالنفاق، في سوق النفاق ولا يحضرني الفساق، ولا ينظرني إلا من شمر عن ساق، وركب على جواد العزيمة وساق، فلو رأيتنى في البوادى، يهيم بي النسيم في كل وادى، أعطر النادى وأروح البادى، إن عرض بذكرى الحادى، حن إلى كل رائح وغادى، وفي ذلك أقول:

يُحَدِّثُنِـــى النَّـــسِيمُ عَـــنِ الخُزَامِـــى وَيُقْرِينِـــى عَـــنِ الـــشِّيحِ الـــسَّلاَمَـــا
فَهِمْـــتُ بِمَـــا فَهِمْـــتُ وَطِبْـــتُ وَجْـــداً فَمَـــا أَحْـــلاهُ لِـــى لَـــوْ كَـــانَ دَامـــا
وَتَـــسْرِى تَحْـــتَ جُـــنحِ اللَّـــيلِ شِـــرّاً فَتُوقِظُنِـــى وَقَـــدْ هَجَـــعَ النِّـــيَامَـــا

فَأسكرُ من شَذَاهَا حَينَ هبَّتْ ... كَأنِّى قَدْ تَرَشَّفْتُ المَدَامَا
تُعَارِضُنِى بِأنْفَاسٍ مِرَاضٍ ... كَأنْفَاسِى وَقَدْحُشِيتُ غَرَامَا
وقد عُرِفَتْ بِطِيب العُرْفِ لَمَّا ... كَسَاهَا اللّطْفُ أخْلاَقاً كِرَامَا
أَهِيمُ بنشرها طَرَباً وَسَكْراً ... فَيُبْدِى البَرْقُ مِنْ طَرِتى ابتسَامَا
تَمُرّ عَلَى الرِّيَاضِ رِيَاضِ نَجْدٍ ... فَتَنْعَطِفُ الغُصُونُ لَهَا احْتِشَامَا
وَيُقْلِقُنِى حَمَامُ الأَيْكِ نَوْحاً ... وَتُذكِّرُنِى المَنَازِلَ والخِيَامَا
خِيَامٌ تجمعُ الأَحْبَابَ فِيهَا ... وَفِيهَا يَبْلُغُ القَلْبُ المَرَامَا
وَتجَلَّى وَجْه مَنْ فِيهَا ... بِبَهْجَةِ نَوْرِهِ يُجلِّى الظَّلاَمَا

إشارة الشقيق

فتنفس الشقيق من بين ندمائه، وهو مضرج بدمائه، واستوى على ساقه ووثب، وقال: يالله العجب ما بال لونى باهى، وحسنى زاهى، وقدرى بين الرياحين واهى، فلا أحد بى يباهى، ولا ناظر إلى ساهى، فيا ليت شعرى، ما الذى أسقط جاهى، أرفل فى ثوتى القانى، وأنا مدحوض عند من يلقانى، فلا أنا في الحضرة حاضر، ولا يشار إلى بالناظر، ولا أصافح بالمناخر، وما برحت في عدد الرياحين آخر، فأنا طريد عن صحبى، بعيد عن قربى، وما أظن ذلك إلا من سواد قلبي، ولا حول لي عن مراد ربى، فلما رأيت باطنى محشوا بالعيوب،وقلبى مسودا بالذنوب، علمت أن الله لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى القلوب، فكان إعجابي بأثواتي سببا لحجابي عن ثواتي، فكنت كالرجل المنافق الذي حسنت سيرته، وخبثت سريرته، وراق في المنظر سيمته، وقل في المخبرقيمته، فلو صلح قلبى، ولو شاء ربي، لأطاب بين الخلائق ذكرى، وأفاح بين الأزاهير عطرى، لكن شذا الطيب لا يفوح، إلا ممن يطيب، وإشارات القبول لا تلوح، إلا من رضى عنه الحبيب، وحق لمن أصبح بهواه كئيب، وعن معناه سليب، أن يندب عليه بالنحيب، ويبكى عليه بالدمع الطبيب، عسى يرضى عليه الحبيب، ويمن عليه بالتوبة من قريب، وفي ذلك أقول:

لا تلمنى إذَا شققت ردائى ... فملامى يزيد من حر دائى
أَنَا قَلْبِى قَد سَوَّدَتْهُ ذُنُوبِى ... وَقَضَى لى مُعَذِّبِى بِشَقَائِى
مَنْ رآنِى يَظُنُّ خَيراً ولَكِنْ ... باخْتِبَارِى يَظُنُّ أنّى مُرائِى
مَنْ رَأَى حُسْنَ مَنْظَرى وَلِبَاسِى ... وَالرَّزَايَا مَحْشُوّةٌ بِحَشَائِى

وَأَحيَائِــى إذا سُــئلتُ وَمَالِــى مِـنْ جَـوابٍ وأَخجَلَنِـى واحَيَائـى
لَـوْ كَـشفَتَ الـستُور عَنْ سُوءِ حَالي لَـــرَأَيْتَ الـــسّرُورَ لـلأَعْــداءِ
لَكِـنَّ الأَمْـر بَـيْنَ قَلْبِـى وَرَبِّـى عَامِـرٌ أَرْتَـجِـيهِ يَـوْمَ مَعَــادِى

إشارة السحاب

فلما حسن العتاب، وطاب فصل الخطاب، سح دمع السحاب، فانبسط وساح في الرحاب، وقال: سبحان الله! أينكر فضلى عليكم، وأنا الباعث طلى ووبلى إليكم، وهل أنتم إلا أطفال جورى، ونسل وجودي، كم ملأت الأرض برا ببرى، والبحر درا بدرى، أنا مغذى نطف البذر في بطن أمه، ومستخرجه بالنمو من غمة غمه، فإذا تمخضت الحوامل بحملها، بنات النبات من حفرة رملها، جعلت حواليها إلى، وحضانتها لدى، فلم يزل ثدى درى عليه درارا، ومزيد برى إليه مدرارا، فإذا انقضت أيام الرضاع، ولم يبق إلا أيام الفطام، قطعت عنه درى، فيصبح لأهل الدنيا حطاما، وكان بالأمس يحرس أن لا يضام سروره في انسكاب عبراتى، ونشوره في بعث قطراتى، فالكل في الحقيقة أطفالي، لو اعترفوا بحقى لكانوا من الجوى أطفالي، وقد سمع كل حي في الحي، وجعلنا من الماء كل شيء حي، وفى ذلك أقول:

وإذَا نَظَـرتُ لِـرِيعِهَا المِهْطَالِـى أَبْكِـى عَلَـيْهِ بِدَمْعِـى الـهَـطَّـالِ
يَبْكِـى المَشُوقُ إذَا البُـروقُ تَبَسَّمَتْ وَوَشَـتْ إِلَـيْهِ نَـسَائِمُ الأَوْصَـالِ
فَتَـنفَّس الـصُّعَدَاء مِـنْ زَفَـرَاتِـهِ مُتَلَفِّـتـاً لِـدَوارِسِ الأَطْـلالِ
لا تَعْذُلَـنه عَلَـى جَـواهُ وَلاَ تَـلُـمْـ ـه فَلَسْت عَنْه إلى المماتِ بسَالِى
واحـذر مُقَاوَمَـةَ الغَـرَامِ فَـإنَّـهُ فِـيهِ اللَّبِـيب مُبَلْـبلُ الـبَلْـبَالِ

إشارات الأطيار وأولها إشارة الهزار

فبينما أنا مصغ إلى منادمة أزهارها، على حافات أنهارها، إذ صاحت فصاحة أطيارها من أوكارها، فأول من صوت الهزار، ونادى على نفسه بخلع العذار، وباح بما عنده من الأسرار، وقال: أنا العاشق الولهان، أنا الهائم اللهفان، أنا الواله الظمآن، إذا رأيت فصل الربيع قد حان، ومنظره البديع قد آن، تجدنى في الرياض فرحان، وعلى الأغصان أردد الألحان، أغنى فأطرب، وأدير كأسى فأشرب، فأنا من نشوتى سكران، ومن نغمتى طربان، إذا زمزم النسيم، وخفقت أوراق أغصان البان، أرقص على العيدان، كأن الزهر والنهر لي عبدان، وأنت تحسبنى في ذلك عابثا، لا والله ولست في

يمينى حانثا، إنما أنوح حزنا لا طربا، وأبوح ترحا لا فرحًا، لأننى لا أجد روضة إلا نحت عليها وعلى أضمحلالها، ولا خضرة إلا تبلبلت على زوالها، لأني ما رأيت صفوة إلا وتكدرت، ولا عيشة حلوة إلا وتمرمرت، وقد قرأت في محكم القرآن ﴿كل من عليها فان﴾ فكيف لا أنوح على عيش يزول، وحال يحول، ووصل عن قريب مفصول، فهذه الجمل من شرح حالي تغنى عن الفصول، وفي ذلك أقول:

حَديثُ ذَاكَ الحِمَى رَوْحِي وَرِيحَانِي
فَلاَ تَلُمْنِي إِذَا كَرّرتُ أَلْحَانِي
رَوْضٌ بِهِ الرَّوْحُ وَالرَّيْحَانُ قَدْ جُمِعَا
وَخُضْرَةٌ مَا لَهَا فِي حُسْنِهَا ثَانِي
مِنْ أَبْيَضَ يَقِقٍ أَوْ أَصْفَرَ عَبِقٍ
أَوْ أَزْرَقَ بَرِقٍ أَو أَحْمَرَ قَانِ
وَالأُنْسُ دَانٍ وَشَمْلُ الوَصْلِ مُجْتَمِعٌ
هَذَا هُو العَيْشُ لَوْلاَ أَنَّهُ فَانِي

إشارة الباز

فناداه الباز من ميدان البراز: ويحك لقد صغر جرمك، وكبر جرمك، وضعف قدرك، ولقد أقلت بتغريدك الطير، وإطلاق لسانك يجلب عليك الضير، وما يفضى بك إلى خير، وما يهلك الإنسان، إلا عثرات اللسان، فلولا لقلقة لسانك، ما غربت عن أوطانك، وأخذت من بين أقرانك، وحبست في ضيق الأقفاص، وسد عليك باب الخلاص، فهل ذلك إلا مما جناه عليك لسانك، وأفصح به بيانك، فلو اهتديت بشيمتي، واقتديت بسيرتي، لبرئت من الملامة، وعلمت أن الصمت رفيق السلامة، ألا تراني كيف ألفت السكوت، ولزمت الصموت، فكان الصمت جمالي، ولزوم الأدب كمالي، اقتنصت من البادية قهرا، وجلبت إلى بلاد الغربة جبرا، فلا بالسريرة بحت، ولا على العشيرة نحت، بل أدبت حين غربت، وقربت حين جربت، ومنحت حين امتحنت، وقد قيل فيما تقدم من الزمان عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، نظر مؤدبي إلى تخليطى الوقت، فخاف على من المقت، فكمم بصرى بكمامة، ولا تمدن عينيك، وعقد لساني

بعقدة، ولا تحرك به لسانك، وقيد قدمى بقيد، ولا تمش في الأرض مرحا، فأنا في وثاقي أتألم، ومما ألاقى لا أتكلم، فلما كممت وعلمت، وأدبت وهذبت، استخلصنى مؤدبى إلى إرسال الصيد، وأزال عني ذلك القيد، فأطلقت وأرسلت هناك بإشارة إنا أرسلناك، فلما رفعت الأكمة عن عينى، وأصلحت ما بينه وبيني، رأيت الملوك خدمى، وأكفهم تحت قدمي، وفي ذلك أقول:

أَمْسكْتُ عَنْ فَضلِ الكَلامِ لِسَانِي ... وكَفَفْتُ عَنْ نَظَرِ الـلا أنْشَانِى
مَا ذَاكَ إلاَّ أَنَّ قُرْبَ مَنِيَّتِى ... لِزَخَارِفِ اللَّذَّاتِ قَدْ أَنْسَانِى
أُدِّبْت آدَابَ المُلُوكِ وَعَلِمْتْ ... رُوحِى هُنَاكَ صَنَائِعَ الإِحْسَانِ
أُرْسِلْتُ عَنْ كَفِّ المُلُوكِ مُجَرّداً ... وَجَعَلْتُ مَا أَبْغِيهِ نُصبَ عِيَانِى
حَتَّى ظَفَرْتُ وَنِلْتُ مَا أَمّلْتُهُ ... ثُمّ اسْتَجَبْتُ إِلَيْهِ حِينَ دَعَانِى
هَذَا لَعَمْرِكَ وسْمُ كلِّ مكلَّفٍ ... بِوَظَائِفِ التَّسْلِيمِ والإِيمَانِ

إشارة الحمامة

فبينما أنا مستغرق في لذة كلامه، معتبر بحكمه وأحكامه، إذ رأيت أمامه حمامة، قد جعل طوق العبودية في عنقها علامة، فقلت لها: حدثينى عن شوقك وذوقك، وأوضحى لي ما حكمة تطويق طوقك؟ فقالت: أنا المطوقة بطوق الأمانة، المتقلدة تقليد الصيانة، فأنا لحمل الأمانة قد ندبت، وبالمحافظة عليها أمرت، فإذا رأيت أهل الجناية ندبت أحمل الرسائل، وأبلغ الوسائل، وأجيب المسائل، وأؤدي الأمانة، ولا أسائل، ولكني أخبرك بخبري، لتعلم حقيقة مخبري، أخبرك بالقصة الصحيحة، فإن الدين النصيحة، ما كل طائر أمين، ولا كل حالف يصدق في اليمين، ولا كل سالك هو من أصحاب اليمين، وإنما الخصوص بحمل الأمانة جنسي، وما أبرىء نفسي، يحمل الأمانة منا من كان أبلق وأخضر، لأنه أحسن في الشكل والمنظر، وأعدل في الخبر والمخبر، ولا تكون الشيم العلية إلا في الروح الزكية، ولا شرف العزيمة إلا في النفس النفيسة المستقيمة، فإن اعتدال لون الطائر يدل على اعتدال تركيبه، فيصلح حينئذ وتأديبه، فلما باشرني مؤدبى بالتخريج، وعرفني الطريق بالتدريج، أقول: حملوني ما شئتم، فأحمل كتب الأسرار، ولطائف الأخبار، فحينئذ أطير، وأقطع الهول المستطير، خائفا من جارح جانح، حاذرا من سايح سارح، جازعا من صائد ذابح، أكابد الظمأ في الهواجر، وأطوى على الطوى في المحاجر، فلو رأيت حبة بر مع شدة جوعى، عدلت عنها، وذكرت ما جرى على آدم منها، فأرتفع خشية من كمين فخ مدفون، أو شرك يعوقنى عن تبليغ

الرسالة فأنقلب بصفقتى مغبونا، فإذا أنا وصلت، وفي مأمنى حصلت أديت ما حملت، وعملت بما علمت، فهنالك طوقت، وبالبشارة خلقت، ثم انقلب إلى شكر الله على ما وفقت، وفي ذلك أقول:

أَأَحْبَابِــي وَصَــلْتُمْ أَوْ صَــدَدتُمْ فَعَــبْدُكُم علــى حِفْــظِ الأَمَانَــةِ
مُقِــيمٌ لاَ يُزَحْــزِحُــهُ عَــذُولٌ وَلاَ يُثْنِــي مُعَــنِّفُهُ عِــنَانَــه
حَمَلْــتُ لأَجْلِكُــمْ مَـا لَـيْسَ تَقْـوَى جِــبَالٌ أَنْ تَحْمِلَهــا وزَانَــه
فَحِفْــظُ العَهْــدِ مَــا وَافَــاهُ حُــر وَلَــو أَوْدَى هَــواهُ بِــهِ وشَــانَه

إشارة الخطاف

فبينا نحن نتذاكر أوصاف الأشراف، وأشراف الأوصاف، إذ نظرت إلى خطاف، وهو بالبيت قد طاف، فقلت له: مالي أراك للبيوت ملازم، وعلى مؤانسة الإنس عازم، فلو كنت في أمرك حازم، لما فارقت أبناء جنسك، ورضيت في البيوت بحبسك، ثم إنك لا تنزل إلا في البيوت العامرة، والمنازل التي هي بأهلها عامرة، فقل لي: يا كثيف الطبع، يا ثقيل السمع، اسمع الآن قصة حالي، وكيف عن الطيور ارتحالي، أنا ما فارقت أمثالي، وعاشرت غير أشكالي، واستوطنت السقوف، دون الشعاب، والكهوف، إلا لفضيلة الغربة، ولزوما لأدب الصحبة، صحبت من ليس مني لاكون غريبا، وجاورت من هو خير مني لأضرب لي بينهم نصيبا، فأعيش عيش الغرباء، وأفوز بصحبة الأدباء، فالغريب مرحوم في غربته، ملطوف به في صحبته، فقصدت المنازل، غير مضر بالنازل، أبتنى بيتي من حافات الأنهار، وأكتسب قوتى من مباحات القفار، فلست للجار كمن جار، ولا لأهل الدار كالغدار، بل أحسن جواري مع جاري، أكثر سوادهم، ولا أستطعم زادهم، فزهدى فيما في أيديهم، هو الذي حببنى إليهم، ولو شاركتهم في قوتهم، ما بقيت معهم في بيوتهم، فأنا شريكهم في أبنيتهم، لا في أغذيتهم، مزاحمهم في أوقاتهم، لافي أقواتهم، مكتسب من أخلاقهم، لا من أرزاقهم، منتهب من جمالهم، لا من مالهم، مقتبس من برهم، راغب في حبهم لا في حبهم، فزهدي بما في أيديهم هو الذي حببنى فيهم، مقتديا في ذلك بإشارة صاحب البشارة صلى الله عليه وسلم (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)، وفي ذلك أقول:

كُنْ زَاهِـداً فِيمَا حَـوَتْهُ يَـدُ الـوَرَى تُــضْحَى إلى كُــلِّ الأَنَــامِ حَبِيــبا
أَوَ مَـا تَـرَى الخُطَّـافَ حَـرَّمَ زَادَهُـمْ فَغَــدا رَبِيــباً في الحُجُــورِ قَــرِيبا

قلت: لله درك لقد عشت عيشا سعيدا، وسرت سيرا حميدا، ووفقت أمرا رشيدا، وقلت قولا سديدا، ولا أطلب على موعظتك مزيدا، فالعاقل يفهم، والجاهل يندم.

إشارة البوم

فناداه البوم وهو منفرد بالخراب مهموم، أيها الصديق الصادق، لا تكن بمقالة الخطاف واثق، ولا لعقله موافق، فإنه إن سلم من شبه زادهم، فما سلم من شبهة فرحهم وأعيادهم، وتكثير سوادهم، وقد علمت أن من كثر سواد قوم فهو منهم، ولو صحبهم ساعة صار مسئولا عنهم، وقد علمت أن مبدأ التفريط من آفة التخليط، والخلطة غلطة، وأول السيل نقطة، واعلم أن السلامة في العزلة، فمن وليها لا يخاف عزله، فهلا استسن بسنتى، وتأسى بوحدتي، واعتزل المنازل والنازل، وزهد في المآكل والآكل، فلا أساكنهم في مساكنهم، ولا أزاحمهم في أماكنهم، ولا أجالسهم في مجالسهم، بل اخترت لنفسي الداثر من الجدران، ورضيت بالخراب على العمران، فسلمت من الأنكاد، وأمنت من شر الحساد، ولم أزل عن الأحباب فريدا، وعن الأتراب بعيدا، من كان مسكنه التراب، كيف يساكن الأتراب، ومن كان الليل والنهار يجريان من عمره، فكيف لا يقنع بالخراب، ومن علم أن الموت وراءه كيف يتعلق بالأسباب، ومن علم أن العمر قصير، وأن كل شيء إلى الفناء يصير، قنع من الدنيا باليسير، وبات على خشن الحصير، وأفطر على قرص الشعير، وعلم أن الخلق في المصير، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

أما أنا فنظرت إلى الدنيا وذهابها، وإلى الآخرة واقترابها، وإلى القيامة وحسابها، وإلى النفس واكتسابها، فشغلنى التفكير في حالي عن منزلي الخالي، وأذهلني ما على وما لي، عن أهلي ومالي، وأهمني صحتي واعتلالي عن القصور العوالي، فجلا اليقين عن بصر بصيرتي كل شبهة، فعلمت أن لا فرح يدوم ولا نزهة، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، فعرفت من هو، وما عرفت ما هو، فحيث كنت لا أرى إلا هو، وإذا نطقت فلا أقول إلا هو، لأنه لا إله إلا هو، وفي ذلك أقول:

أَفْرَدَنِى عَنْهُمْ هَوَاهُ ... وَلَيْسَ لى مَقْصِدٌ سِوَاهُ
أَهِيمُ وَحْدى بِصِدْقِ وَجْدِى ... وَحُسْنِ قَصدِى عَسَى أَرَاهُ
أَنْكَرَ صَحْبى غَرَامَ قَلْبِى ... وَمَا دَرَوْا بِالَّذِى دَهَاهُ
أَحْبَبْتُ مَوْلَى إِذَا تجلَّى ... يَقْتَبِسُ البَدْرُ مِنْ سَنَاهُ

تَحيّر النَّاسُ فيه شَوْقاً   وَجُمْلَةُ النَّاس فِيه تَاهُوا
وَلاَ أسميه غير أنّي   إنْ غَلَبَ الوجدُ قُلتُ: ياهو

فأخذت موعظته بمجامع قلبي، وقلت: هذا رحمة من ربي، وخلعت عني ملابس عجبى، إلا أن الهوى يقول: عج بي.

إشارة الطاووس

ثم التفت، فرأيت طاووسا، قد شرب من خمرة العجب كؤوسا، قد زخرف بملابس التلبيس، وهو الذي عاد عليه شؤم إبليس، قد زين ريشه ألوان، وفنن عيشه أفنان، لا يأوى إلا إلى الجنان، والله يعلم بما في الجنان، فقلت له: ويحك، كم بينك وبين البوم من الحظ المقسوم، فأنت أيها العانى نظرت إلى الصور، وهو نظر إلى المعاني، فأنت تفرح بالفاني، وتغتر بالامانى، فقال لي: يا عانى، يا من بالشماتة نعانى، لا تظهر لي الشماته، ولا تذكر الحزين ما فاته، فقد قيل في الخبر: (ارحموا عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر)، أين كنت يا مسكين، وأنا في الجنان أطوف بين الظلال والقطوف، أدور دورها، وأزور حورها، وأسكن قصورها، شرابي التسبيح، وطعامي التقديس، حتى ساق لي القدر إبليس، فألبسني ملابس التلبيس، حتى عوضنى بالخسيس عن النفيس، ولقد كنت لمراده كاره، لكن القضاء والقدر يوقع في المكاره، وينفر الطير عن أوكاره، ولقد كان إبليس يرفل في حلل حبه، وخلع قربه، فما تركه شؤم رأيه، حتى تاه على آدم بعجبه، فأوقعنى في الخطية، وما أطلعنى على ماله في الطوية، غير أني كنت له دلاله، وكانت الحية في دخوله الجنة محتاله، فأخرجت معهم من دار العز إلى دار الهوان والإذلال، وقيل: هذا أجره الدلال، وهذا جراء من عاشر الأنذال، ثم أبقيت على زينة ريشي، أتذكر به ما كان من صفو عيشى، فيزيدنى ذلك تحرقا وتشوقا، ثم جعلت على علامة السخط في ساقي، أنظرها بأحداقى، وينادى على بنقض ميثاقى، ثم إنى ألفت من البقاع بقعة، تشاكل ما خرجت منه، وطردت بما فعلت عنه، فأتذكر بالبساتين مرابع ربوعى، وأجرى عليه سواكب دموعي، وألوم نفسي التي كانت سببا لوقوعي، وأقول كلما ذكرت تفريق جموعي:

يَا دَارُ هَلْ يُقْضَى لَنا بِرُجُوعٍ   وَيَعُودُ لِى يَا عَيْنُ طِيبَ هُجوعِى
يَا سَادَةَ كَادَ المَشُوق بِذِكْرِه   يَقْضِى أَسىً في سَاعَةِ التَّوْدِيعِ
قَلْبِى لِيَوم فِرَاقِكُمْ مُتَوجّعٌ   وَارَحْمَتَاهُ لِقَلبي المَوْجُوعِ

فـرَّقْتُم مَـا بَـيْنَ عَيْنِـى وَالـكَـرَى وَوَصَـلْتُمْ بَـيْنَ الأسـى وَضُـلُـوعِـى
جِسْمِى مَعِى وَالقَلْبُ بَيْنَ خِيَامِكُـمْ مـا ضـركُم لـو كـانَ ثَـمَّ جَـمِيعِى
وَإِذَا ذَكَـرْتُ لياليـاً سَـلَـفَـتْ لَـنَـا في وَصْـلِ أَحْبَابِـى بَـيْنَ ظِـلِ رُبُوعِى
فَأَكَـادُ مِـنْ حرقـى أَذُوبُ صَـبَـابَةً لَـوْلاَ يَجُـودُ علىّ فَـيْض دُمُـوعِـى
وَوَعَدتُّمُونِـى في الـحَـيَاة بِـزَوْرَةٍ فَتَـضَاعَفَتْ حُرَقِـي وَزَادَ وُلُوعِـى
إنْ كَـانَ ذَنْبِـى صَدَّنِى عَنْ وَصْلِكُـمْ فإلَـيكُمُ فقْـرِى أَعَـزُّ شَـفِيعِى
مَاضِـى القَطِيعَة لا يُعـادُ وَمَـا جرَى كَـافٍ وَحُبِّـى ذلّتـى وَخُـضُـوعِـى

فقـال: تالله، لقد رثيت لمصابه، وبكيت لأوصابه، لأنه لا شيء أبكى من الاغتراب، بعد الاقتراب، ولا أنكى من الحجاب، بعد مشاهدة الأحباب.

إشارة الدرة

فبينما هـو كلما نظر إلى ريشه نظرة، تذكر تلك الحضرة، فتجدد له الحسرة، وكلما نظر إلى ساقه نظرة صاح وصعد الزفرة، إذ رأيت إلى جانبه دره، قد كسيت ثيابا خضره، فصاحت بفصاحتها: أيها الطاووس، إلى كم هذا العبوس، والعيش المنكوس، أنت في الصورة عروس، وفي المعنى كظلمة الناووس، أوقعك الرأى المعكوس، حتى خرجت من منزلك المأنوس، وإنما أخرجت من مسكنك لجنايتك على الساكن، وتحريكك للأمر القاطن، فلو فكرت في السبب الذي أخرجت به، والشخص الذى طردت بسببه، لا اشتغلت بإصلاح شأنك، عن التنزه في بستانك، ويجب عليك كما جنيت على آدم في تلك الدار، أن تشتغل ههنا بالاعتذار، وتشاركه في الاستغفار، وتعترف بعد الإنكار، وتزاحمه في خلوات الأذكار، لعلك أن تزور معه إذا زار، فإنه لا بد له أن يعود، وتعود إليه أيام السعود، فإن آدم أخرج إلى مزرعة الدنيا، وقيل له: ازرع اليوم ما هو في الغد محصود، فإذا انتهى زرعك، ونما فرعك، فعد إلى مقامك المحمود، على رغم الحسود. فمن عمل عملك فهو مسعود، وحذا حذوك فهو موعود بدار الخلود، ألا ترى كيف علت همتى، وسمت عزيمتى، فلم أرض لنفسى بما رضيته أبناء جنسي، لأني نظرت إلى الوجود، وما فيه موجود، فرأيت آدم وبنيه من الكل مقصود، خلق الله الكائنات لأجلهم، في كلامهم، وشاركتهم في طعامهم، فأتشبه بهم، وإن لم أكن منهم، وأخالطهم ولا أرغب عنهم، فغلت قيمتى إذ علت عزيمتى، فأحلوني محل النديم، وألف بيني وبينهم من له الحكم القديم، فاذكر كما يذكرون، وأشكر كما يشكرون، لعلهم عند اللقاء يذكرون، وإذا ذكرت يشكرون، فأكون في الدنيا من خدامهم، وفي الجنة تحت

أقدامهم، وفي ذلك أقول:

اخْتَبِــرْ حَالِــى تَجِدْنِــى مِــنْ أصحِّ الــنَّاسِ مَجْبَــرْ
أَنَــا قَــدْ أَحْبَــبْتُ قَــوْماً شُــرِّفُوا مَعْنَــى وَمَنْظَــرْ
كَــبرُوا قَــدْراً وَذِكــراً فهُــمُ أزْكَــى وَأَطْهَــرْ
هكَــذَا قَــدْ قَــالَ حَقّــاً سَــيدُ الكَــونِ وبَــشَّرْ
كُــلُّ مَــنْ يَهْــوَى حَبِيــباً فَمَــعَ المَحْــبُوبِ يُحْــشَرْ

فلما سام نفسه بهذا السوم، ورأيته قد جلس بمزاحمته في صدور مجالس القوم، قلت: مـا رأيـت كالـيوم، الـبهائم في اليقظة، وأنا في النوم، ما لي لا أزاحم على أبواب ذوى المراحم، لعل يوهب مرحوم لراحم، ويقال: مرحبا بالقادم، ها قد وهبنا الجناية للنادم.

إشارة الخفاش

فناداه الخفاش، وهو في ارتعاش: إياك والزحام، فقد حام حول الحمى حام، وهو من ذوى الأرحام، فما أذن القسام إلا لسام:

فَــلا المنــى يُــدْرِكُ بِــسُمرِ القَــنَا وَلاَ العُلَــى يَعْلُــو بِحَــدِّ الحُــسَامِ

ولكـن علـيك بأوقـات الخلوات، والقيام في الليالي المظلمات، ألم تراني إذا طلعت الـشمس، دخلـت إلى وكـرى، وإذا انبسطت الـنفس، صـفت لي خلوة فكرى، فأنا في النهار، لا أزور ولا أزار، محجوب عن الأبصار، محبوب إلى ذوى الاستبصار، فإذا دجى ليلـى جردت ذيلى، وجعلت الليل معاشى، وفيه انتعاشى، لأن فيه يفتح الباب، ويرفع الحجاب، ويخلو الحبيب بالأحباب، وتغفل أعين الرقباء، وتتيقظ أشجان المحبين، وأحزان الغـرباء، ثـم لا تـصادف إلا العـشاق وذوى الأشـواق، ومن هو لكاس المحبة قد ذاق، فيفتح الحبيب بابه ويرفع حجابه، وينادى أحبابه، فترفع الرسائل بالدمع السائل، وتجاب المـسائل بألطـف الوسـائل، ويقـال: يـا جـبريل أقم فلانا وأنم فلانا، وقل لمن كتم حبى يـصرح بالإعلان، وقل لمن هو ظمآن، هذا الكأس ملآن، وقل لمن هو في حبنا ولهان إن الوصل قد آن، وفي ذلك أقول:

يَــا قَلْــبُ لاَ يُــؤْذِى بِــكَ الخَــفَــقَــانُ رَاضِــى الحَبِــيبُ وَوَاصِــلِ الغَــضْبَانُ
وَصَــفَتْ أُوَيْقَــاتُ الــسُّرُورِ بِوَصْــلِــهِ فَعلَــيْك فِــى حُكْــمِ الهَــوَى سلْــوانُ
لاَ تَكْحَلَــنَّ بِغَيْــرِ نُــورِ جمَــالِــنَا إِنْــسَان عَيْــنِكَ أَيُّهَــا الإِنْــسَانُ

الـيَوْمَ ينـسَخُ بيْنَـنَا مِـــنْ بَيْنِـنَـا ... لا صـدّ يُخْشى لا ولاَ هُجْـرانُ
لاَ يُـبْعِدنَّكَ عَتْبُـنَـا عَـــنْ بَـابِـنَـا ... فَالعَهْـدُ بـاقٍ وَالــودَادُ مُـــصَانُ
فَبِحُبِّــنَا وبِلُطْفِــنَـا وبِوصْـــفِـنَـا ... شَـاعَ الحَدِيثُ وَسَـارَت الـرُّكْبَانُ
فَلَــرُبَّمَا يكْـبُو الجَـــوَاد ورُبَّـمــا ... يَنْـبُو الـــزِّنَادُ وتَعْهُـــرُ الفُــرسَــانُ
فَاخْـضَعْ وذلّ لِمَــنْ تُحـبّ فَـإِنَّــهُ ... حُكْـمُ الهَـوَى أَنْ تَخْـضَعَ الـشُّجْعَانُ
وإِذَا ذلَلْــت لعِـزّنَـا ذَلَّــتْ لـعِـــزَّ ... تِـكَ الْمُلُـوكُ وَهَابَـكَ الـسُّلْطَانُ
يَـا أَيُّهَـا العُـشَّاقُ دُونكُـم الـسَّبـا ... قُ فَهَـــذِهِ الـشَّقْـرَاءُ والـمَـــيْدَانُ

فقلـت لـه: أيهـا الطائر الضعيف ما لي أراك تخالف من سواك، إذا طلعت الشمس وقعت في الغشا، فلا تزال كذلك إلى العشا، فتعمى بما يستضيء به الناس، وهذا خلاف القياس.

فقـال: يـا آدمـى التكوين، ذلك لأنى في مقام التلوين، وما بلغت إلى مقام التمكين، لأن المتلون الخائـف، يـدهش عند تشعشع أنوار المعارف، والمتمكن العارف، من يثبت عـند شـهود أسـرار اللطائف، وإنما عدم تمكنى في تلوينى، لأنى مخلوق ناقص الحقوق، بالـنهار أسـتر نقصى باسـتتارى، وبالليل أناجى الحبيب بانكسارى، فيجود بغناه على فقرى، وبفضله على احتقارى، فأول ما جبر به كسرى، ورحم به فقرى، أن جعل الليل خلوتـى، ومـع أحـبابه حـضرتى، وإلـيه لا إلى سـواه نظرتـي، فإذا انقضت خلوة الليل أغمـضت عينـى بالـنهار، كي لا أنظر إلى الأغيار، وحق لمن سهر الليل أن ينام بالنهار، وقبيح على عين تمتعت برؤياه، أن تنظر إلى ما سواه، وفي ذلك أقول:

أَيَجْــمُــــلُ أَنْ تَــهْــوَى هَـــوَاهُ وتَـــدّعـــى
سِــوَاه ومَــا فِـــى الــكَـــوْن يُعْـــشَـــقُ إلاّ هُـــو
قَبِـــيحٌ عَـــلَـــى قَـــلْـــبٍ يَذُوبُ صَـبَــــابَةً
بِحُــبٍّ لَــهُ فـي الــكَـــوْن مَـــثــلٌ وَأَشْــبـــاهُ
إِذَا كَــــانَ مَـــــنْ تَهْــــواهُ في الحُــــسْن وَاحِــــداً
فَكُـــنْ وَاحِــداً فِــى العِــشْقِ إنْ كُــنْتَ تَهْــوَاهُ

فقلـت: تـالله لقـد فـاز أهل الخلوات، وامتاز أهل الصلوات، ومنع من الجواز أهل الغفلات، فافهم الإشارات.

إشارة الديك

فقـال الـديك: هـا أنا في ناديك أناديك، وأنت في تعاميك وتغاشيك، جعلت الأذان لي

وظيفة، أوقظ به من هو نائم كالجيفة، وأبشر الذين يدعون ربهم تضرعا وخيفة، وفي إشارة لطيفة، ومعان ظريفة، أصفق بجناحي بشرى للقائم، وأعلن بصياحى تنبيها للنائم، فتصفيق الجناح، بشرى بالنجاح، وترداد الصياح، دعاء للفلاح، ولئن كان الخفاش جعل له في الليل وظيفة، فإنه في النهار نائم كالجيفة، مستتر عن أعين الناس خيفة، فأنا الذى لا أخل بوظيفتي ليلا ولا نهارا، ولا أغفل عن وردى سرا ولا جهارا، قسمت وظائف الطاعات، على جميع الساعات، فما تمر بي ساعة، إلا ولي فيها وظيفة طاعة، فبى تعرف المواقيت، فأنا غالي القيمة، ولو شربت باليواقيت، فهذا حالي مع قيامي في عيالي، وإشفاقى على أطفالي، فأنا بين الدجاج، أقنع بالماء الأجاج، فلا أختص عنهم بحبه، ولا أتجرع من الماء دونهم بشربه، وهذه حقيقة المحبة، إن رأيت حبة دعوتهم إليها، ودللتهم عليها، فمن شأنى الإيثار، إذا حصل اليسار،ثم إنى طوعا لأهل الدار، أصبر لهم على سوء الجوار، يذبحون أفراخى، وأنا لهم كالخل المواخى، وينتهبون أتباعى، وأنا في نفعهم ساعى، فهذه سجية أوصافى، والله لعبده كافى.

فقلت له: أيها الديك إلى كم تعظ، ولا تتعظ، وتنصح من هو عن الصواب معترض، وتجمع من ملازمتك الأذكار، ومنادمتك في ظلم الأسحار؟ فقال: يا قوم إذا حسن الوعظ انتفع به الكل أو البعض، فالعقول عارفة بما أقول، فقد أفلح من وعى، واجتهد في الإخلاص وسعى، ومن أعماه الجهل، فقد توعد مسلكه السهل، وفي ذلك أقول:

بِذِكْرِ اللَّهِ يَدْفَعُ كُلَّ خَوْفٍ ... وَيَدْنُو الخَيْرُ مِمَّنْ يَرْتَجِيهِ
وَلَكِن أينَ مَنْ يَصْغَى وَيَدْرِى ... حَقِيقَةَ مَا أَقُولُ وَمَنْ يَعِيهِ

فقلت له: أيها الديك ما لي أراك تغتر إذا شبعت، كما تغتر إذا منعت؟ فقال: الحرص أغلب، وهو لأجل القلوب أجلب، وقد آن وجود الحب، بمشيئة الرب، فعليك بحسن الطلب لبلوغ الأرب، فربما قل رزقك، إذا كثر حذقك.

قلت: فليهنك الخلاص من المرضى، فلم بليت منهم بهذه البغضى، وأنت صغير السن، جدير الرحمة من الإنس والجن؟ قال: ولع الطبيب بهذه الأسماء، فسجرت الشفار لإراقة الدماء، فمن حان أجله، عظم وجله، والحمام أجل معلوم، وما أحد من منيته بمعصوم، وفي ذلك أقول:

إِذَا مَا الدِّيكُ صَفَّقَ بالجَنَاح ... فَما في شُرْبِ كَأسِكَ مِن جُنَاح

تم بحمد الله

تقبيح الحسن وتحسين القبيح

لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي
المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

اعتنى به
مصطفى عبد القادر عطا

مقدمة المؤلف

أما بعد حمداً لله الذي خلق ورزق، وأنطق ووفق، والصلاة على محمد رسول الله، الذي اصلح وأوضح، ونصح وأفصح، وعلى آله الكرام وصحبه والسلام، ثم ذكر فرد الدهر، وبدر الأرض، وبحر الفضل، وعين الكرم المحض، الشيخ السيد أبي الحسن محمد ابن عيسى الكرجي، أدام الله علوه، الذي ملك القلوب بفضائله وفواصله، وسحر القلوب بمحاسنه وخصائصه، وجمع الأهواء المتفرقة على محبته، وألّف الآراء المشتتة في مودته، فإن هذا الكتاب ألفته وصنفته برسمه، وشنفته وشرفته باسمه، وأودعته لمعاً من غرر البلغاء ونكت الشعراء في تحسين القبيح وتقبيح الحسن. إذ هما غايتا البراعة، والقدرة على جزل الكلام في سر البلاغة، وسحر الصناعة. وما أراني سبقت إلى مثله في طرائف المؤلفات وبدائع المصنفات. وحين ارتفع غريباً في فنه، بديعاً في حسنه، خدمت به خزانة كتبه، عمرها الله تعالى بدوام ذكره.

وإني حين أخدمها بكتبي ... كمن يهدي الخضاب إلى الشباب

وينقل الفقه إلى الشافعي، والشعر إلى البحتري. ولكن لي أسوة فيمن يقول:

لا تنكرن إذا أهديت نحوك من ... علومك الغر، أو آدابك النتفا

فقيم الباغ قد يهدي لمالكه ... برسم خدمته من باغه التحفا

والله تعالى أسأل أن يقر به عينه، ويشرح صدره، ويعرفه من بركاته أضعاف ما فيه من الحروف بالألوف، وأن يحسن إمتاعه بهلال قمره، وغصن شجرة أبي المجد عبد القادر، ويبلغه فيه مناه في شبابه، مشفاً على ذروة ما ينهم به، وفي شيخوخته بالغاً أقصى همته:

ويدوم حتى يستضيء برأيه ... ويرى الكهول الشيب من أولاده

وهذا حين استفتاح أبواب الكتاب. والله الموفق للصواب.

ذكر المحاسن

تحسين المتعلم والتعليم

أحسن وأجمع ما سمعت وقرأت فيه كلام لأبي زيد البلخي، من رسالة كتبها، وقد

عير بأنه معلم، وقيل له إن المعلم ساقط مذموم قبيح الاسم، فقال: ليس يستغني أحد عن التعلم والتعليم، لأن الحاجة يضطر إليها في جميع الديانات والآداب والصناعات والمذاهب والمكاسب. فما يستغني كاتب ولا حاسب ولا صانع ولا بائع عن أن يتعلم صناعة ممن هو أعلم منه، ويعلمه من هو أجهل منه. وقوام الخلق بالتعلم والتعليم. فالمعلم أفضل من المتعلم، لأن صفة المعلم دالة على التمام والإفادة والمتعلم صفته دالة على النقصان والاستفادة. وحسبك جهلاً من رجل يعمد إلى فعل قد وصف الله سبحانه نفسه به، ثم رسوله عليه السلام، فيذمه. أليس قد قال الله عز وجل: ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها﴾، وقال: ﴿ وعلمناه من لدنا علماً﴾، وقال في وصف نبيه عليه السلام: ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة﴾.

تحسين ما يتطير منه

لما هدد الهادي يحيى بن خالد البرمكي بالقتل إن لم يحمل الرشيد على خلع نفسه، رجع إلى داره مغموماً، وكلم غلاماً له في شيء، فأجابه بما غاظه، فلطمه لطمة انكسرت بها حلقة خاتمه، وطاح الفص، فاشتد ذلك عليه وجزع له. ودخل عليه السيّاريّ الشاعر، فأخبره بالقصة، فقال:

أخلاك من كل الهموم سقوطه ... وأتاك بالفرج انفراج الخاتم
قد كان ضاق ففكّ حلقة ضيقه ... فامسك، فما ريب الزمان بدائم

فما أمسى حتى ارتفعت الداعية لموت الهادي، وصار الأمر إلى الرشيد، فأمر للسيّاري بعشرة آلاف درهم.

ولما خرج طاهر بن الحسين إلى محاربة علي بن عيسى بن ماهان، جعل ذات يوم في كمّه دراهم للصدقة على الفقراء، ثم أسبل كمّه ناسياً، فانتفضت الدراهم منه. فتطير من ذهابها في غير وجهها، واغتم لذلك، فانتصب له من قال:

هذا تفرق جمعهم لا غيره ... وذهابه منه ذهاب الهم
شيء يكون الهم نصف حروفه ... لا خير في إمساكه في الكم

فتسلى به، وأمر له بصلة. ولم يدر الأسبوع حتى ظفر بابن عيسى. وكان الأفشين بإزاء بابك يحاربه، فانكسر يوماً سيفه، فتطير منه، حتى قال له شاعر كان معه:

إن انكسار السيف كيد للعدى وبكسره أجناد بابك يكسروا
هذاك فأل للظنون محقق وكأنني بالفتح لاح، فأبشروا

فما كان أسرع من أن انجلت المعركة عن الظفر ببابك، ووصل الشاعر بما أغناه ولما ولى المأمون الحسن بن رجاء الموصل، وخرج من داره واللواء بين يديه، تعلق ببعض الدروب فاندق، وتطير الناس له من ذلك، فقال الشاعر الضبي:

ما كان مندقّ اللواء لريبة تخشى، ولا أمر يكون مزيّلا
لكن ذاك الرمح قصّف ظهره صغر الولاية، فاستقل الموصلا

ورفع الخبر إلى المأمون، فأمر أن يولى ديار ربيعة مع الموصل، وقال: إذا استقل اللواء الموصل، فنحن نكثر قليله بزيادة الولاية. وأمر للضبي بمال.

تحسين المقابح بالكنايات

حدثني البديع الهمداني قال: كان أبو الحسين أحمد بن فارس يقول: الحدّة عند العلماء كناية عن الجهل، والقطع عند المنجمين كناية عن الموت، والطبيعة عند الأطباء كناية عن الحدث، والماء عندهم كناية عن البول، والنفخ عندهم كناية عن الضراط والفسو. والنصيحة عند العمال كناية عن السعاية، والاستقصاء عندهم كناية عن الحوز. والوطء عند الفقهاء كناية عن الجماع. وطيب النفس عند الظرفاء كناية عن السكر. والعلق عند اللاطة كناية عن المؤاجرة، والغراب عند الشعراء كناية عن المأبون، لأنه يواري سوءة أخيه. والاقتصار عند البخلاء كناية عن البخل. والزوار عند الكرام كناية عن السؤال. وما أفاء الله عند الصوفية كناية عن الصدقة. والفتوة عند الشطار كناية عن التلصص. ومزح اليدين عند المعاشرين كناية عن الصفع. والانحياز عند الجند كناية عن الهزيمة، ورائحة الشباب عند النساء كناية عن الصنان. والممنع عند الكتاب كناية عن الأعور. والسليم عند العرب كناية عن اللديغ. وأبو البيضاء عندهم كناية عن الزنجي. والطويلة عند المخنثين كناية عن اللحية. والعمار كناية عن الجن. وذكر ابن العميد في رسالة له إلى رجل حلف بالطلاق، فقال: حلف أيماناً مغلظة سمى فيها حرائره. ولما برص بلعاء بن قيس الكناني قيل له: ما هذا؟ قال: سيف الله جلاه. ومن أحسن كنايات الصاحب، وأبي إسحاق الصابي، وغيرهما من البلغاء عن ذكر موت الملوك والأجلة والرؤساء قولهم: انقضت أيامه، استأثر الله به. خانه عمره. لم

تسمح النوائب بالتجافي عن مهجته. أجاب داعي ربه. نفذ قضاء الله فيه. لحق بالسبيل التي لا احتراز منها. انتقل إلى جوار ربه. دعاه الله فأجاب دعاه ولبى نداه. نقله الله إلى دار رضوانه ومحل غفرانه. انقلب إلى كرامة الله وعفوه. كتب له سعادة المحتضر، وأفضى به الأمر إلى الأجل المنتظر. طرقه طارق المقدار، واختار الله عزله بنقله من دار البوار إلى دار القرار.

تحسين الكذب

قال ابن التوأم: الكذب في مواطنه كالصدق في مواضعه، ولكن الشأن فيمن يحسنه ويعرف مداخله ومخارجه، ولا يجهل تزاويقه ومضايقه، ولا ينساه بل يحفظه. ومعلوم أن من أجل الأمور في الدنيا الحرب والصلح، ولا بد فيهما من الكذب. أما الحرب فهي خدعة كما قال عليه الصلاة والسلام. وأما إصلاح ذات البين فالكذب فيه محمود، لما فيه من الصلاح، وقد رخص فيه السلف. ولا خلاف في أن الشعر ديوان العرب ولسان الزمان، وأحسنه أكذبه. وكذلك الكتابة لا تحسن إلا بشيء منه. وقد جاء في المثل «أظرف من كذوب». قال الأعشى:

فصدقتها وكذبتها ... والمرء ينفعه كذابه

وكان العتبي يقول: إني لأكذب في كبار ما ينفعني، لأصدق في صغار ما يضرني. وقيل لجعفر الصادق رضي الله عنه: ربما نكذب الظلمة مخافة شرهم أفنأثم فيه؟ فقال: بل يثيبكم الله تعالى عليه.

تحسين الوقاحة

الوقاحة كالقداحة، لولاها لما استعر لهب، ولا اشتعل حطب.

تحسين الإثم والترخيص في الذنوب

سمعت أبا القاسم عبد الصمد بن بابك يقول: كان أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي المخزومي أشعر شعراء أهل العراق بعد ابن نباتة السعدي. وأمير شعره، وغرة كلامه قوله من تشبيب قصيدة له في ابن عباد:

ونحن أولاك نطلب من بعيد ... لعزتنا، وندرك من قريب

تجرأنا على الآثام لما ... رأينا العفو من ثمر الذنوب

قال: وكان ابن عباد يقول إذا أنشد هذا البيت الأخير: هذا المعنى كان يدور في خواطر الناس، فيحومون حوله، ويرفرفون عليه، ولا يتوصلون إليه، حتى جاء السلامي فأفصح عنه، وأحسن ما شاء، ولم يدر ما رمى به.

تحسين الفقر

كان يقال: الفقر شعار الأنبياء والصالحين، وكذلك قال البحتري:

فقر كفقر الأنبياء وغربة   وصبابة، ليس البلاء بواحد

وقال بعض الحكماء: الفقير مخف آمن ولا عدو له، والغني مثقل خائف ولا تحصى أعداؤه.

ومن أحسن ما قيل في هذا الباب قول أبي العتاهية:

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى   وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقول محمود الوراق:

يا عائب الفقر أما تنزجر   عيب الغنى أكبر لو تعتبر
من شرف الفقر، ومن فضله   على الغنى، لو صح منك النظر
أنك تعصي الله تبغي الغنى   ولست تعصي الله كي تفتقر

تحسين الدين

كانت عائشة رضي الله عنها تستدين من غير حاجة، فقيل لها في ذلك، فقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كان عليه دين، وفي نيته قضاؤه، كان الله تعالى معه إلى أن يقضيه، وأنا أحب أن يكون الله معي. وفي الحديث: مكتوب على باب الجنة: الدين بثمانية عشر أمثاله، والصدقة بعشرة. قيل: ولم ذاك يا رسول الله، قال: لأن المستدين لا يستدين إلا لحاجة وضرورة، والصدقة ربما وقعت في يد غني عنها. وفي حديث آخر: من أدان ديناً وفي نيته قضاؤه أعانه الله عليه وبارك له فيه. وقال بعض السلف: لأن أقرض مالي مرتين أحب إليّ من أن أتصدق به مرة واحدة. ودخل عمرو بن عتبة يوماً على خالد بن عبد الله القسري، فعرّض به خالد، وقال: إن ها هنا رجالاً إذا خفت أموالهم عوّلوا على الدين، وأخذوا في الاستدانة. فقال عتبة: إن رجالاً تكون أموالهم أكثر من مروءاتهم فلا يدانون، ورجالاً لا تكون مروءاتهم أكثر من

أموالهم فيدانون، على سعة ما عند الله. فخجل خالد وقال: إنك منهم ما علمت. ووقّع له بمائة ألف درهم.

وكان سعيد بن سلم يقول: كثرة الدين من علامات المفضلين.

تحسين الحبس

سبق إليه وتفرّد به عليّ بن الجهم حيث يقول:

قالوا حبست، فقلت ليس بضائري حبسي، وأيّ مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله كبراً، وأوباش السباع تردد
والبدر يدركه السرار فتنجلي أيامه، وكأنه متجدد
والحبس ما لم تغشه لدنيّة شنعاء، نعم المنزل المتورد
بيت يجدد للكريم محله ويزار فيه ولا يزور، فيحمد

وكان المبرد يقول: لله در عليّ بن الجهم إذ تفرد بذكر إغماد السيف وسلّه، في قوله: «وأيّ مهند لا يغمد»، وقوله:

ما ضره إذ بزّ عنه غطاؤه فالسيف أهيب ما يرى مسلولاً

وسمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: لم يسمع في الاستهانة بالحبس والجلد على عقوبة السلطان أحسن وأكذب من قول بعض الأعراب:

وما السجن إلا ظل بيت سكنته وما السوط إلا جلدة وافقت جلدا

تحسين الأيمان الكاذبة

لم أسمع فيه إلا قول ابن الرومي، وهو من بدائعه التي هو ابن بجدتها وأبو عذرتها:

وإني لذو حلف كاذب إذا ما اضطررت وفي الحال ضيق
وهل من جناح على مسلم يدافع بالله ما لا يطيق

وقال أبو حنيفة: إذا ابتليتم بالسلطان فخرّقوا أيمانكم بالكذب، ورقّعوها بالاستغفار.

تحسين أمر الرقيب

لم أسمع فيه إلا قول من قال، وهو متنازع:

موقف للرقيب لا أنساه لست أختاره ولا آباه

مـرحباً بالـرقيب مـن غـير وعـد   جـاء يجلـو علـيّ مـن أهـواه
لا أحـب الـرقيب إلا لأنـي   لا أرى مـن أحـب حتـى أراه

تحسين أمر الثقيل

أنشدني أبو الفتح علي بن محمد البستي لنفسه:

وإنـي لأخـتص بعـض الـرجال   وإن كـان فـدماً، ثقـيلاً، عـباما
فـإن الجـبن علـى أنـه   ثقـيل، وخـيم يـشهّي الطعامـا

وأنشدني أبو سعد بن دوست لنفسه:

أتانـا ثقـيل، فقلـت اصـبروا   يخـف الثقـيل علـى مـن صـبر
فطـيب الجلـوس بـثقل الثقـيل   كطـيب الهـريس بلحـم البقـر

تحسين أمر الطفيلي

لم اسمع فيه إلا ما أنشدنيه أبو روح ظفر بن عبد الله الهروي لنفسه:

إن الطفيلـي لـه حـرمة   زادت علـى حـرمة ندمانـي
لأنـه جـاء، ولـم أدعـه   مبـتدئاً مـنه بإحـسان
أهـلاً بمـن أنـساه لا عـن قلـىً   وهـو يجيـبني، لـيس ينـساني
مائدتـي للـناس منـصوبة   فلـيأتها القاصـي مـع الدانـي

تحسين الحقد

لم يزل الحقد مذموماً بكل لسان، مقبحاً عند كل إنسان، حتى جرى بين يحيى بن خالد البرمكي وبين عبد الملك بن صالح الهاشمي كلام يؤذي، إلى أن قال له يحيى: لله درك أي رجل أنت، لولا أنك حقود. فقال عبد الملك: إن كنت تريد بقاء الخير والشر عندي فإني كذلك . ويروى أنه قال له: أنا خزانة تحفظ الخير والشر. فقال يحيى: هذا جبل قريش، ووالله ما رأيت أحداً احتج للحقد، حتى حسّنه وظرّفه غيره.

وقد نظم ابن الرومي هذا المعنى، فقال وزاد في التحسين:

ومـا الحقد إلا توأم الشكر لـلـفـتـى   وبعـض الـسجايا ينتسبن إلى بـعـض

فحيث ترى حقداً علـى ذي إساءة فـثم ترى شكراً على حسن القـرض
إذا الأرض أدت ريـع ما أنـت زارع من البذر فيها، فهي ناهيك من أرض

تحسين العمى

قيل: لما عمي ابن عباس رضي الله عنه، قال:

إن يأخـذ الله مـن عـينيّ نـورهمـا ففـي لـساني وقلـبي مـنهما نـور
قلـبي ذكـي، وعقلـي غـير ذي دخل وفي فمـي مقـول كالـسيف مأثـور

وقيل لقتادة: ما بال العميان أذكى وأكيس من البصراء، فقال: لأن أبصارهم تحولت إلى قلوبهم. وقال الجاحظ: العميان أحفظ وأذكى، واذهانهم أقوى وأصفى، لأنهم غير مشتغلي الأفكار بتمييز الأشخاص، ومع النظر يتشعب الفكر، ومع انطباق العين اجتماع اللب، ولذلك قال بشار:

عميت جنيناً، والـذكاء مـن العمى

وكان أبو يعقوب الخزيمي يقول: من فضائل العمى ومحاسنه ومرافقه اجتماع الرأي والذهن وقوة الكيس والحفظ، وسقوط الواجب من الحقوق، والأمان من فضول النظر الداعية إلى الذنوب، وفقد النظر إلى الثقلاء والبغضاء، وحسن العوض عن متراخي الوجد في دار الثواب.

وأنشدني أبو القاسم الطهمانيّ، قال: أنشدني أبو محمد الهاشمي، قال: أنشدني منصور الفقيه المصري لنفسه:

يـا معرضـاً إذ رآنـي لمـا رآنـي ضـريرا
كـم قـد رأيـت بـصيراً أعمـى، وأعمـى بـصيرا
قـل لـي، وإن إنـت أنـصفـ ـت قلـت خلقـاً كـثيرا

تحسين الوحدة

أنشدني ميمون بن سهل الواسطي، قال: أنشدني القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني لنفسه:

مـا تطعمـت لـذة العـيش حتـى صـرت في وحدتـي لكـتبي جليـسا
لـيس شـيء أجلّ عـندي مـن نفـ ـسي، فلـم أبتغـي سـواها أنيـسا

إنما الذل في مواصلة النا   س، فدعها، وعش كريماً رئيسا

وأنشدني أبو محمد العبدلكاني لنفسه في باب الهزل والإحماض:

يلومونني في وحدتي وألومهم   ولو أنصفوني صوّب الرأي من لحا
وحسبك من فضل التوحد أنه   إذا ضاق بطن المرء بالريح سرّحا

تحسين البخل

كان الكندي يقول: من جاد بماله فقد جاد بنفسه، لأنه يجود بما لا قوام لها إلا به. وكان يقول: قول لا يدفع البلا، وقول نعم يزل النعم. وكان أبو الأسود يقول: لو لم نبخل على السؤال بما يسألوننا لكنا أسوأ حالاً منهم. وكان سهل بن هارون يقول: عجبت لمن يسمي القصد بخلاً والسرف جوداً. وكان عليّ بن الجهم يقول: مِن وهب المال في عمله فهو أحمق، ومن وهبه في عزله فهو مجنون، ومن وهبه من كسبه فهو جاهل، ومن وهبه مما استفاده بحيلته فهو المطبوع على قلبه، المأخوذ ببصره وسمعه. وكان محمد بن الجهم يقول: اتركوا الجود للملوك، فهو لا يليق إلا بهم، ولا يصلح إلا لهم، ومن عارضهم في ذلك ثم افتقر وافتضح فلا يلومن إلا نفسه. وكان يقول: «إذا قبّح السؤال حسن المنع».

ومن أمثال العرب: «الشحيح أعذر من الظالم». ومن أمثال العجم: «منع الجميع أرضى للجميع».

ولما جرى الكلام بين أرباب الدولة في استخلاف ابن المعتز بعد المكتفي، وتذاكروا فضله وأدبه، قال العباس بن الحسن الوزير: لا يصلح لخلافة الله في بلاده وعباده من يقول في تحسين البخل:

يا رب جود جر فقر امرئ   فقام في الناس مقام الذليل
فاشدد عرى مالك، واستبقه   فالبخل خير من سؤال البخيل

وأنشدني عبد القاهر بن عبد الوهاب البصري، ولم يسم له قائلاً، وأراه لابن الرومي:

لا تسلم المرء على بخله   ولمه، يا صاح، على بذله
لا خير في المرء إذا لم يكن   يحفظ ما يكرم من أجله
أحصف، وأعقل بامرئ حازم   يلزم ما يلزم من ذله

تحسين قول لا

أحسن ما قيل فيه نثراً قول بعض العلماء: من فضل لا أنها افتتاح كلمة التوحيد. يعني قول لا إله إلا الله. وكان الكندي يقول: قول لا يدفع البلا، وقول نعم يزيل النعم. ومن أحسن ما قيل فيه نظماً قول بعض الظرفاء:

قد أجمع الناس على بغض لا ولست أنسى أبداً حبّ لا
لأنني قلت له سيدي تحب غيري أبداً؟ قال: لا

تحسين أمر الغوغاء والسفل

في الخبر أن الله تعالى ينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم. وكان الأحنف يقول: أكرموا الغوغاء والسفهاء، فإنهم يكفونكم العار والنار. وذكر جعفر بن محمد رضي الله عنه، فقال: إنهم ليطفون الحريق، ويستنقذون الغريق، ويسدون البثوق. وكان سعيد بن سلم يقول: ينبغي للرئيس أن يأخذ في ارتباط السفهاء والغوغاء بقول الشاعر:

وإني لأستبقي امرء السوء عدة عريض من القوم جانب
أخاف كلاب الأبعدين وهرشها إذا لم تجاوبها كلاب الأقارب

تحسين البله

كان قابوس بن وشمكير، إذا ذكر إنساناً بالبله قال: إنه من أهل الجنة. يعني قول النبي عليه الصلاة والسلام: أكثر أهل الجنة البله.

تحسين الملال

قرأت في أخبار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: أنه جرى يوماً في مجلسه بين جلسائه كلام في ذم الملل وتقبيحه والتعريض به، فتغافل وتشاغل ساعة. فلما أكثروا ولم يبقوا في القوس منزعاً، استوى جالساً وأقبل عليهم وقال: ويحكم أتدرون أنكم تذمون ممدوحاً؟ ألا ترون أن الرئيس إذا كان غير ملول اختص بثمرة فضله قوم، بل شرذمة قليلون من خواصه وندمائه وحرم الأكثرون من أفاضل المستحقين صوب سمائه ، وإذا كان ملولاً ولا يصبر على نفر بأعيانهم استجد الإخوان على تكرر الزمان، واستمالهم بالإنعام، والإحسان، وتشارك الناس في أثاريده، وتضاربوا بالسهام في أياديه ومننه، فقالوا له:

والله إن الأمير ليسحرنا بلسانه وبيانه، ويحسن ما تطابقت الألسن على تقبيحه.

تحسين الحجاب

لم يحسنه أحد كتحسين أبي تمام إياه واشتهاره عليه، في قوله لعبد الله بن طاهر:

يا أيها الملك النائي برؤيته   وجوده لمراعي جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملاً   إن السماء لترجى حين تحتجب

وأراد ابن نباتة أن يبتدع عليه، فقال وأحسن، ولكن ما شق غباره:

ولو كان الحجاب بغير نفع   لما احتاج الفؤاد إلى حجاب

تحسين العزل

من أحسن ما سمعت فيه نثراً قول أبي إسحاق الصابي، من رسالة إلى بعض أصدقائه: ليهنك يا سيدي ومولاي أدام الله تعالى عزك العزل، وحاز لك في خفة الظهر بالتخلص من العمل الذي هو، مع هذه العواقب الوخيمة والرسوم الذميمة، بمنزلة الحبائل المنصوبة والأشراك المبثوثة. ومثلك لا يخاطب مخاطبة من حط له محل، بل مخاطبة من وضع عنه كل. ومن إحسان البحتري المشهور قوله:

ليهنك إذ أصبحت مجتمع الحمد   وباني المعالي والمكارم والمجد
فلا تحسب الحساد عزلك مغنماً   فإن إلى الإصدار ما غاية الورد
وما كنت إلا السيف جرّد للوغى   فأحمد فيها، ثم رد إلى الغمد

تحسين الفراق

قال بعض الظرفاء: في الفراق مصافحة التسليم، ورجاء الأوبة، والسلامة من الملل، وعمارة القلب بالشوق، والأنس بالمكاتبة. وكتب أبو عبد الله الزنجي الكاتب: جزى الله الفراق عنا خيراً، فإنما هو زفرة وعبرة، ثم اعتصام وتوكل، ثم تأميل، وتوقع. وقبح الله التلاقي، فإنما هو مسرة لحظة ومساءة أيام، وابتهاج ساعة واكتئاب زمان. وكتب أحمد ابن سعد؛ إني لأكره الاجتماع محاذرة الفراق وقصر السرور. ومع الفراق غمة يخفيها توقع إسعاف النوى، وتأميل الأوبة والرجعى.

وكتب آخر: لو قلت إني لم أجد للرحيل ألماً وللبين حرقة لقلت حقاً. لأني نلت في ساعة الفراق من طيب اللقاء وأنس العناق، ما كان معدوماً أيام التلاقي.

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول: من أراد أن يسمع ما يقطر منه ماء الطرف فليستنشد قول محمد بن أبي محمد اليزيدي في تحسين الفراق:

ليس عندي شحط النوى بعظيم   فيه غم، وفيه كشف غموم
من يكن يكره الفراق، فإني   أشتهيه لموضع التسليم
إن فيه اعتناقة لوداع   ورجاء اعتناقة لقدوم

تحسين الجبن والفرار

سمعت أبا زكرياء الحربي المزكي النيسابوري يقول: رئي شيخ كبير من الجند في بعض الحروب، وقد تأخر عن الصف، واستعد للهروب، فقيل له: أتأخذ رزق السلطان بهذا الجبن؟ فقال: لو لم أكن جباناً لما بلغت هذه السن العالية. وكان أبو الهذيل العلاف يقول: بشروا الجبان بطول العمر. وكان ابن عائشة القرشي يقول: ما في الدنيا شجاع إلا متهور، ولا جبان إلا متحرر. وكان بعض الجبناء يقول: فر أخزاه الله خير من قتل رحمه الله. وقال آخر: من أراد دوام السلامة فليؤثر الجبن على الشجاعة. وقال آخر: نحن نتأدب بدين الله سبحانه في قوله: ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. وسمع بعضهم من قال: الشجاع موقى، والجبان ملقى، فقال: العيان والخبر والتجربة مما يشهد بقلب هذا الكلام. وقيل لآخر، وقد عزم على الهرب: ألا تجزع من السلطان أن يأمر بإسقاط رزقك؟ فقال: إنما أهرب خشية من سقوط الرزق. ورأى بعض الأمراء رجلاً قد تأخر عن الصف فقال: ويلك لم لا تحارب؟ فقال: أيها الأمير لست اليوم بطيب النفس، فاحسب كم جرايتي لهذا اليوم، فاسترها مني في غيره، ودعني أمرّ في لعنة الله.

تحسين أمر البنات

دخل عمرو بن العاص يوماً على معاوية، وعنده ابنته عائشة، فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه تفاحة القلب، فقال: انبذها عنك. قال: ولم؟ قال: لأنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. قال: لا تقل ذلك يا أبا عبد الله، فوالله ما مرض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الأحزان مثلهن، وإنك لواجد خال قد نفعه بنو أخته. فقال: يا أمير المؤمنين قد حببتهن إليّ.

وقال معن بن أوس المزني:

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن، والأيام يعثرن بالفتى خوادم لا يمللنه، ونوائح

وقال العلوي الحماني في صديق له رزق ابنة فسخطها:

قالوا له ماذا رزقتا فأصاخ، ثمّت قال: بنتا
وأجل من ولد البنا ت، أبو البنات، فلم جزعتا
إن الذين تودّهم بين الخلائق ما استطعتا
نالوا بفضل البنت ما كبتوا به الأعداء كبتا

وهذه نسخة رقعة لابن عباد في التهنئة بابنة: أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد الأطهار، والمبشرة بأخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون:

فلو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

والله يعرفك يا مولاي البركة في مطلعها، والسعادة بموقعها، فادرع اغتباطاً، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها، والنار مؤنثة، والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية، والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملاك الحيوان، والحياة مؤنثة وبها وعد المتقون، وفيها يتنعم المرسلون. فهنيئاً لك ما أوتيت، وأوزعك الله شكر ما أعطيت.

ونسخة رقعة لأبي الفرج الببغاء: اتصل بي خبر المولود المسعود، كرم الله غرتها، وأنبتها نباتاً حسناً، وما كان من تغيرك عند اتضاح الخبر، وإنكارك ما اختاره الله لك في سابق القدر. وقد علمت أنهن أقرب إلى القلوب، وأن الله بدأ بهن في الترتيب، فقال تعالى: ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾، وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى. فهنّاك الله بورود الكريمة عليك، وثمر بها أعداد النسل الطيب لديك. والسلام.

تحسين التحاء الغلام

من أحسن ما قيل فيه، على كثرته، قول الأستاذ أبي الفرج علي بن الحسين بن هندو، رحمه الله:

عابــوه لمــا التحــى، فقلــنا عبــتم وغبــتم عــن الجمـــال
هــذا غــزال، ومـا عجـيب تــولّد المــسك في الغـــزال

ولمؤلف هذا الكتاب، على لسان بعض الرؤساء، ما سبق إلى معناه، وتفرد به:

قالــوا تــشوك خـــدّاه وشــاربـه فقلـت لا تنكـروا مـا ليس بالعجب
الشواك في شجرات الورد محتمل والشوك لا عجب في مجتنى الرطب.

تحسين سواد اللون

أحسن ما قيل في ذلك قول أبي يوسف القاضي، وقد جرى ذكره عند الرشيد: يا أمير المؤمنين من فضل السواد أنه لم يكتب كتاب الله سبحانه إلا به. والنور في السواد، يعني سواد النظر.

وقد أكثر الشعراء في تحسين السواد، ومدح السودان. فمن ذلك، قول أبي حفص الشطرنجي في جارية سوداء:

أشـــبهك المـــسك وأشـــبهته قائمـــة في لـــونه قاعـــدة
لا شـــك، إذ لـــونكما واحـــد أنكمـــا مـــن طيـــنة واحـــدة

وقول أبي محمد العباسي:

إن سـعدى، والله يكـلأ سـعدى ملكـت بالـسواد رقّ سـوادي
أشـبهت ناظـري وحـبة قـلبـي فهـي في العـز ناظـري وفـؤادي
لـن يـرى الناظـرون شيئاً، وإن أشر قـال: حسناً، إلا بـنور الـسواد

وقول بعض الكتاب في غلام أسود:

قالـوا عـشقت مـن الـبرية أسـوداً مهـلاً علقـت بأضـعف الأسـباب
فأجبـتهم مـا في البـياض فـضيلة وأرى الـسواد نـهايـة الآراب
أهـوى الـسواد، لأن شـيبي أبـيض يـؤذي الفتـى، وأحـب لـون شبابي
وكـذاك في الكافـور بـرد قاطـع والمـسك أصـبح أطـيب الأطـياب
وبـه تـزين كـفّ كـل خـريدة وبـه تـتم صـناعة الكـتاب
والله ألـبس أهـل بـيت محـمد لـون الـسواد، فكـف عـنك عتابي

وجاء ابن الرومي فزاد عليهم، وأحسن وأبدع، في وصف جارية سوداء، وتحسين

لونها، حيث قال من قصيدة:

غصن من الآبنوس ركّب في مؤتزر معجب ومنتطق
سوداء لم تنتسب إلى برص الشقـ ـر، ولا لمعة، ولا بهق
أكسبها الحب أنها صبغت صبغة حب القلوب، والحدق
فانصرفت نحوها الضمائر والـ أبصار، يعبقن أيما عبق
وبعض ما فضل السواد به والحق ذو سلم، وذو نفق
لا يعيب السواد حلكته وقد يعاب البياض بالبهق

وقول بعض الظرفاء:

يكون الخال في خد قبيح فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام مشغوف بمن قد تراه كله في العين خالا

وقال أبو إسحاق الصابي في غلامه يمن:

قد قال يمن، وهو أسود، للذي ببياضه استعلى علوّ الخائن
ما فخر وجهك بالبياض، وهل ترى أن قد أفدت به مزيد محاسن
ولو أن مني فيه خالاً زانه ولو أن منه فيّ خالاً شانني

وقال فيه أيضاً:

لك وجه كأن يمناي خطتـ ـه بلفظ تمله آمالي
فيه معنى من البدور، ولكن نفضت صبغها عليه الليالي
لم يشنك السواد، بل زدت حسناً إنما يلبس السواد الموالي

واقترح عليّ صديق لي بغزنة أن أقول في غلام له هندي، من أحسن أبناء جلدته، فقلت:

هذا غزال الهند في الغزلان كمثل عود الهند في العيدان
وجه بديع الحسن في الغلمان مصور من حدق الحسان
مركب من ملح الخيلان كأنه في ناظر الإنسان
إنسان عين الحسن في الزمان

تحسين الشيب

في الخبر أن الله سبحانه يقول: «الشيب نوري، وأنا أستحي أن أعذب نوري بناري». وقال بعض البلغاء: الشيب حلية العقل، وسمة الوقار، وعنوان التجربة، وشاهد الحنكة. وقال آخر: الشيب زبدة مخضتها الأيام، وفضة سبكتها التجارب.

وقال آخر: إذا شاب الغافل سرى في طريق الرشد بمصابيح الشيب. وقال ابن المعتز في فصوله القصار: عظم الكبير فإنه عرف الله قبلك، وارحم الصغير فإنه أغر بالدنيا منك. وللبديع الهمداني من رسالة: جزى الله المشيب خيراً، فإنه أناة، ولا رد الشباب فإنه هنات، وأظنهما لو مثلا لمثل الشباب كلباً عقوراً، والشيب شيخاً وقوراً، ولاشتعل الأول ناراً واشتهر الآخر نوراً. فالحمد لله الذي بيض القار، وسماه الوقار، وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد، إن السعيد من شابت جملته، ولم تخص بالبياض لحيته.

ومما يستحسن لدعبل قوله، وهو أول من مدح الشيب من الشعراء:

أهلاً وسهلاً بالمشيب، فإنه ... سمة العفيف، وهيبة المتحرج

وكأن شيبي نظم در زاهر ... في تاج ذي ملك أغر متوج

وقوله:

أحب الشيب لما قال: ضيف ... لحبي للضيوف النازلينا

وللبحتري:

وبياض البازي أصدق حسناً ... إن تأملت من سواد الغراب

وسمعت أبا الحسين محمد بن الحسين الفقيه الفسوي النحوي يقول: كان الصاحب ابن عباد يجن على شعر البحتري، ويغلو في تقريظه والإعجاب به. وكان ينسف من قصائده، وينظر فيها، ولا يستغرق إلا التي أولها:

أبكاء في الدار بعد الدار ... وسلوا بزينب عن نوار

والقصيدة في استهداء غلام رومي ووصفه. وإلا التي أولها:

ها هو الشيب لائماً فأفيقي ... واتركيه إن كان غير مفيق

«وعهدي به ينشدها ويردد أبياتها هذه، ويهز رأسه لها»:

عذلتنا في عشقها أم عمرو هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمة ألمّ بها الشيب فريعت من ظلمة في شروق
ولعمري لولا الأقاحي لأبصرت أنيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يملّح ببياض، ما كان بالموموق
أي ليل يبهى بغير نجوم وسحاب يندى بغير بروق

قال: وكان مما يستحسن قول ابن الرومي:

قد يشيب الفتى، وغير عجيب أن ترى النور في القضيب الرطيب

تحسين المرض

حدث الصولي: أن أبا ذكوان قال: سمعت إبراهيم بن العباس يصف الفضل بن سهل ذا الرئاستين ويقدمه، ويصف علمه وكرمه. وكان فيما حدثني به أن قال: برأ الفضل من علة كان قد وجد بها، فجلس للناس، فهنأوه بالعافية. فلما فرغوا من كلامهم قال لهم: إن في العلل نعماً لا ينبغي للعقلاء أن يجهلوها، فمنها تمحيص الذنوب، والتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، واذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة، وفيء قضاء الله وقدره بعد الخيرة. فحفظ الناس كلامه، ونسوا ما قال غيره.

وكان يقال: بمرارة السقم توجد حلاوة الصحة. وقال بعض العلماء البلغاء: رب مرض يكون تمحيصاً لا تنغيصاً، وتذكيراً لا تنكيراً، وأدباً لا غضباً. وقال ابن المعتز: قلت لبعض فقهائنا، وأنا مريض وقد سألني عائد بحضرته عن حالي: أتراني إن قلت أنا في عافية كاذباً؟ فقال: لا، إذا أعلك الله في جسمك، فقد أصحك من عيوبك.

تحسين الموت

في الحديث المرفوع: الموت راحة لكل أحد. وقال بعض السلف: ما من أحد إلا والموت خير له من الحياة، لأنه إذا كان محسناً فالله تعالى يقول: ﴿ وما عند الله خير وأبقى﴾، وإن كان مسيئاً فإن الله سبحانه يقول: ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾. وعن ميمون بن مهران قال: بت ليلة عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فكثر بكاؤه بين يدي ربه، ومساءلته إياه الموت، فقلت: يا أمير المؤمنين لم تسأل ربك الموت وقد صنع الله على يدك خيراً كثيراً؟ أحييت سنناً، وأمتّ بدعاً، وفعلت وصنعت، وفي بقائك كل

راحة وخير للناس؟ فقال لي: أفلا أكون كالعبد الصالح حين أقر الله عينه، وجمع شمله، وأعلى أمره، فقال: رب أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، "فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً، وألحقني بالصالحين". فما دار الأسبوع حتى مات رحمة الله عليه.

وقال بعض الفلاسفة: لا يستكمل الإنسان حد الإنسانية حتى يموت، لأن الإنسان حي ناطق ميت. وقد أحسن من قال: إن الصالح إذا مات استراح ، والطالح إذا مات استريح منه. وقال آخر: إذا كان في النوم الراحة الصغرى، ففي الموت الراحة الكبرى. وقال بعض الشعراء، وهو متنازع:

جزى الله عنا الموت خيراً، فإنه ... أبر بنا من كل بر، وأرأف
يعجل تخليص النفوس من الأذى ... ويدني من الدار التي هي أشرف

وأنشدني أبو القاسم بن حبيب المزكي قال: أنشدني أبو المطرّف الدينوري، قال: أنشدني منصور الفقيه لنفسه:

قد قلت إذ مدحوا الحياة وأسرفوا ... في الموت ألف فضيلة لا تعرف
فيها أمان لقائه بلقائه ... وفراق كل معاشر لا ينصف

وقد أخذه أبو أحمد بن أبي الكاتب، فقال:

من كان يرجو أن يعيش فإنني ... أصبحت أرجو أن أموت لأعتقا
في الموت ألف فضيلة، لو أنها ... عرفت، لكان سبيله أن يعشقا

وأنشدني أبو الحسن الدلفي لابن لنكك البصري:

نحن والله في زمان غشوم ... لو رأيناه في المنام فزعنا
أصبح الناس فيه في سوء حال ... حق من مات فيه أن يتهنّا

ذكر المقابح

تقبيح العقل

كان يقال: العقل والهم لا يفترقان. وقال ابن المعتز:

وحلاوة الدنيا لجاهلها ... ومرارة الدنيا لمن عقلا

ومن فصوله القصار: من كان عاقلاً لم يسم إلا غافلاً. ومنها فصل في نهاية الحسن

وجـودة التمثيل، وهو قوله: العقل كالمرآة المجلوّة، يرى صاحبها مساوئ الدنيا، فلا يزال في صـحوه مهمـوماً مـتعذر الـسرور، حتـى يشرب النبيذ، فإذا ابتدأ بشربه صدئ عقله بمقـدار ما يشرب. وإن أكثر منه غشيه الصدأ كله، حتى لا تظهر له صور تلك المساوئ، فيفرح ويمرح. والجهل كالمرآة الصدئة فلا يرى صاحبها إلا مسروراً قبل الشرب وبعده.

ومن قلائد أبي الطيب المتنبي قوله:

ذو العقـل يـشقى في النعـيم بعقلـه   وأخـو الجهالـة في الـشقاوة يـنعم

وقـال أبـو الفتح ابن جني: هذا مثل قولهم: ما سر عاقل قط. وقال آخر: ثمرة الدنيا السرور، ولا سرور للعقلاء.

تقبيح العلم

من أمثال أهل بغداد: «جهل يعولني خير من علم أعوله». وفي ذلك يقول بعضهم:

ومـــا أصـــنع بـــالعلم   إذا أعطـــيت بالجهـــل

ومن أمثالهم: «كف بخت خير من كنز علم». ومن أشعارهم:

المـال يـستر كـل عـيب في الـفتـى   والمـال يـرفع كـل نـذل سـاقـط
فعليك بالأمـوال، فاقـصد جمـعهـا   واضـرب بكتب العلم عرض الحائط

ولابن أبي البغل:

الـصفو يـصفر آمـناً، ولأجلـه   حـبس الهـزار لأنـه يتـرنـم
لـو كـنت أجهـل مـا علمت لسرني   جهلـي، كمـا قـد سـاءني مـا اعلـم

ومما ينسب إلى الجاحظ في ذم العلوم، وهو منحول إياه، موضوع على لسانه، أنه قيل لـه: مـا تقـول في القـرآن، قال: رياضة الصغير، ومعول الضرير، لا ينال منه الغنى ولا تدرك به الدنيا. قيل: فالأثر والحديث. قال: متناقض الأصول، قليل المحصول، همه مدر وآله محارف. قيل: فالفقه، قال: يعتقد بالآراء، ويتقلد بالأهواء، دقيقه لا يدرك، وجليله لا يـتفق. قـيل: فـالكلام، قـال: يستوعب الخواطر ويستكد الضمائر، وصاحبه معرض للـتفكير، وهـو من علوم المدابير. قيل: فالفلسفة، قال: كلام مترجم وعلم مرجم، بعيد مداه، قليل جدواه، مخوف على صاحبه بطش الملوك وعداوة العامة. قيل: فالطب، قال:

رأي مستعجل، وقياس منتحل، موضوع على التخمين والحدس، وتعليل النفس، لا يوصل منه إلى الحقيقة، ولا يحكم له بالوثيقة. قيل: فالتنجيم، قال: صوابه عسير، وغلطه كثير، وكله ترجيم وشيطانه رجيم، حرفه محدود، وصاحبه محروم. قيل: فالتعبير، قال: ظنون وحسبان، لا يثبت به دليل، ولا يقوم عليه برهان، علم ضعيف، وبضاعة كفيف.

تقبيح الأدب

كان يقال: مال عقيم خير من أدب ولود، وكلب صيود خير من أسد قعود. ويقال: إذا كثر الأدب قل خيره، وإذا قل خيره كثر ضيره. وقال بعضهم: حرفة الأدب حرفة لا يسلم منها أديب. وقال آخر: أي أديب لم تدركه حرفة الأدب. وقال الخليل بن أحمد، ويروى للحمدوني، وغيره:

ما ازددت في أدبي حرفاً أسر به ... إلا تزيدت حرفاً تحته شوم
إن المقدم في حذق بصنعته ... أنى توجه فيها فهو محروم

وأنشدني أبو بكر الخوارزمي لغيره:

إذا سرك أن تحظى ... وأن تلبس قوهيّا
من الخز مع الوشي ... يمانياً وسوسيا
وأن تصبح ذا عز ... فكن علجاً نبيطيا
وإن سرك حرمان ... به تصبح مقليا
فكن ذا أدب جزل ... وكن مع ذاك نحويا

وهذا مما ينسب إلى الجاحظ في تقبيح الآداب، وهو منحول إياه كما تقدم في تقبيح العلوم. قيل له: ما تقول في النحو، قال: علم مخترع، وقياس مبتدع، ثقيل على الأسماع، قليل الأمتاع، علم معدم، وصناعة معلم، قيل: فالشعر، قال: سلاح دني، الأعاريب، مبني على زخرف الأكاذيب. قيل: فما العروض، قال: علم مولد، وأدب مستبرد، وكلام مجهول، يستكد العقول، بمستفعل ومفعول، من غير فائدة ولا محصول. قيل: فالغريب، قال: كلام وحشي، وعلم بذي، تمجه الأسماع، وتستثقله الطباع، وصاحبه مملوء بغضاً للعامة وتحامل السفلة. قيل: فالحظ، قال: قليل الرد، يسير الرفد، صناعة محروف وأداة مورق.

تقبيح الكتب والدفاتر

سمعت أبا الحسن الماسرجسي الفقيه يقول: كان شيخنا أبو علي ابن أبي هريرة يقول: من تأدب من الكتاب صحف الكلام، ومن تفقه من الكتاب غيّر الأحكام، ومن تنجّم من الكتاب أخطأ الأيام، ومن تطبب من الكتاب قتل الأنام. وكان يقال: علم لا يعبر معك الوادي لا يعمر بك النادي. وينشد في معناه:

إني لأكره علماً لا يكون معي ... إذا خلوت به في جوف حمّام

وينشد فيه أيضاً:

ليس بعلم ما حوى القمطر ... ما العلم إلا ما حواه الصدر

وأنشدني الأمير صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين فذكرني ما نسيت منها:

صاحب الكتب تراه أبداً ... غير ذي فهم، ولكن ذا غلط
كلما فتشته عن علمه ... قال علمي يا خليلي في سفط
في كراريس جياد أحكمت ... وبخط، أي خط، أي خط
فإذا قلت له: هات إذاً ... حك لحييه جميعاً، وامتخط

وأنشد الجاحظ لمحمد بن بشير، وهو أحسن ما قيل في معناه:

أما لو أعي كل ما أسمع ... وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم استفد غير ما قد جمعـ ... ـت، لقيل هو العالم المقنع
ولكن نفسي إلى كل شيء ... من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعـ ... ـت، ولا أنا من جمعه أشبع
وأحضر بالعي في مجلسي ... وعلمي في البيت مستودع
ومن يك في علمه هكذا ... يكن، دهره، القهقرى يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فجمعك للكتب لا ينفع

وأنشد يونس النحوي لبعضهم:

استودع العلم قرطاساً فضيعه ... فبئس مستودع العلم القراطيس

فقال: قاتله الله ما أحسن صيانته للعلم وأشد صبابته به.

ولأبي بكر الخوارزمي رسالة في آفات الكتب، جمع نكتها بعض تلامذته، في قوله:

عليك بالحفظ دون الجمع في كتب ... فإن للكتب آفات تفرقها
الماء يغرقها، والنار تحرقها ... والفأر يخرقها، واللص يسرقها

تقبيح الخط والقلم

نظر المأمون يوماً في خط أحمد بن يوسف، وهو يكتب بين يديه، فقال: وهو يتنفس الصعداء: يا أحمد أود لو أن خطك لي بنصف ملكي. فقال: يا أمير المؤمنين لو أن في الخط فضيلة لما حرمه الله أعز خلقه وأجل رسله محمداً صلى الله عليه وسلم. فقال: قد سليتني مما كنت أجد يا أحمد.

وكان أبو عيسى بن الرشيد يقول: الخط صناعة باليد، ولا تحسن بالملوك وأولادهم. وقرأت بخط أبي الفتح كشاجم له:

سل بي عن الأيام تعرف ... أني ابن دهر ليس ينصف
وبلاغة معروفة ... سهلت وأخطأها التكلف
والخط ليس بنافع ... ما لم يكن خطاً مصحف
وسطور خط مونق ... كالروض، والبرد المفوّف

وقال بعض مجان بغداد من الكتاب: ما لقينا من الكتاب؟ فقد أخذنا بحفظ فرائضه وإقامة شعائره، وأما في الآخرة فإنا نلقاه منشوراً بسرائرنا وخفايا صدورنا.
وذكر الجاحظ عاثة الكتاب فقال: أخلاق حلوة، وشمائل وثياب نظيفة، وتظرف أهل الفهم، ووقار أهل العلم، فإذا صلوا بنار الامتحان كانوا كالزبد يذهب جفاءً، وكنبات الربيع في الصيف يعروه هيف الرياح، ولا يستندون إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة، أخفر الخلق لأماناتهم، وأشراهم بالثمن البخس لعهودهم. فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون.

وقال عبد الله بن المعتز في ذم القلم:

وأجوف مشقوق كأن سنانه ... إذا استعملته اليد منقار لاقط
وتاه به قوم، فقلت رويدكم ... فما كاتب بالكف إلا كماشط

تقبيح الوزارة

كان أبو سلمة الخلال أول وزراء بني العباس. فلما قتل قال سليمان بن مهاجر ما

أرسله مثلاً سائراً:

إن الوزيـــر، وزيـــر آل محمـــد أودى، فمـــن عـــاداك كـــان وزيـــرا

واستتم الأمر، وجرت العادة بسوء عاقبة الوزراء.

ولما قال المأمون لأحمد بن أبي خالد: هل لك في أن أستوزرك؟ قال دعني يا أمير المؤمنين يكون بيني وبين الغاية درجة يرجوها الصديق ويخافها العدو، والآفات في الغايات، فلست أريد بلوغ الغاية، لئلا يقول عدوّي قد بلغها، وليس بعدها إلا الانحطاط.

وكان المعلى بن أيوب إذا عرضت عليه الوزارة تمثل بقول العتابي:

تلوم على ترك الغنى باهلية طوى الدهر عنها كل طرف وتالد

رأت حولها النسوان يرفلن في الكسا مقلدة أجيادها بالقلائد

يسرك أني نلت ما نال جعفر في الملك، أو ما نال يحيى بن خالد

وأن أمير المؤمنين أعضني معضّهما بالمرهفات البوارد

ذريني تجئني ميتتي مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد

فإن عليّات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأساود

وقال ابن بسام وقد خلعوا على وزير:

خلعوا عليه وزينو ه، ومر في عز ورفعه

وكذاك يفعل بالجما ل، لنحرها في كل جمعه

وقال متروك: أكثر الناس عدواً مجاهداً، وحاسداً منابذاً الوزير للسلطان، وذو المكانة عنده لا يرفع عوامله بمثل الصحة والاستقامة في السر والعلانية. وقال: أخوف ما يكون الوزراء، إذا أمن الناس وسكنت الدهماء.

وأنشدني أبو الفتح البستي لنفسه:

أكتاب بست كم تشاجركم على وزارة بست، وهي سخنة عين

وخف حنين يا قوم ما تطلبونه فكم بينكم، يا قوم، خف حنين

وأنشدني لنفسه:

حرضوني على وزارة بست ورأوها من أعظم الدرجات

قلت لا أشتهي وزارة بست ... إنني لم أمل، بعد، حياتي

وله:

وزارة بست وزرها قاصم الظهر ... ومدتها منذ الغداة إلى الظهر
فلا تخطبنها إنها ضرة النهى ... وبغيتها روح البعولة في المهر

وله:

وزارة الحضرة الكبيرة ... خطيئة، بل هي الكبيره
فلا تردها، ولا تردها ... فإنها محنة مبيره

تقبيح عمل السلطان وخدمته

من أمثال هذا الباب قولهم: صاحب السلطان كراكب الأسد، يهابه الناس، وهو لمركبه أهيب. وقولهم: من تحسى مرقة السلطان احترقت شفتاه، ولو بعد حين. وقول العامة: من أكل من مال السلطان زبيبة أداها تمرة. وفي كتاب كليلة ودمنة: مثل السلطان كمثل الجبل الصعب المرتقى الذي فيه من كل ثمرة طيبة، وكل سبع حطوم فالارتقاء إليه شديد، والبقاء فيه أشد.

وكان إبراهيم بن العباس يقول: مثل أصحاب السلطان كقوم ارتقوا جبلاً، ثم وقعوا منه، فكان أبعدهم في المرتقى أقربهم من التلف. وكان يقال: أدوم التعب خدمة السلطان. وقال بعضهم: من أراد العز بالسلطان لم ينله حتى يذل. ومن فصول ابن المعتز: أشقى الناس بالسلطان صاحبه، كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها احتراقاً. ومنها: من شارك السلطان في عز الدنيا، شاركه في ذل الآخرة. ومنها: لا يدرك الغنى بالسلطان إلا نفس خائفة، وجسم تعب، ودين منثلم. وقد ألم به أبو الفتح البستي فقال:

يا من رأى خدمة السلطان عدته ... ما أرض كدك إلا الذل والندم
دع الملوك، فخير من وجودك ما ... ترجوه عندهم الحرمان والعدم
إني أرى صاحب السلطان في ظلم ... ما مثلهن، إذا قاس الفتى، ظلم
فجسمه تعب، والنفس خائفة ... وعرضه عرضة، والدين منثلم
هذا إذا استوثقت أيام دولته ... والصيلم الأذن إن زلت به القدم

وقال أيضاً:

صاحب السلطان لا بد له ... من غموم تعتريه، وغمم
والذي يركب بحراً سيرى ... قحم الأهوال من بعد قَحَمْ

وأنشدني أبو بكر العوامي لابن عباد:

إذا أدناك سلطان فزده ... من التعزيم، واحذره وراقب
فما السلطان إلا البحر عظماً ... وقرب البحر مذموم العواقب

وكان يقال: ولاية السلطان حلوة الرضاع، مرة العظام. وقال ابن المعتز:

سكر الولاية طيب ... وخماره ذل شديد
كم تائه بولاية ... وبعزله ركض البريد

وكان أبو سهل الهمداني أحد كبار عمال نيسابور يقول: لا تعدّن مال المتصرف مالاً، فإنه يغدو غنياً، ويروح فقيراً.

تقبيح عمل البريد

لما ولي سعيد بن حميد بريد الآفاق، قال فيه أبو عليّ البصير:

بأبي نفس سعيد ... إنها نفس شريفه
لم تزل تحتال حتى ... صار غماز الخليفه

ولأبي الفتح كشاجم في صديق له ولذي بريد مصر:

صرت يا عامل البريد مقيتا ... وقديماً إليّ كنت حبيبا
كنت تستثقل الرقيب، فقد صر ... ت علينا، بما وليت، رقيبا
أفلا يعجب الأنام لشخص ... صار ذئباً، وكان ظبياً ربيبا

تقبيح التجارب

لم أسمع فيه إلا قول إسماعيل بن أحمد الشاشي، وهو من أفراد المعاني:

أخلاّي أمثال الكواكب كثرة ... وما كل نجم لاح في الجو ثاقب
وكنت أرى أن التجارب عدة ... فخانت ثقات الناس حتى التجارب

تقبيح الذهب

قال سهل بن هارون: اسم الذهب يتطير منه، ولا يتفاءل به. وهو فتان لمن أصابه،

رديء لمـن رآه، وهو لئيم، من لؤمه سرعته إلى بيوت اللئام، وإبطاؤه عن بيوت الكرام، وشـكل الـشيء منجذب إليه بالمشاكلة وبالضد. وهو من مصائد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحمران، أي الذهب والخمر.

تقبيح الغنى والمال

قال الله عز وجل: ﴿كلاّ إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾. وقال تعالى: ﴿إنما أمـوالكم وأولادكم فتنة﴾. وكان يقال: الغنى يورث البطر، ويقرع باب جهنم. ويقال: المـال ملول ميّال، وطبعه طبع الصبي، لا يوقف على وقت رضاه أو سخطه. وقد يكون مـال المرء سبب حتفه كما يذبح الطاووس لحسن ريشه، ويصاد الثعلب من أجل وبره. ومن أحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن الرومي:

ألم تـــر المـــال يهلـــك ربـــه إذا جـم آتــيه، وســد طـــريقـه
ومـــن جــاور المـــاء الغزيـر مجمــه وســد طــريق المـــاء، فهــو غــريقه

تقبيح المشورة

كـان عـبد الملـك بـن صـالح الهاشمـي يقول: ما استشرت أحداً قط إلا تكبر عليّ، وتـصاغرت لـه، ودخلـته العـزة، ودخلـتني الذلـة. فإيـاك والمشورة، وإن ضـاقت بك المذاهب، وأداك الاستبداد إلى الخطأ والفساد.

وكـان عـبد الله بـن طاهـر يقـول: مـا حـكّ ظهـري مـثل ظفري، ولأن أخطئ مع الاستبداد ألف خطأ أحب إليّ من أن أستشير، فألحظ بعين النقص والحاجة.

تقبيح التأني

كـان يقـال: إيـاكم والتأنـي في الأمـور، فـإن الفـرص تمر مرّ السحاب، والآفات في الـتأخيرات. وكـان ابـن عائـشة القرشـي يقـول: الفلـك أبعد من أن يحتمل معه التأني والتثبت، وخـير الخـير أعجلـه. وقيل لأبي العيناء: لا تعجل فإن العجلة من الشيطان. فقـال: لـو كانت كذا لما قال الله حكاية عن كليمه موسى عليه السلام: «وعجلت إليك رب لترضى».

وقال القطامي:

وربمـا فـات قـوم بعـض نجحهـــم مــن التأنـي، وكـان الحـزم لو عجلوا

ومن أحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن الرومي:

عيب الأناة، وإن كانت مباركة ... ألا خلود، وأن ليس الفتة حجرا

وقال ابن المعتز:

وإن فرصة أمكنت في العدو ... فلا تبد فعلك إلا بها

وإياك من ندم بعدها ... وتأميل أخرى، وأنى بها

وقال محمد بن بشير:

كم من مضيع فرصة قد أمكنت ... لغد، وليس له غد بمواتِ

حتى إذا فاتت، وفات طلابها ... ذهبت عليها نفسه حسرات

تقبيح الصبر

كان يقال: الصبر كاسمه، والإنفاق عليه من العمر. ومن أحسن ما قيل فيه قول أبي القاسم بن أبي العلاء الأصفهاني:

فإن قيل لي صبراً، فلا صبر للذي ... غدا بيد الأيام تقتله صبرا

فإن قيل لي عذراً، فوالله ما أرى ... لمن ملك الدنيا إذا لم يجد عذرا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

إني لأبغض كل مصطبر ... عن ألفة في السر والجهر

الصبر يحسن في مواطنه ... ما للفتى المشغوف والصبر

تقبيح الحلم

كان يقال: من عرف بالحلم كثرت الجرأة عليه، وقلت الهيبة له. وقال بعض السلف: الحلم ذل كله. وكان أبو العباس السفاح يقول: إذا كان العفو مفسدة، كان الحلم معجزة.

ولما أنشد النابغة الجعدي رسول الله ﷺ، قصيدته التي يقول فيها:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتاباً بالمجرة نيّرا

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه إن تكدرا

قال النبي ﷺ: أحسنت لا فض الله فاك. فعمر أكثر من ثمانين سنة، ولم ينقص له سن.

تقبيح الشجاعة

قال بعضهم: الشجاعة تغرير بالنفس. والتغرير مفتاح الهلكة.

وكان بعضهم يقول: الفرار في وقته ظفر. وقال محمد بن أبي حمزة العقيلي مولى الأنصار:

قامت تشجّعني هند، وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العطب
يا هند لا والذي حج الحجيج له ما يشتهي الموت عندي من له أدب

تقبيح الحياء

كان يقال: الحياء يمنع الرزق، وقد قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان. وقال بعض المحدثين: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، وأموركم بالوقاحة والإبرام، ودعوا الحياء لربات الحجال. وقال آخر: هذا زمان يزمن ذوي الحياء، والوقاحة رأسمال وافية. وقال الشاعر:

ليس للحاجات إلا من له وجه وقاح
ولسان ذو فضول وغدو، ورواح

وأنشدني اليوسفي الزوزنيّ للحرشي الرازي:

سألت زماني، وهو بالجهل عالم وبالسخف مشهور، وبالنقص مختص
فقلت له: هل من سبيل إلى الغنى فقال: طريقان، الوقاحة والنقص

تقبيح الزهد

سئل الشبلي عن الزهد فقال: الزهد لا شيء، لأن الشيء لا يخلو من أن يكون رزقي؛ فأنا لا أدفعه عني بزهدي فيه، ولا يكون رزقي، فأنا لا أحصله برغبتي فيه.

تقبيح الجود

قال أبو الأسود: الجود تبذير. والمبذرون إخوان الشياطين. وكان يقول: لا تجادوا الله فإنه أجود وأمجد، ولو شاء أن يوسع على خلقه حتى لا يكون فيهم محتاج لفعل. وكان ابن المقفع يقول: إن مالك لا يعم الناس، فاخصص به ذوي الحق من أهلك، ودع الأجانب جانباً.

تقبيح القناعة

كان بعض بني المهلب يقول: من اتخذ القناعة حرفة وصناعة تلحف بالخمول، وفاتته معالي الأمور. وقال غيره: القناعة من صغر النفس وقصر الهمة وضعف العزيمة، فلا ترض لنفسك إلا كل غاية. وقال البرقعي من قصيدة:

رأت عزماتي، وفرط انكماشي ... وطول التململ فوق الفراش
وقالت أراك أخا همة ... ستبلغها، فترى ذا انتعاش
فهلا قنعت ولم تغترب ... فقلت: القناعة طبع المواشي

تقبيح الدور والأبنية

فارق رسول الله ﷺ الدنيا، وما وضع لبنة على لبنة. وكان عليه السلام يقول: إذا أراد الله بعبده سوءاً جعل ماله في الماء والطين.

وقال الشاعر:

دع عمل الطين للسلاطين ... لا تك من إخوة الشياطين
فما بقاء الدريهمات إذا ... أنفقن حيناً في الماء والطين

وقال كرماسف: البناء من يوم ابتدائه في نقصان، والغرس من يوم ابتدائه في زيادة.

تقبيح الحمام

قال بعض السلف: بئس البيت الحمّام، يكشف عن العورة، ويذهب بالحياء. وفي الخبر أن الحمام من بيوت الشياطين. وذم الفضل الرقاشي الحمام فقال: يهتك الأستار، ويذهب بالوقار ويؤلف بين الأقذار.

تقبيح الشباب

قال النابغة الذبياني:

فإن يك عامر قد قال جهلاً ... فإن مظنة الجهل الشباب

وقلت في كتاب المبهج: الشباب للجهل مطية، وللذنوب مطية. وقال العتبي، وهو من أمثاله السائرة:

قالت عهدتك مجنوناً، فقلت لها ... إن الشباب جنون برؤه الكبر

وكـان يقـال: سـكر الـشباب أشـد مـن سـكر الـشراب. وقال ابن المعتز في فصوله القـصار: جهـل الـشباب معـذور، وعلمـه محقـور. وكـان يقال: ترفات الشبان نزعات الشيطان. وقال أبو الطيب محمد بن حاتم المصعبي:

لم أقـل للـشباب في كـنف اللـــــه، وفي ســتره غــداة اســتقلا
زائــر لم يــزل مقــيماً إلــى أن ســود الــصحف بالذنــوب، وولى

تقبيح الأصدقاء والأخوان

كـان عمـرو بـن العـاص يقول: من كثر إخوانه كثر غرماؤه. يعني في قضاء الحقوق. وكان عمرو بن مسعدة يقول: العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق. وقال إبراهيم بن العباس: مثل الإخـوان كالـنار، قلـيلها متاع وكثيرها بوار. وقال الكندي لابنه: يا بني الأصـدقاء هـم الأعـداء. لأنـك إذا احتجت إليهم منعوك، وإذا احتاجوا إليك سلبوك وشـابوك. وكـان بعـضهم يقـول في دعائه: اللهم احرسني من أصدقائي. فإذا قيل له في ذلـك قـال: إنـي أقـدر علـى الاحـتراس مـن أعدائـي ولا أقـدر علـى الاحتراس من أصدقائي.

وقـال ابـن المعتـز في فصوله القصار: إخوان السوء كشجر النار، يحرق بعضه بعضاً، وقـال أيضاً: إنما تطيب الدنيا بمساعدة الإخوان ونفع بعضهم بعضاً، وإلا فعلى الصداقة الزمان. وما أرجو منها إذا كانت تنقطع في الآخرة، ولا تتصل بما أحب في الدنيا. ولأبي العتاهية:

لـست مـا اسـتغنيت عـن صـا حـبك الـدهـر أخـوه
فـإذا احـتجت إلـيه سـاعة مجـك فـوه

وقال إبراهيم بن العباس:

نعـم الـزمان زمانـي الـشان في الأخـوان
فـيمن رمانـي لـمـا رأى الـزمان رمانـي
لـو قـيل لـي خـذ أمانـاً مـن أعظـم الحـدثان
لمـا أخـذت أمانـاً إلا مـن الإخـوان

وقال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعم أو الشراب

وقال ابن المعتز:

وأفردني من الإخوان علمي بهم، فبقيت مهجور النواحي
إذا ما قل وفري، قل مدحي وإن أثريت عادوا في امتداحي
فكم ذم لهم في جنب مدح وجدّ بين أثناء المزاح

وقال آخر:

آخ من شئت، ثم رم منه شيئاً تلف من دون ما أردت الثريا

تقبيح الولد

قال أكثم بن صيفي: من سره بنوه ساءته نفسه. وقال يحيى بن خالد: ما أحد رأى في ولده ما يحب، إلا رأى في نفسه ما يكره.

وقريب من هذا المعنى قول ابن الرومي:

كم من سرور لي بمولود أؤمله لغد
وبأن يهدني الزما ن، رأيت منته أشد
ومن العجائب أن أسر بمن يسر بأن أهد

وقلت في كتاب المبهج: إذا ترعرع الولد تزعزع الوالد. وقال ابن المعتز في فصوله القصار: أفقرك الولد وعاداك. وقيل لعيسى ابن مريم عليه السلام: هل لك في الولد، فقال: ما حاجتي إلى من إن عاش كدني، وإن مات هدني. وقيل لبعض النساك: ما لك لا تبغي ما كتب الله لك. فقال: سمعاً لأمر الله سبحانه، ولا مرحباً بمن إن عاش فتنني، وإن مات أحزنني. يريد قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ .

وقال بعض الحكماء في ذم الأولاد: ملوك صغاراً، وأعداء كباراً. يريد قوله تعالى: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم﴾ . وقال لي أبو محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي: إنما صار ولد الولد أحب إلى الرجل من ولده لصلبه لأن الولد عدوه كما قال الله عز وجل: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ ، وولد الولد عدو العدو، وعدو عدوك صديقك في أغلب الحالات. وفي الحديث المرفوع: الولد مبخلة،

مجبنة، مجهلة. وكان يقال: من أراد أن يذوق الحلاوة والمرارة في شيء واحد فليتخذ ولداً. وكان الشيخ أبو الطيب سهل بن أبي سهل الصعلوكي يقول: ما كنت أعرف سبب رقص الصوفية حتى سمعت قول أبي الفتح البستي الكاتب:

يقولون ذكر المرء يحيا بنسله ... وما أن له ذكر إذا لم يكن نسل
فقلت لهم: نسلي بدائع حكمتي ... فإن فاتنا نسل، فإنا بها نسلو

فكدت أرقص طرباً لحسنه، وعلمت أن الكلام الحسن يرقص.

تقبيح المماليك

من أمثال العرب: «ليس عبد بأخ لك». ومن أمثال العامة: «الحر حر وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن مشى على الدر». ومن أمثال أهل بغداد: «ما أطيب الغناء لولا العبيد والإماء». وقال بشار بن برد:

الحر يلحى، والعصا للعبد ... وليس للملحف غير الرد

وقال يزيد بن محمد المهلبي من قصيدة رثى بها المتوكل:

إن العبيد إذا أذللتهم صلحوا ... على الهوان، وإن أكرمتهم فسدوا
ما عند عبد لمن رجّاه من فرج ... ولا على العبد، عند الخوف، معتمد
فاجعل عبيدك أوتاداً تشججها ... لا يثبت البيت ما لم يقرع الوتد

وقال أبو الطيب المتنبي:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

تقبيح الخصيان

كان يقال: من جب زبه ذهب لبه. وفي ذلك يقول المتنبي:

وقد كنت أحسب قبل الخصى ... بأن الرؤوس مقر النهى
فلما نظرت إلى عقله ... وجدت النهى كلها في الخصى

ونظر خصي إلى رجل أقلف في الحمام، فقال: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من خلقه. فقال له الرجل: كل من له خصيتان فله عليك فضل.

وابلغ ما قيل في تقبيح الخصيّ قول بعض السلف: «لم يلده مؤمن، ولم يلد مؤمناً».

تقبيح الضياع

قلت في كتاب المبهج: الضيعة ضائعة ما لم تدبر بقوة ساعد وجدّ مساعد. وفيه أيضاً: الضياع مدارج الهموم، وكتب وكلائها مفتاح الغموم. وقلت أيضاً في رقعة وكيل لي بضيعة:

يا رقعة طويت على حيّات ... وعقارب كدّرن ماء حياتي
ما أنت إلا من تباريح الأسى ... ومفاتح الأحزان والحسرات
وكأن أحرفك الكريهة أعين ... لرواقب، أو ألسن لوشاة
وكذا الضياع رقاع قيمتها إذا ... وافت، أتت بحوادث الآفات

وذكرت الضياع وجلالتها ونوائبها بحضرة أبي العباس ابن الفرات، فأنشد:

هي المال إلا أن فيها مذلة ... فمن ذل قاساها، ومن مل باعها

وأنشد أبو زكريا الحربي لأبي منصور العبدوني، ويروى لأبي محمد السلمي:

قد كانت الضيعة فيما مضى ... تغل من يملكها دائبه
فصار من يملكها موهنا ... مهجته في حفظها ذائبه
يستغرق الغلة في خرجها ... وتفضل الكلفة والنائبه
فإن يقم صاحبها كل ذا ... ينج، وإلا نتفوا شاربه

ولمؤلف الكتاب:

قد قلت قولاً سديداً ... يروي العطاش بمائه
إن الخراج خراج ... دواؤه في أذائه

تقبيح المطر

كان يقال: المطر مفسد الميعاد. والغيث لا يخلو من العيث. وفي كتاب المبهج: قد عاقت الأمطار عن الأوطار، وحالت دون الوصال. وقال أبو نؤاس:

هو الغيث، إلا أنه باتصاله ... أذى، ليس قول الله فيه بباطل
لئن كان أحيا كل رطب ويابس ... لقد حبس الأحباب بين المنازل

وقال أبو علي البصير:

من تكن هذه السماء عليه ... نعمة، أو يكن بها مسرورا

فلقـد أصـبحت علينـا عـذاباً ... فلقينـا مـنها أذى وشـرورا
أيهـا الغـيث كـنت بؤسـاً ... لـي وللنـاس حـنطة وشـعيرا

وله:

رحمـة صـيّرت علـيّ عـذاباً ... تـركت منزلـي خـراباً يـبابا
أمطـرتنا خـلاف مـا أمطـرت النا ... س، لبـناً وجـندلاً وتـرابا

تقبيح الورد

كـان ابن الرومي يذم الورد ويهجنه ويقبحه، لأنه كان يزكم من رائحته. فقال فيه ما هو من نوادر التقبيح وعجائب التشبيه:

وقائل لم هجوت الورد مقتبلا ... فقلت من سخفه، ومن غمطه
كأنه سرم بغل حين سكرجه ... عند البراز، وباقي الروث في وسطه

وبلغني أن الأمير خلف بن أحمد كان يعجب جداً بقول أبي الفتح البستي وينشده ويردده:

لا يغـرنك أنـني لـين اللمـس ... فغربـي إذا انتـضيت حـسام
أنـا كالـورد فـيه راحـة قـوم ... ثـم فـيه لآخـرين زكـام

تقبيح النرجس

لما قبح ابن الرومي الورد وهجنه وهجاه، وفضل النرجس عليه، تصدى له نفر من الشعراء بالمعارضة والمناقضة، وهجو النرجس وفضلوا الورد عليه. فمنهم ابن الحاجب، ومن أجود ما قال فيه قوله:

يـا ظلـوماً يفـضل النـرجس الـرذ ... ل علـى الـورد، قـد تحاملت فاقصد
صـبغة الـورد صـبغة الـدم، والنـر ... جس مـثل العـيون في الـشبه يوجد
ملـك الجـسم كلـه الـدم لا العـيـ ... ـن، عقـول الـورى بـذلك تشـهد
قـد رأيـنا الأعمـى يعـيش بـلا عـيـ ... ـن، وإن يفقـد الـدم المـرء يفـقـد
وإذا كـان ذا كـذا، فـدم الإنـ ... ـسان مـن عينه أجـل، وأمجـد
ولـشـتان بـين خـدين، هـذا ... أصـفر لـونـه، وهـذا مـورد
فلمـاذا مـدحـت لـونـين، كـل ... مـنهما عيـبه مـبين مـؤكـد

صفرة اللون علة، والبياض الـ ... ـمحض عيب محدد ليس يُجحد

ومنهم أبو العلاء السروري يقول بعده بزمان:

انظر إلى نرجس تبدت ... صبحاً لعينيك منه طاقه
واذكر أسامي مشبهيه ... بالعين في دفتر الحماقه
وأي حسن يرى لطرف ... مع يرقان يحل ماقه
كراية ركبت عليها ... صفرة بيض على رقاقه

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول، إذا أنشد هذا البيت: أراد أبو العلاء أن يهجو فمدح، وقصد أن يقبح فحسّن، ولو نحا نحو وصفه مادح لما زاد.

تقبيح البنفسج

أنشدني الأمير أبو الفضل الميكالي لنفسه في ذلك:

يا مهدياً لي بنفسجاً سمجاً ... وددت لو أن أرضه سبخ
أنذرني عاجلاً مصحفه ... بأن وصل الحبيب ينفسخ

بعد أن أنشدني في تحسينه:

يا مهدياً لي بنفسجاً أرجا ... يرتاح صدري له، وينشرح
بشرني عاجلاً مصحفه ... بأن ضيق الأمور ينفسح

وأنشدني العوامي الرازي والهمداني لأبي العباس الضبي في البنفسج ما لم أسمع أحسن منه وأملح وأظرف في معناه، وهو قوله:

ومهفهف قال الإله لحسنه ... كن مجمعاً للطيبات، فكانه
زعم البنفسج أنه كعذاره ... حسناً، فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلموا في الحسن إذ مثلوا به ... فلشد ما رفع البنفسج شانه

تقبيح الكافور وماء الورد والبخور

قرأت فصلاً للصاحب بن عباد، من جواب رقعة وردت عليه في التماس أشياء عدة: أما الكافور فأخرته عنك تطيراً منه، فلونه لون البهق، بل لون البرص، وهو مفرط البرد، لا يصلح للشيخ ذي السن، يخشى منه الفالج، وتحذر معه اللقوة، وترتفع له الحرارة الغريزية، وبفقدها تفقد النفس وتنقص البنية. وهو، بعد، من طيب الأموات،

أحياك الله أطول الحياة. ثم اسم الكافور يجانس اسم الكفر، وقد برأك الله منه، ونزهك عنه. أما ماء الورد فخير منه الماء القراح العذب الزلال. الا ترى أن الطهارة لا تجزي به، وهي تجزى بماء الآبار والسواقي والأنهار، ثم لا يروي الظمآن، ولا يبرد غلة العطشان، وطالما رش على المقابر، وصب على الأكفان. وأما البخور فمما لا يرغب فيه لذي ظرف ومروءة ولطف. وقد ناسب لفظ البخور لفظ البخر، وهو أسود كريه المنظر، كأنه أعضاء الزنج بثت، أو جوارح الحبشة قطعت.

تقبيح القمر

ابلغ ما قيل في ذلك وأجمعه وأبدعه قول بعض ظرفاء الأدباء، ممن سكن دور الكراء، وقد قيل له: انظر إلى القمر ما أحسنه، فقال: والله، لا أنظر إليه لبغضي له. قيل: لم؟ قال: لأن فيه عيوباً، لو كانت في حمار لرد بالعيب. قيل: وما هي؟ قال: ما يصدقه العيان، وتشهد به الآثار. إنه يهدم العمر يقرب الأجل، ويحل الدين، ويوجب كراء المنزل، ويقرض الكتان، ويشحب الألوان، ويسخن الماء، ويفسد اللحم، ويعين السارق، ويفضح العاشق والطارق.

وتأذى به ابن المعتز ليلة من ليالي الصيف، فقال في تقبيحه، مثل ما قال ابن الرومي في تقبيح الورد:

يا سارق الأنوار من شمس الضحى … يا مثكلي طيب الكرى، ومنغصي
أما ضياء الشمس فيك فناقص … وأرى زيادة حرها لم تنقص
لم يظفر التشبيه فيك بطائل … متسلحاً بهقاً كوجه الأبرص

تقبيح الشراب

عاتب الضحاك بن مزاحم صديقاً له على شرب النبيذ، فقال: إنما أشربه لأنه يهضم الطعام. فقال: ما يهضم من دينك أكثر. وقيل لبعض الحكماء: اشرب معنا النبيذ، فقال: لا أشرب ما يشرب عقلي. وقال آخر لابنه: يا بني إياك والنبيذ، فإنه مفسدة للمال والدين. وقيل لبعضهم: النبيذ كيمياء الطرب. فقال: نعم، ولكنه إكسير الحرب. وذمه بعض الحكماء فقال: من مثالبه أن صاحبه ينكره قبل شربه، ويعبس عند شمه، ويستنقص الساقي من قدره ويمزجه بالماء الذي هو ضده، ليخرجه عن معناه وحده، ثم يكرع فيه على المبادرة، ويعبه ولا يمصه، ويجرعه ولا يكاد يسيغه، ليقلّ مكثه في فمه،

ويسرع في اللهوات اجتيازه، ثم لا يستوفيه كله، ويرى أن يبقي فضلة في كأسه، ويشاح الساقي في المناظرة على ما بقي منه عند رده، ليصرف عن نفسه عادية شره، ويَسلم من مكروه عاقبته، ويتنقل بعقبه ما يكسر من سورته، ويخفف من بشاعته، ويمنع من قَذفه، كما يفعل بطبيخ الغاريقون، وحب الأصطمخيقون.

تقبيح الغناء والسماع

قال الحطيئة لقوم نزلوا به: جنبوني يا بني فلان الغناء، فإنه رقية الزنا. وسمع سليمان ابن عبد الملك ذات ليلة في معسكره غناءً، فأمر بصاحبه أن يخصى، ثم قال: إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة، وإن الجمل ليرغو فتستبضع له الناقة، وإن الرجل ليغني، فتغتلم له المرأة. وكان الكندي يقول لابنه: يا بني إياك والسماع، فإنه برسام حاد، وذلك أن المرء يسمع فيطرب، ويطرب فيسمح، ويسمح فيعطي، ويعطي فيفتقر، فيفتقر فيهتم، ويهتم فيمرض، ويمرض فيموت. وللبديع الهمداني من رقعة إلى تلميذ له توفي أبوه، وخلف مالاً: يا مولاي ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقراً، ويسميه العاقل فقراً، وذلك الخارج من الناي هو اليوم في الآذان زمر، وهو غداً في الأبواب سمر. وطلب بعض المغنين ماله من بعض المبخلين فقال له المسئول: اعلم أن المال روح، والغناء ريح، ولست أشتري الريح بالروح.

تقبيح الهدية

أهدي إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه هدية، فردها، فقيل له: إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يقبل الهدية. فقال: قد كانت الهدية له هدية، وهي لنا رشوة، وقد لعن الله الراشي والمرتشي.

وقال بعض السلف: الهدية في عمل السلطان رشوة. وأهدي إلى دهقان هدية، فكرهها، وأظهر الجزع عليها، فعاتبه أصحابه، فقال: لئن كان ابتدأني بها، إنه ليدعوني إلى أن أتقلد له منة، ولئن كان كافأني على معروف لي عنده، إنه ليسألني أن آخذ ثمن ذلك. فمن أي هذين لا أجزع.

تقبيح الشكر إلا لله عز وجل

قرأت في كتاب الأجلة والرؤساء للقاضي أبي الحسين ابن عبد العزيز الجرجاني عن ابن التوأم: إنما يجب أن تشكر الله من أنه جاد عليك، فلك جاد، وإن نصحك فنفعك

أراد، مـن غير أن يرجع إليه جوده بشيء من المنافع بجهة من الجهات، وهو الله سبحانه وتعالى. ألا ترى أن عطية الرجل لصاحبه لا تخلو من أن تكون لله أو لغيره. فإن كان لله فثوابها علـى الله، ولا معنى للشكر، وإن كانت لغير الله، فلا تخلو من أن تكون لطلب المجـازاة وحـب المكافـأة. وهذه تجارة معروفة، والتاجر لا يشكر على تجارته وجر المنفعة إلى نفسه. وإما أن تكون تخوّف يده، أو لسانه، أو رجاء نصرته ومعونته، فلا معنى لشكر مـن هـذه إحـدى أحواله. وإما أن تكون للرقة والرحمة. ولما يجد في قلبه من الألم. ومن جـرى على هذا السبيل فإنما داوى نفسه من دائها، وخفف عنها ثقل برحائها، فلا يجب شكره على هذه الحالة. فأما من مدحه بشار بن برد بقوله:

لــيس يعطــيك للــرجاء وللخــو ف، ولكــن يلــذ طعــم العطــاء

فـأي معنـى لـشكر مـن يعطـيك لاجـتلاب لذتـه، واجـتذاب راحـته ومـسرته. كمل الكتاب، وتم بحمد من فضله عمّ، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

نسيم الصبا

لأبي محمد بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن
ابن حبيب الحلبي
المتوفى ٧٧٩ هـ

اعتنى به
مصطفى عبد القادر عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف في سطور

ابـن حبيـب الحلبي، هو: الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب، أبو محمد، بدر الدين الحلـبي: مؤرخ، من الكتاب المترسلين. ولد في دمشق سنة (٧١٠ هـ ١٣١٠م)، ونصب أبـوه محتسبا في حلب فانتقل معه، فنشأ فيها، ونسب إليها. ثم رحل إلى مصر والحجاز، وعاد. وتنقل في بلاد الشام واستقر في حلب.

من مصنفاته: «نسيم الصبا» وهو كتابنا هذا، و «درة الأسلاك في دولة الأتراك» أرخ بـه أخـبارهم مـن سـنة ٦٤٨ - ٧٧٨ هـ، و«جهيـنة الأخـبار في أسمـاء الخلفاء وملوك الأمـصار» و«تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه» جمع به أخبار السلطان قلاوون وأبنائه، و«النجم الثاقب» في السيرة النبوية و«المقتفى في ذكر فضائل المصطفى» و«كشف المروط» في فقه الشافعية.

وفاته سنة ٧٧٩ هـ =١٣٧٧ م.

ينظـر تـرجمته في: الدرر الكامنة (٢/ ٢٩)، وآداب اللغة (٣/ ١٧٣)، وأعلام النبلاء (٥/ ٦٦)، وكشف الظنون (١/ ٧٣٧) ودائرة المعارف الإسلامية (١/ ١٢٩).

أمـا كـتاب نـسيم الـصبا، **فقـد قال عنه** قاضى القضاة تاج الدين السبكى رحمه الله تعـالى: الحمـد لله وحـده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم حدّقت نحـو الحدائـق، وفـوقت سـهمى تلقـاء الغرض الشائق، وطرقت إلى ما يضيء اخا الحجا أسـهل الطـرائق فما علل صداى كنسيم الصبا، وكمثله سهما صائبا صبابة من لا صبا، ولا نظرت نظيره حديقة تنبت فضة وذهب:

وتجـــئ مـــن ملـــح الكـــلا ... م بطـــــارف أو تالـــــده

كلـــم نوابـــغ نحـــوا ... فـــاق المطالـــع صـــاعده

لـــو رامهـــا قـــس لمـــا ... ألفـــى أبـــاه ســـاعده

ابـــدى نـــتائج عـــيه ... فـــى ذى المعانـــى الـــشارده

فعين الله تعالى عليها كلمات عليها منه رقيب، ومحاسن تسلى عندها بالحسن حبيب، فوائد حسان يذكرنا بها حسان البعيد حسن القريب كتبه عبد الوهاب بن السبكى اهـ .

وقـال ناصـر الدين صاحب دواوين الإنشاء: وقفت على هذا الكتاب الذى أشبه الدر فى انتظامه، والثغر فى ابتسامه، وقطر الندى فى انسجامه، وزهر الروض فى البكر إذا غنت علـى غـصونه مطـربات حمامـه، فـوجدت بـين اسمـه ومسماه مناسبة اقتضاها طبع مؤلفه

السليم، واتصالا قريبا كاتصال الصديق الحميم، فتحققت أن مؤلفه أبقاه الله تعالى وحرسه أبدع في تأليفه، وأصاب في تمييزه بهذا الاسم وتعريفه فهو في اللطافة كالماء في إروائه، وكالهواء المعتدل في ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه، وكالسلك إذا انتقى جوهره واجيد في انتقائه، قد أينعت ثمرات فضائله فأصبحت دانية القطوف، وتجلت عرائس بلاغته فظهر بدرها بلا كسوف، وانجابت ظلمات الهموم بسماع موصول مقاطعه التي هي في الحقيقة لآذان الجوزاء شنوف، فأكرم به من كتاب ما الروض بأبهى من وسيمه ولا الريحان بأعطر من شميمه، ولا المدامة بارق من هبوب نسيمه، ولا الدر بأسنى زهرا بل زهوا من رسومه إذا تدبره الأديب أغنته تلك الأفانين عن نغمات القوانين، وإذا تأمله الأريب مزه طرفه في رياض البساتين قد سور على كل نوع من البديع باب لا يدخله إلا من خص من البلاغة باللباب، والله تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب، ويمتع بفضائله التي شهدها أهل العلم وذوو الألباب بمنه وكرمه كتبه محمد بن يعقوب الشافعي.

وقال الصفدي شارح لامية العجم ما نصه: وقفت على هذا المصنف الموسوم بنسيم الصبا، والتأليف الذي لو مر بالمجنون لما ألف ليلاه، ولا مال إليها، ولا صبا، والإنشاء الذي إن شاء قائله جعل كلام غيره في هبات الهواء، والنثر الذي أغار قائله على سبائك الذهب، والكلام الذي نبا عنه الجاحظ جاحدا وما له ذكر ولا نبا فسبحت جواهر حروفه لمن أوجده في هذه العصر، وعلمت أن ألفاظه ترمي قلوب حساده بشرر كالقصر، وتحققت أن قعقعة طروسه أصوات أعلامه التي تحقق بالنصر، وتيقنت أن سطوره غصون لا تصل إليها كف جناية بجني ولا هصر:

وقلت لأهل النظم والنثر قابلوا ... ترائبها مصقولة كالسجنجل
ومِيلوا بإعطاف التعجب انها ... نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

ولما ملت بعدما ثملت، وعزلت بعدما هزلت، جردت من نفسي شخصا أخاطبه، وأجاريه في أوصاف محاسنها التي أناهيه منها واناهبه فقال لي هذا الفن الفذ، والنثر الذي قهر أقران هذه الصناعة، والأدب الذي سدّ الطرق على أوابده فما فاته شيء ولا شذ، وهذا الإنشاء الذي ما له عديل، ولا ضريب، وهذا الكلام الذي فاق في الآفاق فما لحبيب بن أوس حسن حسن بن حبيب، فعين الله تعالى على هذه الكلم الساحره، والفوائد التي أيقظت جفن الأدب بعدما كان بالساهره، ومتع الله تعالى الزمان وأهله بهذا النوع الغض، والنقد النض، والبز البض، والبديع الذي رم ما تشعث من ربع هذا الفن ورض، وافتض المعاني أبكاره، وافتض جارح بلاغته على الجوارح فصادها وانفض وانقض، وأنبط ماء الفصاحة لما تحدّر وارفض، واستمال القلب الفظ لما فك ختم ذهوله وفض، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير بمنه، وكرمه.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: حمداً لله الذى أعلى مقام أهل الأدب، واستخرج من بحار خواطرهم الخاطرة ما يقضى لهم بالعجب، وجمع بهم شتات الفوائد، وأمدهم بكلمات يقف عندها رائد العوائد، ونفى عن كامل فضلهم قول ليت ولكن، وحرك بما يبدونه من المطرب والمرقص كل ساكن، والصلاة على نبيه الفائض على أقواله صوب الصواب، وعلى آله وأصحابه الذين بأساليب آدابهم الحسنة تسلب الألباب.

فهذه ثلاثون فصلاً طالت فروعًا وطابت أصلاً، تشتمل على ألفاظ أرق من الشمول، ومعان بعيون عقائلها تفتن العقول، أنشأتها بعد الإفاقة من نشوة الصبا، وسميتها حيث ملكت زمام اللطف «نسيم الصبا» ، وأودعتها أبياتًا لغيرى على وجه التضمين، محليًا جيد منثورها بالمنظوم من عقدها الثمين، منبهًا عليها بالحمرة، مظهراً ما لها على مأمور قولى من الإمرة، والله يهدى إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الفصل الأول

فى السماء وزينتها

أيقظني ليلة دواعي الهموم، فنظرت نظرة فى النجوم، فإذا السماء كأنها روضة مزهـرة، أو صـرح كـنس جـواريه مـسفرة، أو غدير تطفو عليه الفواقع، أو بنفسج نور أقاحه لامع، أو مسح ألقى عليه درر غواص، أو ستر به لعين كل نجم وصواص، أو جمر فى خلال رماد، أو كما قال من أجاد:

بـــساط زمـــرد نثـــرت علـــيه   دنـــانير تخالطهـــا دراهـــم

ونهر المجرة يجرى فى سفحها، ويسرى ليسقى ذابل نرجسها، يا له من نهر صفا ماؤه، وعقد على الأفق لواؤه ينقلب القلب إليه، ويقف طرف الطرف عليه، ويقبل نحوه الدبـران، وينـصب علـى شـطه الميـزان، ويحـوم حـوله النـسران، ويعـوم فـيه الحـوت والسرطان:

والثـــريا كأكـــرة أو كجـــام   أو بـــنان أو طائـــر أو وشـــاح

أو باقة من نرجس، أو كأس يدار فى المجلس، أو شمع يتوقد، أو شمس من عسجد، أو شذر منضود، أو كرم، أو عنقود، أو عقد لؤلؤ حسن الاتساق، أو أقراط خود ترتعد فرقًا من الفراق:

وسـهيل كوجـنة الحـب فـى اللـو   ن وقلـب المحـب فـى الخفقـان

أو كمصباح تلعب به أيدى الرياح، أو ظامئ يريد أن يرد، أو فارس فى حمى الحمى مجتهد، أو مشوق يتبع الآثار، أو غريب لا يزور ولا يزار، أو غريق يدعى قوة السباحة، أو ماجـد أنـف مـن الـذل فألف السياحة، أو مغاضب يدعى فلا يجيب، أو محب يغض الطرف ويفتحه خوف الرقيب، والجوزاء النيرة كالشجرة المنورة:

كأنهـــا مـــنطقة مـــن ذهـــب   قـــد عقـــدت علـــى قـــباء أزرق

والفرقدان الهاديان المرشدان:

كأنهمـــا ألفـــان قـــال كلاهمـــا   لـشخص أخيه قـل فإنـى سـامع

والذراع يذرع شقة الأفق، والجبهة تسجد على مفارق الطرق، والعيوق يعوق عن السير إذا سار، والعوا أعينها نشاوى قد تغشاها خمار، والسماك معتقل رمحه، والنثرة منتظمة كالسجه، والنعائم تحدوها النعامى، وزهرة الزهرة تضىء بين الخزامى، وبهرام يخجل البهرمان، والإكليل ليس بكل من مسايرة الأظعان، والمقدم لا يتأخر عن الإعناق والإيجاف، والصرفة قد همت مع العسكر بالانصراف:

تمر بواديا ليلا وتطوى ... نهاراً مثل ما طوى الإزار
فكم بصقا لها صدى البرايا ... وما يصدى لها أبداً غرار

فبينما أنا أسرح فى درر الدرارى نظرى، وأروض فى رياضها جواد فكرى، وأقدس من هى مسخرات بأمره، وأنزه من هدى خلقه بها فى بره وبحره، إذ هب نسيم السحر يروى عن أهل نجد أطيب الخبر، فعطر الكون بعرفه، وملك الرق برقته ولطفه، وأهدى الروح إلى الأرواح، وأطرب السمع بأحاديثه الصحاح:

فهو حياة لكل حى ... كأن أنفاسه نفوس

فاستبشرت بوروده، وحصلت على الفائدة من وفوده، وسر بمناجاته سرى، وقلت له والدموع تجرى:

أعد ذكر من حل الغضى يا محدثى ... وإن أضرموه بالأضالع والصدر
ولا تنس سكان العقيق وإن هم ... على وجنتى أجروه فى مدة الهجر

فلما أتمت الإنشاء والإنشاد، وشرعت فى طلب الإسعاف والإسعاد تبسم الفجر ضاحكًا من شرقه، ونصب أعلامه على منازل أفقه، فانطوى نشر الليل، وكف من غمره الذيل، وارتفعت الحجب، وتأججت نار الشهب، واقتنص بازى الضوء غراب الظلام، وفض كافور النور عن الغسق مسك الختام:

وشرد الصبح عنا الليل فاتضحت ... سطوره البيض فى ألواحه السود

وفلت جيوش الدجا، وحرك النهار منه ما سجا، وجنح جنحه إلى الرحيل، وتلا لسان حال التحويل: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٤].

* * *

الفصل الثانى

فى الشمس والقمر

بكرت يوماً بعد أداء الفرض، أتفكر فى خلق السماوات والأرض، فلمحت المشرق بالنظر، وإذا قرن الغزالة قد ظهر كأنه جذوة نار، أو قطعة من دينار، أو كأس ستر بعضه بالحباب، أو حسناء غطت وجهها بنقاب، ثم كشفت أستارها، وألقت على الأفق أنوارها، وبرزت كأنها كرة فى ميدان، أو مجن دولاب ضمخ بالزعفران، أو مرآة لم تصقل ولم تطرق، أو وجه المليحة فى خمار أزرق، أو سبيكة زجاج منتفخة الجوانب، أو بودقة يحرك فيها ذهب ذائب:

وكأنها عند انبساط شعاعها   تبر يذوب على فروع المشرق

فقلت: أهلاً بالجارية التى فى طلعتها ما يغنى عن الجارية، والعين التى تغار منها العين، والجونة التى وضح منها الجبين، والسراج الوهاج التى تبرجت بها الأبراج، أنت المخصوصة بالشرف والرفعة، أنت واسطة عقد الكواكب السبعة، أنت للحكمة برهان، وللفلك معيار وميزان، أنت الناطقة فى صمتها، التى قصر البليغ عن وصفها ونعتها، أنت ملك مقدم، أنت النير الأعظم، أنت يوح التى تغدو فى مصالح العالم وتروح، أنت ذكا التى ذكت نارها، أنت الضحى التى علا منارها، أنت الشمس التى بها تعرف الأوقات الخمس، بك ينشر الظل ويطوى، ويشتد النبات بعد ضعفه ويقوى، ويستدل على طريق الصواب، ويعلم عدد السنين والحساب، لما سفرت رافلة فى الحلل المعصفرة، حيت آية الليل وجعلت آية النهار مبصرة، وناهيك بها منزلة، وحسبك أن صفاتك فى الكتاب منزلة، ثم تمشت على بساطها، وخطرت فى وشيها ورياطها، وسبحت فى فلكها مرشدة إلى الحقائق، مظهرة أسرار الساعات والدرج والدقائق:

تسمو إلى كبد السماء كأنها   تبغى هناك دفاع أمر معضل

واستمرت سائرة يحدوها مر النسيم، ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨]، فلم يزل فكرى يصاحبها، وطرفى يرعاها ويراقبها:

حتى إذا بلغت إلى حيث انتهت   وقفت كوقفة سائل عن منزل

ثم انثنت تبغى الخدور كأنها   طير هفا لمخافة من أجدل

فلما حجبت عن العيون شخصها، وخطف المغرب من يد المشرق قرصها، واكتحلت جفون الأفق بالنار، وطرد زنجى الليل رومى النهار، بزغ الهلال بأمر ذى الجلال، كأنه قوس موتور، أو زورق منحدر فى بحر الديجور، أو شطر سوار أو منجل معد لحصاد الأعمار، أو خنجر مرهف النصلين، أو نون مرسومة من لجين، أو شفة كأس مائلة، أو مخلب عقاب صائلة، أو قطعة من قيد، أو فخ نصب للصيد، أو حرف جيم، أو عرجون قديم، أو حاجب شيخ أدركه الشمط، أو نعل من حافر أدهم الدجا سقط، أو ذباب سيف خرج من جفنه، أو راكع يعبد من لا يحدث أمر إلا بإذنه، وفى معناه من قصيدة:

وترى الهلال يلوح فى أفق السما ... يبدو كقوس بالمنى يرمينى
أو شبه فخ أو كدملج غادة ... وكجانب المرآة والعرجون
وجبين حب بالعمامة قد زها ... وكوجه خود بالنقاب مصون
وكناب فيل أو قلامة أنمل ... وكزورق وكحاجب مقرون
أو كالسوار أزيل منه البعض أو ... قربوس سرج مذهب أو نون
وكشأفة الكأس المخبا بعضه ... ضمن الشفاه ومنجل مسنون
هو منجل الأعمار للحصد الذى ... يفنى أولى التزيين والتحسين
وإذا مضى سبع تراه كأنه ... نصف لتعويذ بد العيون
وإذا تكامل صار جامًا صافيا ... وكأنه من لؤلؤ مكنون
أو غادة قد أسفرت عن وجهها ... غنيت عن التحسين والتزيين
هذا هو المشهور فى تشبيهه ... قدما وذلك جمعه يكفينى

فقلت: مرحبًا بمن ثياب مناوئه رثاث، قر عينًا ستعود قمرًا بعد ثلاث، ثم تصير بدرًا إن فى ذلك لذكرى:

وإذا رأيت من الهلال نموه ... أيقنت أن سيكون بدرًا كاملاً

أنت الزمهرير الذى ليس له فى نضارته نظير، أنت الزبرقان الذى له فى كل شهر مهرجان، أيها القمر كم محب طاب له فيك السمر، أيها الواضح الباهر ما أنت إلا مثل سائر، أيها البدر الكامل الذى فضله للبرية شامل، لا تأس على ما فاتك من الدرج، ولا يكن فى صدرك من الغزالة حرج (مفرد):

فقد تخمد الشمس الصباح بضوئها تفاوتت الأنوار والكل رائق

منازلك معروفة، ومحاسنك موصوفة، وشرفك باذخ، وقدمك راسخ، وآياتك ظاهرة، وسفارتك سافرة، وكم أوضحت من طريق، وهديت الرفيق إلى الفريق، وذكرت محبوبًا لمحبوبه، وبلغت طالبًا غاية مطلوبه، أحسن بضوء ذبالتك وحسبى مثالاً بهالتك، جعلك البارى فى السماوات نورًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، فسبحان من جلا بمحياك حندس الغسق، وأقسم بك فى قوله: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٨]، قدرك أثيث أثيل، ومحبك نبيه نبيل، ووجهك يا بثينة الحسن جميل:

على رسل فما لك من مجار إلى رتب العلاء ولا رسيل

فتبارك اسم من ألبسكما أحسن الحبر، وتعالى جد من جعلكما مصباحين لأهل النظر، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، ثم لم يبرح يسرى وأنا لا أبرح، وينجلى وأنا أشاهد وجهه الأصبح إلى أن غاب واختفى، وحسبنا الله وكفى.

* * *

الفصل الثالث

فى السحاب والمطر

إن الله تعالى حكم دائم النفوذ، وحكيم يهدى شفاء النجاة لمن به يلوذ، وله أسرار معناها دقيق لا يفهمه إلا أرباب التحقيق، أمسك الغيث عن عباده فى عام، فخاض كل منهم فى بحر دمعه وعام، وساءت الظنون بضن السحاب واشتاق النبات إلى سماع وقع الرباب، وظمئت الحياض، وعبست وجوه الرياض، واستدت عيون العيون بالنقع المثار، وتعطلت من حلى المزن أجياد الأزهار، وذهلت العقول لفقد الصوب عن الصواب، وقص جناح السرور وطارت الألباب، وطوى بساط الانبساط، ووقع القوم فى هياط ومياط، وطالت عهود العهاد، وتأهبت الأرض للبس أثواب الحداد:

وأصابت نبت الربا عين شمس   أورثته مذلة واصغرارا

كلما جال طرفها ترك النا   س سكارى وما هم بسكارى

فبينما هم يجرون أذيال الكآبة، ويرفعون الدعاء إلى مواطن الإجابة، تداركهم الله بألطف الخفى، وانثال عليهم المن الحفى، ونظر الله إليهم بعين حكمته، وحرك ساكن الرخاء لتجرى بنعمته، وهو الذى يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته، فمدت أعناقها وجدت إعناقها، وركضت عادياتها، وجرت على أحسن عاداتها، وبدلت من أرديتها الأردان، وأرخت العنان فى طلب العنان:

ورياح تبشر الأرض بالقطـ   ـر كذيل الغلالة المبلول

ووجوه البقاع تنتظر الغيـ   ـث انتظار المحب رد الرسول

فأقلت سحابًا ثقالاً يستهل كرمًا ونوالاً، مسكى الإهاب، خصيب الجناب، فسيح الرحاب، صادق الوعود، متلاحق الوفود، كثير الأعوان والجنود، يؤذن بالموارد الطامية، وشفاء الشفاه الظاميه، وإثراء فقير الثرى، وإجراء دمعه أسفًا على ما جرى:

أكب على الآفاق إكباب مطرق   يفكر أو كالنادم المتلهف

ومد جناحيه إلى الأرض جانحا   وراح عليها كالغراب المرفرف

والرعد يزجره ويسوقه بين يديه، فإذا قصر صاح به وزجر عليه تارة يترنم كالحمام، وطورًا يزأر كالأسد الضرغام (مفرد):

وكـان صـوت الرعد خلف سحابة حــاد إذا ونـت الـنجائب صــاحا

والبرق يلمح ويلمع ويمنح، ثم يمنع كأنه ثغر أشنب، أو قبس يلتهب، أوحسام يمان، أو فـؤاد جـبان، أو سلاسـل من ذهب، أو أشهب مال جله حين وثب، أو أنامل بعض الحـساب، أو حية تتلوى ثم تنساب، أو كف خضيب يمد ويقبض، أو خد خود تعرض بعد أن تتعرض:

تــرى الأرض مـنه وقـد فضـضت ووجـــه الـــسماء وقـــد ذهـــبا

وقـوس الغمـام للجـو نطاق، لا بل تاج على مفارق الآفاق يزهو بلجينه وعسجده، ويفخر بياقوته وزبرجده:

كأذيــال خــود أقـبلت فـى غلائـل مـصبغة والـبعض أقـصر من بعض

فلمـا تـراكمت الـسحائب واجـتمعت حولهـا الكتائب، واتسع صدرها، واستحكم أمـرها، وحلـق بالجـو ناهـضها، واعترض فى الأفق عارضها، ونصبت راياتها، وانتهت غاياتهـا، وآن رحـيلها وتفـريق شملـها، وحـان وضعها وفصال حملها، أجرت مدامعها وردت ودائعهـا، وحلـت نطاقهـا، وفكـت أزرار أطـواقها، وحـثت الركائب، وأسبلت الذوائب، وسمحت بطلها وطشها، وسكنت رهج الغبراء برشها، وأروت الحرة برذاذها وهطلـها، وأذهـبت الحـرقة بديمها ووبلها، وآثرت بجودها وجودها، ونثرت على بساط الأرض جواهر عقودها. أبو هلال العسكرى:

تخـال بهــا مـسكا وبالقطـر لؤلـؤاً وبالـروض ياقـوتا وبالـوحل عنبرا

كـم أبـدت إحـسانًا وبرا، وبردت من كبد حرا، وأسدت معروفًا، وأغاثت ملهوفًا، وساقت إنعامًا، وسقت حرثًا وأنعامًا، وكفت همًا حين وكفت، وقرطت آذان الأغصان وشـنفت، وأنشرت أمواتًا، وأخرجت حبًا ونباتًا، ونشرت مطرفًا بعد الطى، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وكم نقعت غليلاً ونفعت عليلا، وملأت حياضًا، ونورت رياضًا، وأذلت دراً مصونًا، وشرحت صدوراً، وأقرت عيونًا، وألبست الحدائق بروداً عليها طلاوة، وأهدت للزهر قطراً ظاهر الحلاوة:

تــرى فــواقعه فـى الأرض لائحـة مـثل الـدراهم تـبدو ثـم تـستتر

فأمسى الناس فى عيشة راضية يـرفلون فـى حلل الرفاهية أمرعوا بعد الضنك والـشظف، وأخـصبوا بعـد الجـدب والطـفـف، وأصبح محل المحل دارسًا، ووجه الأمل

يضحك بعد أن كان عابسًا، وأخذت الأرض زخرفها بعد أن كان زرعها يهيج، واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فثغورها مبتسمة، وفرائد قلائدها منتظمة، ونمارقها مدبجة، ورءوس أشجارها متوجة، وغدرانها طافحة، ومخايل السعادة عليها لائحة، وألسنة أهلها مشتغلة بشكر علام الغيوب، وقلوبهم مطمئنة بذكره ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، يبدىء ويعيد، ويمتحن العبيد، ثم يفتح لهم أبواب جوده الوافر وفضله المديد، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

* * *

الفصل الرابع

فى الطول والقصر

أرقت ذات ليلة فى مضجعى فسمعت طارقًا ينادى فى النادى. عتاب بن ورقاء الشاعر:

إن الليالى للأنام مناهل تطوى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

فقمت من مضجعى وقد بلل دمعى مضجعى متحيرًا فى أمرى، متأسفًا على ما فات من عمرى، وقلت: أيها الطارق فى ظلمة الليل الغاسق، هل لك فى المنادمة؟ فقال: كم نديم سفك المنى دمه، ثم سلم وجلس، وما تنفس وما نبس، فقلت: يا من شنف السمع بدرره، اذكر لى شيئًا فى طول الليل وقصره، فقال:

وليل كواكبه لا تسير ولا هو منها يطيق البراحا
كيوم القيامة فى طوله على من يراقب فيه الصباحا

مقيم ليس يبرح، وعاجز لا يظعن ولا ينزح، برد نجومه لا يذوب، وغائب ضوئه ليس يؤوب، لا يبلى جديد مسحه، ولا يجنح إلى الحركة ساكن جنحه، عليله ما يرجى صلاحه، وصباحه لا يلوح مصباحه، قطع الطريق على السحر، وعذب أجفان المحبين بالسهر:

حدثونى عن النهار حديثا أو صفوه فقد نسيت النهارا

كأنه صريع راح، أو طائر مقصوص الجناح، أو أسير يخبط فى قيده، أو بحر منع الجزر عن مده، أوكسير ليس له على النهوض اقتدار، أو ضرير يئس طرفه من رؤية النهار:

أو هائم غمر بقطع الفلا قد حار لا يدرى بمن يهتدى
أو جيش زنج بالثرى قد ثوى أو دارة حيث انتهت تبتدى

واعلم أيها البصير الناقد أنه يطول على المهجور الفاقد، ويقصر على المسرور الراقد.

أبو سام رحمه الله:

ليلى كما شاءت فإن لم تزر ... طال وإن زارت فليلى قصير

فقلت: إيه أيها الإمام أسمعنى شيئًا فى وصف الأيام، فقال ابن الرومى، رحمه الله:

لله أيام تقضت لنا ... ما كان أحلاها وأهناها

مرت فلم يبق لنا بعدها ... شيء سوى أن نتمناها

حيث الوقت معين، وماء الشبيبة معين، ونشر البشر فائح، ونور الهناء لائح، والحبيب مجيب، والرقيب غير قريب، وغصن الصبار طيب، ومطرف اللهو قشيب، والعيش غض، والدهر غضيض الطرف، وسعاد السعد ممنوعة من الصرف (مفرد):

والشمل مجتمع والجمع مشتمل ... على الجميل وحسن الخلق والخلق

أيا أخا الأدب، إلى كم ذا الحرص والدأب، الأيام نجمها غرار، ومدعى الوفاء منها غدار، كثيرة الملال، سريعة الزوال، تفرق الحبائب، وتسترجع المواهب، زمامها ذميم، ومسالمها سليم، تحل العقود ولا تحفظ العهود، تكدر الصافى من الشراب، وتعد الظامىء بورود السراب، لقد سقط من تمسك بعراها، وتعب من قصد الراحة من ذراها. قال التهامى، رحمه الله تعالى:

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار

ثم قال: مضت الجهمة والشفق، والفحمة والغسق، والقطع والسدفة، والبهرة والزلفة، وآن لنسمات السحر أن تتبختر، ولعيون الفجر أن تتفجر، وقام للوداع فقلت: زودنى بأنعم المتاع، فقال: دع إزار الأوزار، واتق من لا تدركه الأبصار، وسبحه بالعشى والإبكار ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

* * *

الفصل الخامس

فى أقسام العام

حضر فصول العام مجلس الأدب فى يوم بلغ منه الأريب نهاية الأرب، بمشهد من ذوى البلاغة، ومتقنى صناعة الصياغة، فقام كل منهم يعرب عن نفسه، ويفتخر على أبناء جنسه.

فقال الربيع: أنا شاب الزمان، وروح الحيوان، وإنسان عين الإنسان، أنا حياة النفوس، وزينة عروس الغروس، ونزهة الأبصار، ومنطق الأطيار، عرف أوقاتى ناسم، وأيامى أعياد ومواسم، فيها يظهر النبات، وتنشر الأموات، وترد الودائع، وتتحرك الطبائع، ويمرح جنيب الجنوب، وينزح وجيب القلوب، وتفيض عيون الأنهار، ويعتدل الليل والنهار، كم لى عقد منظوم، وطراز وشى مرقوم، وحلة فاخرة، وحلية ظاهرة، ونجم سعد يدنى راعيه من الأمل، وشمس حسن تنشدنا بأبعد ما بين برج الجدى والحمل، عساكرى منصورة، وأسلحتى مشهورة، فمن سيف غصن مجوهر، ودرع بنفسج مشهر، ومغفر شقيق أحمر، وترس بهار يبهر، وسهم آس يرشق فينشق، ورمح سوسن سنانه أزرق، تحرسها آيات، وتكنفها ألوية ورايات، بى تحمر من الورد خدوده، وتهتز من البان قدوده، ويخضر عذار الريحان، وينتبه من النرجس طرفه الوسنان، وتخرج الخبايا من الزوايا، ويفتر ثغر الأقحوان قائلاً: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا:

إن هذا الربيع شىء عجيب ... تضحك الأرض من بكاء السماء
ذهب حيثما ذهبنا ودر ... حيث درنا وفضة فى الفضاء

وقال الصيف: أنا الخل الموافق، والصديق الصادق، والطبيب الحاذق، أجتهد فى مصلحة الأصحاب، وأرفع عنهم كلفة حمل الثياب، وأخفف أثقالهم، وأوفر أموالهم، وأكفيهم المؤنة، وأجزل لهم المعونة، وأغنيهم عن شراء الفرا، وأحقق عندهم أن كل الصيد فى جوف الفرا، نصرت بالصبا، وأوتيت الحكمة فى زمن الصبا، بى تتضح الجادة، وتنضح من الفواكه المادة، ويزهو البسر والرطب، وينصلح مزاج العنب، ويقوى قلب اللوز، ويلين عطف التين والموز، وينعقد حب الرمان، فيقمع الصفراء ويسكن الخفقان، وتخضب وجنات التفاح، ويذهب عرف السفرجل مع هبوب الرياح، وتسود

عيون الزيتون، وتخلق تيجان النارنج والليمون، مواعدى منقودة، وموائدى ممدودة، الخير موجود فى مقامى، والرزق مقسوم فى أيامى، الفقير ينصاع بملء مده وصاعه، والغنى يرتع فى ريع ملكه وأقطاعه، والوحش تأتى زرافات ووحدانا، والطير تغدو خماصًا وتروح بطانا. ابن حبيب، رحمه الله:

مصيف له ظل مديد على الورى ومن حلا طعمًا وحلل أخلاطا
يعالج أنواع الفواكه مبديا لصحتها حفظا يعجز بقراطا

وقال الخريف: أنا سائق الغيوم، وكاسر جيش الغموم، وهازم أحزاب السموم، وحادى نجائب السحائب، وحاسر نقاب المناقب، أنا أصد الصدى، وأجود بالندى، وأظهر كل معنى جلى، وأسمو بالوسمى والولى، فى أيامى تقطف الثمار، وتصفو الأنهار من الأكدار، ويترقرق دمع العيون، ويتلون ورق الغصون، طوراً يحاكى البقم، وتارة يشبه الأرقم، وحينًا يبدو فى حلته الذهبية، فيجذب إلى خلته القلوب الأبية، وفيها يكفى الناس هم الهوام، ويتساوى فى لذة الماء الخاص والعام، وتقدم الأطيار مطربة بنشيشها، رافلة فى الملابس المجددة من ريشها، وتعصر بنت العنقود، وتوثق فى سجن الدن بالقيود، على أنها لم تجترح إثمًا، ولم تعاقب إلا عدوانًا وظلمًا، بى تطيب الأوقات، وتحصل اللذات، وترق النسمات، وترمى حصى الجمرات، وتسكن حرارة القلوب، وتكثر أنواع المطعوم والمشروب، كم لى من شجرة أكلها دائم، وحملها للنفع المتعدى لازم، وورقها على الدوام غير زائل، وقدود أغصانها تخجل كل رمح ذابل. ابن حبيب، رحمه الله:

إن فصل الخريف وافى إلينا يتهادى فى حلة كالعروس
غيره كان للعيون ربيعا وهو ما بيننا ربيع النفوس

وقال الشتاء: أنا شيخ الجماعة، ورب البضاعة، والمقابل بالسمع والطاعة، أجمع شمل الأصحاب، وأسدل عليهم الحجاب، وأتحفهم بالطعام والشراب، ومن ليس له بى طاقة أغلق من دونه الباب، أميل إلى المطيع القادر، المستطيع المعتضد بالبرود والفرا، المستمسك من الدثار بأوثق العرا، المرتقب قدومى وموافاتى، المتأهب للسبعة المشهورة من كافاتى، ومن يعش عن ذكرى ولم يمتثل أمرى أرجفته بصوت الرعد، وأنجزت له من سيف البرق صادق الوعد، وسرت إليه بعساكر السحاب، ولم أقنع من الغنيمة بالإياب، معروفى معروف، ونيل نيلى موصوف، وثمار إحسانى دانية القطوف، كم لى من وابل

طويل المدى، وجود وافر الجدا، وقطر حلا مذاقه، وغيث قيد العفاة إطلاقه، وديمة تطرب السمع بصوتها، وحيا يحيى الأرض بعد موتها، أيامى وجيزة، وأوقاتى عزيزة، ومجالسى معمورة بذوى السيادة، مغمورة بالخير والمير والسعادة، نقلها يأتى من أنواعه بالعجب، ومناقلها تسمح بذهب اللهب، وراحها تنعش الأرواح، وسقاتها بجفونهم السقيمة تفتن العقول الصحاح، إن ردتها وجدت مالاً ممدوداً، وإن زرتها شاهدت لها بنين شهودا:

وإذا رميت بفضل كأسك فى الهوى عادت عليك من العقيق عقودا

يا صاحب العودين لا تهملهما حرك لنا عوداً وحرق عودا

فلما نظم كل منهم سلك مقاله، وفرغ من الكلام على شرح حاله، أخذ الجماعة من الطرف ما يأخذ أهل السكر، وتجاذبوا أطرف مطارف الثناء والشكر، وظهرت أسرار السرور، وانشرحت صدور الصدور، وهبت نسمات قبول الإقبال، وأنشد لسان الحال:

وماذا يعيب المرء فى مدح نفسه إذا لم يكن فى قوله بكذوب

* * *

الفصل السادس

فى البحر والنهر

هزتنى رياح الأمل البسيط إلى امتطاء ثبج البحر المحيط، فأتيت سفينة يطيب للسفر مثواها، وركبت فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]، موقنًا بأن المقدور صائر، معرضًا عن قول الشاعر:

لا أركب البحر أخشى ... علىّ منه المعاطب

طين أنا وهو ماء ... والطين فى الماء ذائب

يا لها سفينة على الأموال أمينة، ذات دسر وألواح، تجرى مع الرياح، وتطير بغير جناح، وتعتاض عن الحادى بالملاح، تخوض وتلعب، وترد ولا تشرب، لها قلاع كالقلاع، وشراع يحجب الشعاع، وسكينة وسكان، ومكانة وإمكان، وجؤجؤ وفقار، وأضلاع محكمة بالقار، وجسم عار من الفؤاد، وهو فى عين الماء بمنزلة السواد، بعيدة ما بين السحر والنحر، من أحسن الجوارى المنشآت فى البحر، معقود بنواصيها الخير كالخيل، لا تمل من سير النهار ولا من سرى الليل:

ما رأى الناس من قصور على الما ... ء سواها تسير سير القداح

كأنها وعل ينحط من شاهق، أو عرباض سابق يحثه سائق، أو عقرب شائلة، أو عقاب صائلة، أو غراب أعصم، أو تمساح، أو أرقم، أو ظليم نفر فى الظلام، أو جواد فر مستنكفًا من صحبة الأنام، حاكمها عادل فى حكمه، عارف بنقض أمرها وبرمه، يهتدى بالنجوم، ويبتدىء باسم الحى القيوم، يبرز من نواتيها فى جنود، يشمل إحسانهم أهلها أيقاظًا وهم رقود، يتأنقون فيما يعمرون، ويفعلون ما يؤمرون:

يكثرون الصياح حتى كأن الـ ... ـسفن تجرى من خوف ذاك الصياح

فبينما نحن من البحر فى قاموسه، كتب الجو حروف الغيم فى طروسه، وثارت ريح عاصف، يتبعها رعد قاصف، فمالت بنا الفلك، واضطربت ودنت شفتها من رشف الماء، واقتربت واستمرت ترفع وتخفض، وتقرب وترفض، وتعلو على الأوتاد، وتهيم فى كل واد، وتحوم وتحول، وتجود وتجول، وتضرم فى الكبود نار ناجر، إلى أن بلغت القلوب الحناجر:

ألا فارجـــــه واخـــــشه إنـــــه هــو البحــر فــيه الغنــى والغــرق

ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرائر، وأمر الجارية بحمل العبيد إلى بعض الجزائر، فلم ندر إلا ونحن تجاه جزيرة تسر النفوس بمحاسنها الغزيرة، فانحدرت ماضيًا إلى بينها، نائيًا عن السفينة وساكنيها، فوجدتها مخضرة الأفنان، مخضلة الكثبان، بها من الياقوت ما يرجع خاسئًا مناويه، ومن الأشجار ما يحمل الفواكه والأفاويه، وبين رياضها نهر شديد الخصر، أرضه ذهب وحصباؤه درر، وأمواجه عكن، وداراته سرر:

عــذب إذا مــا غــب مــنه ناهــل فكأنــه مــن ريــق خــود يــنهل

لين الأديم، مزاجه من تسنيم، يصقله الصبا، ويفركه النسيم، فكأنه دروع موضونة، أو مبارد مسنونة، أو دمع يتسلسل، أو أفاع تتململ، أو ذوب فضة يسيل، أو صفحة سيف صقيل، أو لوح بلور مرقوم، أو رحيق بالمسك مختوم:

وكــــأن الطــــيور إذ وردتــــه مــــن صــــفاء بــــه تــــزق فــــراخا

إن مالت إليه الغصون فالشخوص ترقص فى الخيال، وإن كرعت منه الظباء فالغيد يرشفن من ثغور أترابهن الزلال، وإن أشرقت عليه النجوم خلت الفلك يدور فى أرجائه، وإن تجلى له البدر حسبته قلبًا خافقًا بين أحشائه. قال مؤيد الدين الطغرائى:

والــشمس إن وافــته رأد الــضحى حــسناء فــى مــرآته ناظــره
أنمــوذج المــاء الــذى جاءنــا الـــ ـــوعد بــأن نــسقاه فــى الآخــره

فلبثت فيها مدة مفكرًا، فيما رأيت من الفرج بعد الشدة مؤمنًا بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، واقفًا على شكر من تجرى الفلك فى البحر بأمره:

ربمـــا تجـــزع الـــنفوس لأمـــر ولهـــا فـــرجة كحـــل العقـــال

ولم أزل بها فى أحسن حال، وأرغد عيش وأنعم بال، إلى أن حرك الله منى ما كان ساكنًا، وأدخلنى مصر بمشيئته آمنًا.

* * *

الفصل السابع
فى المعقل والدار

عرض لى فكر أثار العزيمة إلى مشاهدة الآثار العتيقة، فأعددت الزاد، وسرت أجوب البلاد، وأصل العنق بالوخد والزميل، وأكتحل من إثمد الفلاة بميل بعد ميل، فبينا أنا أترامى لنيل المرام، لاح لى بناء على أيهم خشام، فتوجهت مسرعًا للوقوف عليه، واجتهدت إلى أن توصلت إليه، فرأيت معقلاً يسبى العقول، ويجر على السحاب فضل الذيول، رفيع الذرا، رحيب الذرا، رأسه فوق الثريا، وأسه تحت الثرى، صهوته عالية، وثغوره حالية، ومهور عرائسه غالية، الجوزاء لخصره منطقة، والزهرة فى أذنه كالشنف، معلقة يباهى الأفلاك، ويسمو إلى السماك، ويعلو على الزواهر، ويخجل الشمس بنوره الباهر، ويعوق العيوق، وينادم القمر عند الصبوح والغبوق:

إذا ما سرى برق بدا من خلاله كما لاحت العذراء من خلل

سوره منعطف كالسوار، وأبراجه تدهش بتبريجها الأبصار، وشرفاته تلمع كالمشرفية، وخبايا صياصيه عن الأوهام خفية، ممنعة مصادره وموارده، متسعة معالمه ومعاهده، لا يرى الوعل أعلى طوره، ولا يبلغ الطرف منتهاه لعجزه وقصوره، عروقه مؤتزرة بالتخوم، وفروعه متوجة بالنجوم، وبنيانه مرصوص، وخواتمه مرصعة بجواهر الفصوص، لا يتصل الفناء بفنائه، وتظهر العزة على من يرجو تملك أرجائه، عقوده محكمة، وأحجاره مهندمة، وأركانه مشيدة، وملابسه مع القدم جديدة، وقواعده مرفوعة، وأقوال ديكته فى السماء مسموعة (مفرد):

له عقاب عقاب الجو حائمة من فوقها فهى تخفى فى خوافيها

وبوسطه دار دار بها فلك السعود، وأورق لطالب كنزها عود الوعود، وسحت عيون ساحتها، ورفع فى العقار فرش عقرها وباحتها، وتوقفت الكواكب لمراقبة عجائبها وغرائبها، وسال لعاب الشمس من الحيرة فى ملاعبها، أنيقة المبانى، مأهولة بأهلة المعانى، تنشرح الصدور فى قاعاتها وبقاعها، وتخبر محاسنها بصنائع أهلها وحذق صناعها:

إذا فتحت أبوابها خلت أنها تقول بترحيب لداخلها أهلا

رحبة الأكناف، بديعة الأوصاف، تدل على أنها كانت منزل الأشراف، ومقر قرى الأضياف، ومقعد الوفود، ومحل الكرم والجود، تحار الأعين فى وشى أزاهيرها، وتقصر الألسن عن تقريظ مقاصيرها، مياه بركها غزيرة، وجدرانها بالتمكين جديرة، وأشجارها لم تزل مورقة مثمرة، ولياليها لا تبرح بالسنا على مر السنين مقمرة:

تتقابل الأنوار فى جنباتها ... فالليل فيها كالنهار المشمس

كم بها من صدر مجلس مشروح، وسقف مرفوع، وباب مفتوح، وبهو بالبهاء تراه أثرى، وإيوان يكسر بسهام قوسه جيش إيوان كسرى، وحدائق لم تنبت فى التراب، ولا جادتها أيدى السحاب، وتصاوير تحرك العارف بسكونها، وتفتن الألباب بحمرة خدودها وسواد عيونها، وتبعث الخواطر بمعانيها ومغانيها، ويكاد ماء الذهب يقطر من أعاليها، قد جل عن الترخيم رخامها، وتوفرت من المحاسن أقسامها، وابيضت وجوه مرمرها وزادت بهجة جباهها وطررها، وتخلقت أثواب ساجها، واجتمع شمل أبنوسها وعاجها، وعلت رتبة أرائكها، وغلت قيمة سبائكها، فلو ساجلها الروض لذهب مع الرياح عرفه، ولو كحل بنورها الأعمى لارتد إليه طرفه:

ديار عليها من بشاشة أهلها ... بقايا تسر النفس أنسا ومنظرا

فلما أحاط علمى بنوره ومجده، وبلغ رائد فكرى منه غاية قصده، أدخلته فى زمرة عقائل المعاقل، ونظمته فى سلك ما أتكلم عليه فى المحافل، وسألته عن بانيه وساكنيه فلم يجب. ثم قال بلسان الحال: كل منهم بغمام الرغام قد حجب، فحققت أن الدهر بديل كل مصون، وتلوت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥]، وخرجت منه معتبرًا، وظلت فى طريقى متذكرًا:

قلت يومًا لدار قوم تناءوا ... أين سكانك الكرام لدينا

فأجابت هنا أقاموا قليلاً ... ثم ساروا ولست أعلم أينا

* * *

الفصل الثامن

فى الأشجار والثمار

لما صدئت مرآة الجنان قصدت لجلائها بعض الجنان، فطرقت الباب، فقيل: من؟ فقلت: فتى لا يدرى من له فتن، ففتح الوصيد ودنا المراد من المريد، فدخلت إليها وما كدت أن أقدم عليها، فإذا جنة عالية، قطوفها دانية، وطلحها منضود، وظلها ممدود، وأعلام أشجارها مرفوعة، وفاكهتها كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة:

ربع الربيع بها فحاكت كفه ... حللاً بها عقد الهموم يحلل

تجوس المياه خلال ديارها، وتشرق بآفاقها أنوار نوارها، وتحدق الحدق بفنون أفنانها، وتغنى الورق فى الورق على عيدانها، وتميد أدواحها على مذهب الأنماط، وتميس من الحلى فى أحلى الشنوف والأقراط:

كأن غصونها سقيت رحيقا ... فمالت مثل شراب الرحيق

نزهة النواظر، وشرك الخواطر، كم لرقيق نسيمها من رقيق قلبه مقيد ودمعه طليق، بها الأشجار لا تحصى، وثمار لا تعد ولا تستقصى، فمنها نخيل متحفها غير بخيل، جماره:

جسم لطيف اللمس لكنه ... قد لف فى ثوب من الصوف

وطلعه:

كصدر فتاة ناهد شق قلبها ... سماع فشقت عنه ثوبا ممسكا

وبلحه:

مكاحل من زمرد خرطت ... مقمعات الرءوس بالذهب

وبسره:

كأنما خوصه عليه ... زبرجد مثمر عقيقا

ورطبه:

إهليلج من لجين ... مسمر بالنضار

وثمره:

يشف مثل كؤوس   مملوءة من عقار

وكروم كريمة منافعها عميمة:

كأنما عنقودها   زنج جنوا فى سرقه
فأصبحت رءوسهم   على الذرى معلقه

أو الثريا عند الصباح أو أوعية نور ملئت من الراح:

كم درة فيها وكم جزعة   صحيحة التدوير لم تثقب

وتفاح سرى نشره، وفاح كأنه خمر جمد، أو جمر ما خمد، أو در جمع معه ياقوت، أو وجنة من هى للقلوب فى الدنيا قوت نصفه من بهار ونصفه من جلنار:

كأن الهوى قد ضم من بعد فرقة   به خد معشوق إلى خد عاشق

وسفرجل جل قدراً وأطلع من زهره زهراً:

يحكى نهود الغانيات وتحتها   سرر لهن حشين مسكا أذفرا

ينوب طعمه عن الراح ويهدى عطر الخود الرداح:

له ريح محبوب وقسوة قلبه   ولون محب حلة السقم قد كسى

وموز من نضار كأنه أنياب فيلة صغار، أو طفل قماطه معصفر، أو لفات زبد عجنت بسكر:

أو مغرم أنحله وصفره   بعد الذى بوصله ما ظفره

وتين ممزق الجلباب كدر القشر صافى اللباب:

كأنه رب نعمة سلبت   فعاد بعد الجديد فى خلق

ورمان بديع النظام يبسم عن مثل حب الغمام كأنه نهود الحسان أو حقاق صندل حشيت بالمرجان:

حقاق كأمثال الكرات تضمنت   شذور عقيق فى غشاء حرير

فى شجره جلنار أشرق وأنار:

يحكى فصوص بلخش   فى قبة من زبرجد

وإجاص أسود العين لا يعتريه شيب ولا شين، كأنه كرات من العنبر أو طليعة من الزنج تنتظر العسكر:

وإذا ما قشرته ففصوص ... صبغتها بمائها الظلماء

وخوخ ذو لونين فى بياضه وحمرته جلاء للعين:

كوجنة غادة خافت رقيبا ... فغطتها بمحمر البنان

وكمثرى لطيف الذات حسن الصفات فى غاية اللطف والرقة، يذوب من الراحة ولا يحمل المشقة:

كأنه فى شكله ولونه ... وطعمه قوالب من سكر

ومشمش تقمص بالشفق وتدرع بالورق، ككرات من العقيان أو بنادق ضمخت بالزعفران:

وكأنما الأفلاك من طرب به ... نثرت كواكبها على الأغصان

وتوت خمرى اللون ليس له صبر على الصون، مزمل بدمائه، لم يبق فيه غير ذمائه:

يكاد بأن يفنى إذا ما لمسته ... فأرحمه من سائر الثمرات

وعناب نقى الإهاب كأنه قلوب الأطيار، أو خرز ركب من النضار:

أقراط ياقوت تحركها الصبا ... أو أنمل بالأرجوان مطرفه

وفستق شريق كأنه عند التحقيق والتحديق:

زبرجدة ملفوفة فى حريرة ... مضمنة دراً مغشى بياقوت

أو مسرور تبسم أو مأسور فتح فاه ليتكلم:

والقلب ما بين قشريه يلوح لنا ... كألسن الطير من بين المناقير

ولوز قلوبه مؤتلفة، وأثوابه مختلفة، لطيف المعانى، له بها جنة من الجانى، كأنه خز بزه رفيع، أو عذار جديد شرط الخليع:

أو سندس أخضر من تحته صدف ... أحسن به صدفا فى ضمنه درر

وجوز جسمه من العرعر، وقميصه من الزمرد الأخضر، صحيح التدوير، يسقط على الخبار لا على الخبير:

واجـــوز مقـــشور يـــروق كأنـــه   لـــونا وشـــكلاً مـــصطكى ممـــضوغ

وصنوبر يقرى الضيف، لا يعرف رحلة الشتاء والصيف، كأنه طيور على ذرى القصب، أو كافور ضمخ بالمسك المنتخب:

عقـــد لآل مـــشرق لـــونه   فـــى جـــوف أدراع مـــن العـــود

وأترج حسن ذرعًا وزرعًا، وطاب أصلاً وفرعًا، فيه روح وريحان، وهو للأغصان بمنزلة التيجان:

أباريـــق مـــن الـــذهب المـــصفى   وقـــد ســـقطت عـــراها بالعـــراء

ونارنج بهيج طيب زهره، أريج كأنه مصابيح تهزها أيدى الريح، أو عذراء صبغت بالورس إزارها، أو وجنة عاشق أضرم الوجد نارها:

أو جـــذوة حملـــتها كـــف قابـــسها   لكـــنها جـــذوة معدومـــة اللـــهب

وليمون كأنه بنادق من لجين، أودعت غلفًا من العين مخافة العين:

يـــشبهه بـــيض الـــدجاج وقـــد   لطخـــه العابـــث بالزعفـــران

وزيتون شجرته ميمونة، وأسرار أنواره مكنونة:

بـــــدا لـــــنا كـــــأعين   شـــــهل وذات دعـــــج
مخـــــضرة زبـــــرجد   مـــــسودة مـــــن ســـــبج

وخرنوب كقرن ظبى معطوف، أو هلال عاجله الخسوف:

وكأنـــه مـــذ لاح فـــى أوراقـــه   أصـــداف در ضـــمنها مـــرجان

ونبق جلبابه معصفر كأنه كهربا أصفر:

أو عـــدة مـــن شـــنوف   قـــد علقـــت بالغـــصون

وزعرور كالياقوت مسك نكهته مفتوت:

جلاجـــل مخـــضوبة عـــندما   أوخـــرزات خـــرطت مـــن عقـــيق

وبأرضها الباقلاء الذى فاح نشره وصدق خبره خبره يبرز له من الكمائم نور يحكى بلق الحمائم، كأنه لؤلؤ يقق متلفع بمروط السرق، أو خواتم من فضة، أو مخالب جوارح منقضة:

فــصوص زمــرد فــى غلــف در ... بأقمــاع حكــت تقلــيم ظفــر

والخـشخاش الـذى تـضىء بنوره الأغباش أعلام تميل مع الرياح، أو أكاليل على رءوس الرماح:

حبلــى تــضم أطــيفالاً إذا درجــوا ... رأيــت شملــهم المــنظوم منــشورا

والكتان الذى رقت حواشى شققه، وراقت محاسن أخضره وأزرقه، وامتدت رياطه وحبره، وتبلبلت أصداغه وطرره:

إذا درجــت فــيه الــرياح تــتابعت ... ذوائــبه حتــى يقــال غديــر

وفيها من النبات ما يعنول إليه بنانى، ويقصر عن حصر وصف بعضه لسانى، يسقى بماء واحد، ويبطل قول المعترض والجاحد، ولعمرى لقد بلغتنى ما أملته من جلاء قلبى المعمود، وأذكرتنى ما لم أكن ناسيًا من فنائها، وبقاء جنة الخلود، فإنها وإن طاب جناها، وأوقفـت الـنفوس علـى حـلا مـن سناها، مؤذنة بالتلاشى والرحيل ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، فلما قضيت منها وطرى، ثنيت عنها عنان نظرى، ومضيت ذاكرًا محاسن صفتها وموصوفها، شاكرًا سرو سروها، وعرف معروفها:

وعــذراً فإنــى فــى الثــناء مقــصر ... وقــولى بالتقــصير يبــسط لى عــذرا

* * *

الفصل التاسع

فى الروض والأزهار

جد بى الوجد فى إبان الربيع إلى رؤية فضل الغيث بمنازل الربيع، فسرت أحدق فى جوانب الحدائق، وصحبتى من الشوق وسائق، يتلوهن حاد وسائق، فإذا أنا بروضة أريضة عيون أزهارها، مريضة قد فاح أرجها، وأضاءت سرجها، وبرز إبريزها، وحسن تطريزها، وأبدت من زينتها ما هو باللطف منعوت، ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت، وتحلت بما يروق إنسان كل إنسان، وتجلت فى رفرف خضر وعبقرى حسان، أعلن السحاب أسرارها، وهتك النسيم أستارها:

كأن تفتحها بالضحى　　　عذارى تحلل أزرارها

حكت الخنساء لا فى الحزن، بل فى الحسن والفخر، ولها عيون تجرى على الديباج لا على صخر، يضوع عرفها فى الآفاق ولا يضيع، ويبهر الطرف من صنع صنائعها كل زهر رفيع، تنهار جداولها وأنهارها، ويضحك فى وجه من أم بها، وأملها ثغر نوارها:

وما غربت نجوم الليل لكن　　　نقلن من السماء إلى الرياض

فمن ورد أحمر الإهاب عندمى الخضاب:

كالشمس شكلاً ونشر المسك رائحة　　　واللؤلؤ الرطب فى تفريجه عرق

ملك جليل مخصوص بالتجليل، رفيع الجناب، خفيف الركاب، الرياحين جنده، والشوك سنانه وسلاحه، والعقيان والمرجان قلبه وجناحه:

مداهن من يواقيت مركبة　　　على الزبرجد فى أجوافها ذهب

ومنه الأبيض المذهب المفضض:

كأن وجوهه لما توافت　　　بدور فى مطالعها سعود

بياض فى جوانبه احمرار　　　كما احمرت من الخجل الخدود

ومن نرجس باسم عرفه ناسم:

كأنما صفرته　　　على بياض يقق

أعشار جزء ذهبت　　　من ورق فى ورق

له عيون هدبها من لجين، وحدقها من خالص العين، قامت من الزبرجد على ساق، فهامت بها قلوب العشاق:

وأحسن ما في الوجوه العيون   وأشبه شيء بها النرجس

ومن ياسمين يجلو البصر، كأنه أقراط من الدرر يحفظ الزمام، ولا يمل من طول المقام، ثغوره ضاحكة، وحسنه آمن من المشاركة:

والطرق الحمر في جوانبه   كخد عذراء مسه عض

ومن نسرين جوهر عقده ثمين درر على زبرجد، أو حقاق ورق فيها برادة عسجد:

ما إن رأينا قط من قبله   زمرداً يثمر بلورا

ومن خلاف ليس في طيب عرفه خلاف حكى القدود باهتزازه، ويصل وعده بإنجازه، كأنه ثمل من الراح وهو يومىء برأسه نحوه، وكأن غصونه أحست برحلة الشتاء فقبلت فروها:

والبان تحسبه سنانيراً رأت   بعض الكلاب فنفشت أذنابها

ومن بنفسج حسن لباسه وطابت أنفاسه:

كأنه وضعاف القضب تحمله   أوائل النار في أطراف كبريت

أو فصوص فيروزج نضيده، أو آثار قرص بخد خريدة، أو حروف لازوردية، أو بقايا نقش في راحة ندية، أو أعين زرق كحلن بإثمد، ومن زعفران معطر الجيب والأردان:

كأنه ألسن الحيات قد شدخت   رءوسها فاكتست من حمرة العلق

أو بصيص رماد أو ألفات كتبت بالذهب لا بالمداد:

يتفرى عن قانيات حسان   مثل هدب معصفر من رداء

ومن لينوفر يألف المياه طمعاً في دوام الحياه صفره السقام وعذبه وغربه الأمل وغربه:

كأنه ودروع الماء تشمله   تحت الشعاع أكاليل الطواويس

أو طرف باهت من الفراق يفرق، أو سابح ضعيف يعوم ويغرق، يخفى بالليل ويظهر بالنهار، ويتكلم في الماء بألسنة من النار:

يحب الشمس لا يبغي سواها   ويلحظها بمقلة مستهام

إذا غابـــت تكـــنفها اشـــتياقا   فـنام لكـى يـراها فـى المـنام

ومن آس ما لجرح محبه آس، يرعى العهود ولا يميل إلى الصدور، كأنه بقية خضاب فى كف رداح، أو نصال سهام أعدت للكفاح:

حكـى لـونه أصـداغ ريـم معـذر   وصــورته آذان خــيل نوافــر

ومن ريحان يقول: إن وقت الرى حان، كأنه وشم يد مطرفة، أو حلة مخضرة مفوفة، أو أطواق الحمام، أو سلاسل سوالف الغلام:

لـه حـسن العـوارض حـين تـبدو   وفــيه لــين أعطــاف القــوام

ومن منثور منظوم جوهره منثور، أعطافه مؤتلفة، وألوانه مختلفة، أبيضه وأحمره كثغر الحبيب وخده، وأصفره كوجه من منى بإعراضه، وصده يبخل بشذاه نهاراً، ويجود به ليلاً، وإلام يتستر وهو متهتك فى حب ليلى:

كأنــه عاشــق يطــوى صــبابته   صـبحا وينـشرها فـى ظلمة الغسق

ومن سوسن تعالى الله ما أحسن، قائم على سوقه ينتظر إياب معشوقه منه أزرق بهى الملبوس وأبيض تميل إلى ضوء صبحه النفوس:

كأنـــه ملاعـــق مـــن ورق   قـد خـط فـيها نقـط مـن عنـبر

ومن خزامى قدره لا يسامى يسكن المنازل العلية ويرفل فى حلته اللازوردية، يا لها حلة فاخرة وحلية باهية باهرة:

لـو حـواها الطـاووس أصـبح لا   شـك مهـنا بملـك طـير الهـواء

ومن أقحوان جمع فى مفرده القمران:

كشمـسة مـن لجـين فـى زبـرجدة   قـد أشـرقت حـول مـسمار مـن

ومن آذريون أظهر القطر سره المكنون:

كـأن أغـصانه فـيروزج بهـج   مـن فـوقه ذهـب فـى وسـطه سبج

أو مسك فى جام من ذهب، أو فحم أحاط به اللهب:

تـراه عـيونا بالـنهار نواظـراً   وعـند غروب الشمس أزرار ديباج

ومن بهار يبهر بحسنه الأبصار:

كسواعد من سندس واكفها   من فضة حملت كؤوس عقار

ومن شقيق أين منه المرجان والعقيق:

كأنه وجنات أربع جمعت   وكل واحدة فى صحنها خال

ومن إشارة فتى بالعجز عن الحصر قمن، فلما تأملت محاسن هذه الروض الأنيقة، ونظرت إلى ما فيها من النبات بعين الحقيقة، شكرت أيادى صانعها، ولجأت إليه، وأثنيت على صائغها، وإن كنت لا أحصى ثناء عليه، وقلت تعظيمًا لأمره: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، وانشرح صدرى بالوقوف على مغانيها، وجاد فكرى حيث جال فى معانيها، وامتلأ قلبى من نورها نوراً، وانقلبت إلى أهلى مسروراً.

❊ ❊ ❊

الفصل العاشر

فى وصف الغلام

بينما أنا جالس فى بعض الحدائق، وحولى رفقة هذبتهم الحقائق، وحسنت منهم الأخلاق بين الخلائق، مر بنا غلام يخجل بدر التمام من بنى الأتراك الناصبين مصائد الأشراك، بديع الجمال أين منه الغزالة والغزال، لطيف الشمائل يختال بين الخمائل، تمتد لرؤيته من الزهور الأعناق، وتستتر الغصون حياء منه بالأوراق، وهو ممتط صهوة جواد أشهب لا يبلغ البليغ حصر وصفه ولو أسهب:

ساحر الطرف وافر الظرف أحوى　　　خده الأبيض اللجين مذهب

لا تلمنى على اعتقادى هواه　　　مذهب الوجد فيه أحسن مذهب

فلما حاذى مثوانا حيانا فأحيانا، فتلقيناه بالترحاب، ودعوناه فأجاب، فحصلنا من حضوره على المقصود، وتحققنا أن يومنا بمشاهدته مشهود، فأطلت فى محاسنه نظرى، وأجلت فى ذاته وصفاته فكرى، فإذا له ذؤابة تذيب المهج، وتدرج فى حبائلها من دب ودرج، ظلها وارف وظلامها عاكف، تسلب العقول بالأثيث الأثيل، وتسهر العيون فى ليلها الطويل، حندسية العذب، غزيرة الفضل والأدب:

إذا ما تثنى للسلام مليكها　　　على أحد دارت وقبلت الأرضا

ووجه وسيم تعرف فيه نضرة النعيم يفوق سنا القمر، له خفير من الخفر، رقيق البشرة، تحار عند إسفاره السفرة، نزهة المشتاق، ومرآة لوجوه العشاق:

محيا به المقتول يحيا وكم له　　　على وجنة العانى من الدمع جعفر

وجبين منقطع القرين، واضح كالصباح، صلت تصلت دونه بيض الصفاح:

وتعجب لطرة وجبين　　　إن فى الليل والنهار عجائب

وحواجب دم عاشقها مباح، وقتله واجب كأنها قسى موتورة، أو نونان فى صحف اللجين مسطورة:

قد وليت إمرة أمثالها　　　وحاجب الشمس لها حاجب

وعيون يا لها من عيون قد جمعت بين المنى والمنون، تقتل وهى لاهية، وتسكر وهى

صاحية، وتصول وهى كانسة، وتسهر وهى ناعسة، نفاثات فى العقد، لا يسلم من سحرها أحد:

لحظاتها كم أرهفت من أبيض   والجفن منها مثل حظى أسود

وصدغ معقرب لكنه لرقية السليم باب مجرب، بعيد من القطف كأنه واو العطف، أو جيم محكمة العوج، أو منجل صيغ من سبج:

صدغ أعاديه أبدوا   من عيبه ما حلا لى

ذم العناقيد جهلاً   من لم يصل للدوالى

ووجنات حركت من الخواطر السكنات تغير الجلنار والتفاح، وتؤلف بين الماء والراح، بها ورد ريحه للأرواح بلغة ﴿ صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]:

ترى هل من طريق لاجتماع   بحمرة ذلك الخد النقى

وخال خال من العيب لا شك فى حسنه ولا ريب، كأنه قيراط من عنبر أو نقطة شقيق أحمر:

ورثته حبة القلب القتيل به   وكان عهدى أن الخال لا يرث

وعذار طاب فيه خلع العذار، أنيق يجل عن التشبيه سائل كدمع محبيه، كأنه خمل ديباج، أو نمل دب فى عاج، أو بنفسج، أو سوسان، أو حاشية كتبت بقلم الريحان:

إن نفسى تميل نحو اخضرار   فيه والنفس مثل ما قيل خضرا

ومرشف فائق فيه ريق رائق، وثغر ما له من مثال، وألفاظ سحرها حلال، ونكهة نشرها معطر، وماء لسان أحلى من السكر:

يبسم عن در وعن جوهر   وعن أقاح أو سنا البرق

وجيد جداية فيه لمنهاج المحبة أى هداية أحسن به من تليل، نحر نحره طويل:

لو جاد لى يوما بتعنيقه   قلدت ذاك الإثم فى عنقى

وكف ندية، أرواحها ندية، رعبوبة بضة سبائك أناملها من فضة:

يا حبذا من مالك الحسن يد   لها على أهل الهوى أيادى

وقد قويم ألطف من النسيم، مائل مائد، صائل صائد، تهيج عليه البلابل، وتطير إليه

القلوب، ولو كانت مقيدة بالسلاسل، إن حضر بان البان، وغار من غيرته فى الكثبان:

أبى قصر الأغصان ثم رأى القنا   طوالاً فأضحى بين ذاك قواما

وخصر رقيق الحاشية، معاقد بنده متلاشية، نحيف نحيل، صحيح عليل:

يستر وجدان القبا معدومه   ما أحسن المعدوم فى الموجود

وردف مائج، نافر خارج، كثيب كثيف، كم له من أسير أسيف، تصعب على الصب نبأته، وتثقل على الخصر وطأته:

يا ردفه ها خصره   من فرط جورك مائج

أنحلته بثقالة   ما أنت إلا خارج

وسوق تسوق المحبين إلى العطب، ويضرم ماؤها الجامد فى القلوب ناراً ذات لهب:

إن فرج العين فى بستان طلعته   مشى ففرجها فى جانب السوق

وأقدام مقدمة على أمثالها مقبولة، عند إدبارها وإقبالها حسنها لا يضاهى ولا يشارك، وكعبها على الحقيقة كعب مبارك:

كل يذل له حتى ذوائبه   أما تراها ترامت تلثم القدما

وعليه من الحلل الفاخرة، والملابس الملونة الباهرة، ما يخجل من حمرته وجه الشفق، ويحسد النهار بياضه اليقق، وتخضع لأسوده الظلماء، وتغار من أزرقه السماء، وتعنو الرياض لأخضره، وتغيب الشمس حياء من أصفره:

حمالة الحلى والديباج قامته   تبت غصون الربا حمالة الحطب

وبخصره منطقة لم تبرح له معتنقة تعوقها العوائق، وتثقلها - كما يقال - العلائق، فمن سيف ماض كناظره، وسهم نافذ كأوامره، وقوس كحاجبه، ومدى لتقصير مدى عائبه، وهى تجول فى أضيق مجال، وتنشد بلسان الحال:

بروحى أفدى من ضربت من أجله   وقاسيت حر النار وهى تفور

رشا ضاع ما بين الغلائل خصره   ألم ترنى شوقا عليه أدور

فخاطبناه فى وضع السلاح فوضعه، وسألناه فى رفع الحجاب فرفعه، وأخذ ينادمنا بأفصح لسان، ويجلو لنا عقائل أخلاقه الحسان، وينثر علينا من جواهر لفظه النظيم، ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، والزهور تضحك فى الأكمام، والغصون ترقص

علـى غـناء الحمـام، والنهر يصفق لتشبيب الريح فى آفاقه، والدوح ينقطه بالدنانير من أوراقـه، والعـيون تجـرى بـين أيديـنا، والنسيم بطيب أنفاسه يحيينا، والروض يفرش لنا بـساط سندسـه، ويجلـسنا حتى على أحداق نرجسه، يا له منظراً ما أنضره، وسروراً ما أوفـاه وأوفـره، ويـوماً مـا كـان أطيـبه وأقصره، ملكنا فيه زمام التهانى، وحصلنا على الأمـان والأمانـى، ولم نـزل نتمـتع مـنه بكـل مطلوب إلى أن آذنت الشمس بالغروب، فـتأهب الغـلام لمعـاده، وعـلا علـى ظهـر جـواده، ثـم ودعـنا وسار، وأودعنا الشوق والادكار، وتركنا نتقلب على تلهب النار.

* * *

الفصل الحادي عشر

في وصف الجارية

تاقت نفسي إلى زيارة بعض الأخدان، فسرت إليه مشمر أفضل الأردان، فى ليلة سما قدرها، وتجلى على السماء بدرها، فلما وصلت إليه وانتظمت فى سلك المجتمعين لديه، ظهر لى أنه متشوف إلى قادم، ومتشوق إلى حضور منادم، فكشفت الخبر، وتقصصت الأثر، فقيل لى: إنه واعد بعض الحسان، وهو منتظر إياب الإحسان، فما أتممت الكلام، واتصلت من العلم إلى المرام، إلا وقد أقبلت من الباب خود تختلس الألباب، غادة رؤد، طفلة أملود، كاعب رداح ترتاح لها الأرواح، عديمة المثال، نشأت فى حجر الدلال، يسرح الطرف فى روض جمالها ويتنزه، وتمحو بكثير محاسنها البديعة ذكر عزه، فى حليها وحللها تميد وتميل، وبالجملة فهى بثينة الحسن؛ لأن وجهها جميل، فوقفت واستأنست، ثم سلمت وجلست، فسر الجماعة بورودها، وتملوا من جنة وجنتيها بورودها، وأقبل يمن إقبالهم، وأنشد لسان حالهم:

أهلاً وسهلاً من غادة سمحت ... بالوصل ليلاً ولم تحذر من الحرس

لما تبدت أضا الداجى ولا عجب ... فطرة الصبح تمحو آية الغلس

فلما كشفت القناع، وصدق النظر السماع، تأملت أوصافها، وسبرت شمائلها وأعطافها، فرأيت ما يشرف النظر، ويشنف السمع، ويذيب القلوب على ناره ذوب الشمع، فمن فرع نامى الأوراق، مرسل لتعذيب العشاق، جثل أسحم يلتوى كالأرقم، غدائره مجمدة كالغدير، وضفائره مظفرة بقتل الأسير:

فكأنها فيه نهار ساطع ... وكأنه ليل عليها مظلم

ووجه مشرق الأنوار، تحج إلى كعبته الأبصار، يزين اللآلىء والدرر، ويستمد من ضوئه الشمس والقمر، مرآته صقيلة، ومعانى حسنه جميلة، يترقرق فيه ماء الصبا، ويخفى من لمعه بروق الظبا:

عوذت بالسور المنيرة وجهها ... وهو الجدير بأن يكون معوذا

وجبين واضح، تحن إليه الجوارح، يتلألأ مصباحه، ويتبلج فى ليل الطرة صباحه:

فتاة يسر القلب والطرف حسنها كأن الثريا علقت في جبينها

وحواجب تذيب المهج وتجذب الأرواح من قسيها بقبضة البلج، كأنها هلال محنى القوام، أو فخ نصب لصيد أهل الغرام:

إذا شمت تحت الحاجبين جفونها ترى السحر منها قاب قوسين أو

وعيون بابلية، كم أوقعت لمن إليها صبا بلية، تسل السيوف، وترسل الحتوف، صحاح مراض، ليس لسهامها سوى القلوب أغراض:

لله أى لواحظ غلابة للأسد في وثباتها وثباتها

وخد كالجلنار قد جمع بين الماء والنار، يشف الراح فى زجاجه، ويهتدى الحائر بنور سراجه، يزهو بورده الأحمر الطرى، وأظنه من دم المحبين غير برى:

تركية للقان ينسب خدها واشقوتى منها بخد فاني

وخال يختال في أحلى الحلل، له من الأقراط والشنوف خول، كأنه من الدائرة قطبها، ومن القلوب المتقلبة على نار حبها:

فتنت بخال فوق خدك صانه أبوك فويلى من أبيك وخالك

ومرشف عذب الأرياق، رضابه لسليم الهوى نعم الدرياق، فيه ماء مبرد، وثغر جوهرى صحاحه منضد، ولعس يهيم به ذو الشوق، وشهد يشهد بحلاوته الذوق:

وبه شراب مسكر ما ذقته لكنني أروى عن المسواك

وعنق كعنق ريم در عقوده نظيم، يطوف الحلى بأركانه، ويملك الرق بورقه وعقيانه:

وجيد جداية لا عيب فيه سوى منع المحب من العناق

ونهود كالعاج ملتحفة بمروط الديباج، رفيعة المنار، شغلت الحلى أن يعار، إن ثنيتها لم تجد عندها عطفًا لمرتاح، وإن لثمتها نشقت من الرمان عرف التفاح:

كحقين من لب كافورة برأسيهما نقطتا عنبر

وبنان رطيب، على مثله يدور الخطيب، مقبل بالأفواه، مصافح بالجباه، فضى الإهاب، مرقوم بالخضاب:

فما أعذب السكب من أدمعى وأحلى المشبك من نقشها

وقوام يقيم الحروب ويثير كر الكروب، كامل الحسن مهفهف، وافر الدل مثقف،

الرماح تخضع لديه، والأغصان تسجد بين يديه:

وقد روت عن لينه واعتداله   صحاح العوالى مسنداً بعد مسند

وخصر نحيل يشكو من ردفها الثقيل، ليس فيه حظ للمجتنى، لو سألتها عنه لقالت: فنى:

عيون الناظرين به أحاطت   فلم تحتج إلى عقد الوشاح

وأرداف كالأحقاف وعدها موسوم بالإخلاف، خارجة عن العادة، لكن فيها للمحبين الحسنى وزيادة:

تمشى بأرداف أبين قعودها   بين النساء كما أبين قيامها

وسوق جمد ماؤها، وبهر الأعين ضياؤها، مشرفة النور، قصبها من بلور:

لو لم يكن من برد ساقها   لاحترقت من نار خلخالها

وأقدام لها على الفتك إقدام، تمشى كالقطا ولا تخطىء قياس الخطا:

كأن مشيتها من بيت جارتها   مر السحابة لا ريث ولا عجل

وعليها من الحلى والحلل ما يفتن العقول، ويدهش المقل، فمن در ثمين كثغرها، وبلور صاف كصدرها، وعقيق كشفتيها، وياقوت كوجنتيها، وسبج كأجفانها، وزمرد كنقش بنانها، وقميص رقيق الحواشى، ومطرف يحار فى وصفه الناشى:

إلى مثلها يرنو الحليم صبابةً   إذا ما اسبكرت بين درع ومجول

فلما أنست بالقوم كفت عنها لسان اللوم، وظهرت عن خلق وسيم، وطباع ألطف من النسيم، ومنادمة تطرب الأسماع، ومداعبة ما الصبر عنها بمستطاع، وملح ألذ من الزلال، وحديث لو لم يجن قتل المحب لقيل هو السحر الحلال:

وحديثها السحر الحلال لو أنه   لم يجن قتل المسلم المتحرز

والسعد يطلع نجمه، والشمع واقف فى الخدمة، وعرف الطيب يفوح، وأعلام الهناء تلوح، وشمل الضد مفرق، والعود يحرك ويحرق، يا لها ليلة محى ظلامها، ونور الأفق ابتسامها، وحليت عروسها، وطلعت حارقةً للعادة شموسها، لم ير فيها ما يشين ويعيب سوى أنها أقصر من جلسة الخطيب، ولم نزل فى بشر وافر، وسرور متواتر، نجتلى وجوه

الأفراح المتتابعة، ونجتنى من الوصل ثماره اليانعة، إلى أن صاح العترفان، ولاح فى المشرق ذنب السرحان، فعزمت الجارية على الذهاب، وأمرت بإحضار الإزار والنقاب، فقمنا إلى موقف الوداع، وتشتت الشمل بعد الاجتماع:

وكان الدمع لى ذخرًا معدًا ... فأنفقت الذخيرة حين ساروا

* * *

الفصل الثانى عشر

فى الشمعة والنار

جلست مع بعض الأصحاب، فى ليلة حالكة الجلباب، ماؤها جامد، وهواؤها بارد، وطلها متناثر، والماشى بها فى ذيله عاثر، نجرى ذكر أهل البراعة، ونعد مناقب فرسان أهل البراعة، ونورد أخبار أرباب اللسن، ونروى عنهم كل حديث حسن:

قوم بهم شرف الزمان كلامهم   شرك النفوس وعقلة الأحداق
أشخاص صرفت ولكن ذكرهم   أبداً على مر الليالى باقى

فبينا نحن نجول فى ميدان المحاضرة، ونحقق النظر فى وجوهها الناضرة، والليل قد روق، وشراب المنادمة مروق، لحت فى المجلس شمعة وقفت فى الخدمة، وأجرت الدمعة، جسمها نحيل، ومحياها جميل، قامتها قويمة، ودرة تاجها يتيمة، تحرقها أنفاسها، ويوبقها نبراسها، كاسية عارية، تخجل بضوئها الجارية:

مفتولة مجدولة   تحكى لنا قد الأسل
كأنها عمر الفتى   والنار فيها كالأجل

أو نبل نصله ذهب، أو حية لسانها لهب، أو وردة على قضيب، أو محب أسهره بعد الحبيب، أو لينوفرة، أو سبيكة معصفرة، أو غرة فى وجه أدهم السدف، أو كوكب أرخى ذؤابته ثم وقف:

أو ضرة خلقت للشمس حاسدة   فكلما حجبت قامت تحاكيها

يخوض فى لجة الدمع طرفها القريح، وتلعب بلهب قلبها الجريح يد الريح، فتطلعه نجمًا، وترسله سهمًا، وتحركه لسانًا، وتنشره طيلسانًا، وتضربه ديناراً، وتصيره جلناراً، وتصوره سوسنًا، وتصوغه إكليلاً تبره ذو سنًا، وتعطفه كالهلال السافر، وتنصبه أذن جواد نافر، وترفعه كالسنان، وتقيمه أنملة فى بنان، وتبسطه كالمنديل، وتميله سلسلة قنديل، وتخطه ألفًا مستقيمًا، وترسمه نونًا أو جيمًا، واستمرت مولعة بشخصها، ساعيةً فى نقضها ونقصها، حتى فنى عمرها، وانفصل أمرها، وانحل عقدها، وعز على الجماعة فقدها:

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا   وأعيا دواء الموت كل طبيب

وكان فى المجلس كانون يلقى فيه العود بغير قانون، يضم ناراً ذات لهب، له شرر شذره من ذهب، همتها علية، ومرآتها جلية، تعلو على الرماح فى المواكب، وتزاحم الكواكب بالمناكب، فاكهتها فى الشتاء محبوبة، وأعلامها للاصطلاء منصوبة، وهى بقضب الأبنوس لا بجزل الغضا مشبوبة:

كلما رفرف النسيم عليها   رقصت فى غلالة حمراء

كأنها سبج على مرجان، أو زنجية بكفها كرة عقيان، أو شمس محجوبة بالغمام، أو ورد تبسم من خلال الكمام:

أو أشقر مطهم   يموج تحت العثير
أو غادة قد ضمخت   وجنتها بالعنبر

يهتم بها أقوام هم واسطة عقد الأنام، كريمة أحسابهم، مفتوحة للوفود أبوابهم، يمتطون ذروة كل محبوك القرا، ويبسطون موائد الفوائد والقرى:

إذا ضل عنهم ضيفهم رفعوا له   من النار فى الظلماء ألوية حمرا

فلم تزل تضطرم وتستعر وتحتدم، إلى أن خمد لظى جمرها، وغاض ماء شررها وشرها، واضطجعت فى مهادها، تحكى تحت غطاء رمادها:

دمًا جرى من فواخت ذبحت   عليه من ريشهن منشور

فراقنى ما شاهدت من حالهما، وأمعنت النظر فى منقلبهما ومآلهما، وقمت من شكر المنعم بأداء الفرض، وقلت بلسان التعظيم: ﴿ للَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، ثم إن الصحب مالوا إلى الكرى، وطال عليهم - مع كونهم جلوسًا - شقة السرى، فوثبنا لاقتفاء أثر ما تقر به عين الهاجع، وسألنا الحى القيوم أن يجعلنا من الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

* * *

الفصل الثالث عشر
فى مدح العشق وذمه

سألنى بعض المائلين إلى الهوى، المصابين بسهام الصبابة والجوى، الساهرين فى الليل الطويل الذوائب، الذين صرفوا على المحبة حبات قلوبهم الذوائب، عن مراتب العشق وضروبه، وقبائل الحب وشعوبه، وهزله وجده، وجزره ومده، وشواهد شهده وسمه، وما قيل فى مدحه وذمه، فأجبته إلى سؤاله، وجمعت بينه وبين آماله:

يقولون لى صفها فأنت بوصفها   خبير أجل عندى بأوصافها علم

يا هذا إن أول العشق استحسان من يلائم الطبع من الجوارى والغلمان، تحدث منه إرادة القرب والمودة، ثم يقوى الود فيكون حبًا لا يمكن القلب رده، فإذا استحكمت المحبة فى القلوب عادت هوى يهوى بصاحبه فى اختيار المحبوب، ثم يصير عشقًا ثم تتيمًا، ثم يرجع ولهًا على العقول مخيمًا، وهو طمع فى القلوب يتولد، يعظم بالحرص على الطلب ويتأكد، يخفى عن الأبصار، ويهيج باللجاج والتذكار، كامن كالنار فى الحجر، والزهر فى الشجر، إن قدحته أورى، وإن سقيته أخرج نورًا:

العشق أول ما يكون مجانة   فإذا تحكم صار شغلاً شاغلا

فأما أوصافه الممدوحة، فإنه جليس ممتع بمشاهدته، وأليف مؤنس بمنادمته، مسالكه لطيفة، وممالكه شريفة، برق لامع، ونور ساطع، تستضىء به نواظر العقول، ويفعل فى الشمائل ما لا تفعله الشمول، ويتصل بجواهر النفوس فيزيل عنها لبوس البوس، فرح يجول فى الروح، وارتياح يغدو فى القلب ويروح، وسانح ينشر من البشر ما انطوى، وسرور ينساب فى أجزاء القوى:

إذا أنت لم تطرب ولم تدر ما الهوى   فكن حجرًا من يابس الصخر جلمدا

يطلق اللسان، ويشجع الجبان، ويصفى الأذهان، يولد الأخلاق الجميلة، ويرغب فى اكتساب الفضيلة، ويفتح للبليد باب الحيلة، ويرفع لواء الهمم، ويبعث على الحزم والكرم، يلطف الطباع، ويشنف الأسماع، ويدعو إلى تحسين اللباس، ويستعمل بالرياضة أهل الشماس، لا يقع فيه إلا من قليب قلبه صافى، ولا يسلم منه إلا كل جلف جافى:

فإن شئت أن تحيى سعيدًا فمت   شهيدًا وإلا فالغرام له أهل

وأما أوصافه المذمومة، فإنه ملك قاهر، وحاكم جائر، هزله جد، وراحته تعب، وأوله لعب، وآخره عطب، يعترى النفوس العاطلة، والقلوب الفارغة، ويكسف من الآراء شموسها البازغة، ويسوق إلى وليه غمام الغم، ويهيم فى وادي الهم، يذهب العقل، ويمرض الجسد، ويقوى الفكر، ويضعف الجلد، ترتعد منه الفرائص، وتتقد به نار النقائص، يستعبد الأحرار، ويستأثر ذوى الأقدار، ويصفر الأبدان، ويوقع فى الذل والهوان:

وكنت أظن الهوى هينًا   فلاقيت منه عذابًا مهينا

يورث الأسف والحرق، ويجلب الوسواس والأرق، ويجدد ملابس الوجد والألم، ويمنع عن الاشتغال بالعلوم والحكم، يحالف أرباب الشبهات، ويستخدمهم فى تدبير الشهوات، ويعطل عن المصالح، ويجرح بمديته الجوارح، من جنده الغرام والكلف، ومن رفده الهيام والشغف، يعوق الطالب عن الاستفادة، ويشغل الإنسان عما خلق له من العبادة، جان يفضى إلى الجنون، ويدنى أهل المنى من المنون:

وما عجب موت المحبين فى الهوى   ولكن بقاء العاشقين عجيب

واعلم وقاك الله شر الشرر، أن أقوى أسباب العشق النظر، رياحه تنشىء سحائب الفكر، ومرآته تجلو على القلب محاسن الصور، فاتق النظرة فإنها تزرع حب حب ينبت سنبل الحسرة، كم سلب النظر قلب عابد، وفتن عقل ناسك، وحل عقد زاهد، وأجرى آفة وقرن ذلاً بمخافة، وأثار غبار معركة، وألقى شهمًا إلى التهلكة، وأقام حربًا على ساق، وسفك الدماء وأراق، وأوقع فى مصائد المصائب، وهشم العظام بأنياب النوائب:

فمن كان يؤتى من عدو وحاسد   فإنى من عينى أتيت ومن قلبى

فاسلك سبيل السلامة لتصل إلى دار الكرامة، واقطع أسباب المطامع، واشتغل عن المصنوع بالصانع، فأما من آثر اللذات فقد تورط فى حبائل البلوى، وانتهى من حرم الحرمان إلى الغاية القصوى، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع عشر

فى الفراق

الفـراق - جمع الله الشمل بمحياك، ورعى ودك على بعد المزار وحياك - قد اجترى واجـترح، وأذهـب المسرة والفرح، وضيق رحب الفضا، وقلب القلب على جمر الغضا، وأورث الكمـد، وأذاب جليد الجلـد، وجـاب وجـال، ونثـر عقود الاحتمال، وأوجد الوجد والهيام، وأحوج الصب إلى العبث بالأقلام:

كتبت وعـندى مـن فـراقك لـوعة   تـزيد بكائـى أو تقـل هجوعـى
فلـو أبـصرت عيـناك حـالى كاتـبًا   إذًا كـنت ترثى فى الهوى لخضوعى
أخـط وداعـى الـشوق يملى وكلما   تعـديت سـطرًا رملـته دموعـى

يـا لها لوعة أسعرت وقد الضلوع، ومالت إلى الصبر فأزوت منه الأصول والفروع، وصبابة صبت النفس إليها، ووقفت لامتثال الأمر طائعة بين يديها، وغرامًا يلازم غريم الفـؤاد، ويتكلم من الدموع بألسنة حداد، وشوقًا إلى تلك الليالى المستنيرة، والأيام التى يطول الشرح فى وصف محاسنها وإن كانت قصيرة:

لـئن تعوضـت عنـى غـير مكـترث   والدهـر يقـضى لنا من وصلك الغرضا
حيث اللقـا والـنوى حـل ومـرتحل   فعـنك مـا دمـت حـيًا لم أجد عوضا

إلى الله أشكو جور أحباب لا شك فى ظلم ظلمهم ولا ارتياب:

سـاروا وسر الوجد قلبى أودعوا   يـا ليـتهم يـوم الـنوى لـو ودعوا

أفديهم غائبين أطالوا شقة البين، ونازحين سكنوا القلب حين غابوا عن العين:

رحلـوا عـن الأوطان لكن فى الحشا   نـزلوا ومـا راعـوا ولكـن روعـوا

كيف العمل عز الاحتيال، هل من طريق إلى منزلة الوصال:

يـا صـاح إن ظـباء جـيران الـنقا   جـاروا علـىَّ فدلنـى مـا أصـنع

أحسن بهم ظباء غير أوانس، كم أسهرت العشاق عيونهم النواعس:

نفـروا ومـا التفـتوا وعادة مثلهم   يتلفـــتون إذا نفـــارًا أوقعـــوا

أيها المغرم باللوم والتفنيد، لا تتعب نفسك فيما لا يجدى ولا يفيد:

قسمًا بهم ما لى غنى عنهم ولو   أمسيت كاسات الأسى اتجرع

كف كف العذل والتأنيب، فلست أحول عنهم ولو برانى النحيب:

وأنا المقيم على محبتهم وإن   حفظوا عهودى فى الهوى أو ضيعوا

نعم أقيم على الود والمحبة، وأرعى رب الخال ولو اشترى قلبه بحبه، وأحفظ زمام الذمام، وأصبر فى هاجرة الهجر على الأوام، وأتعلل بلعل وعسى، وأحتمل مشقة آسى جرح الأسى، وأتعلق بأذيال ضيف الطيف، وأتشبث بأن أوقات الفراق سحابة صيف:

وأطوف فى تلك الديار مسائلاً   عن أهلها أبكى على ما قد جرى

لله بعد البعد حمر مدامع   بنضارها المبذول قد أثرى الثرى

وقد علم الله أن يوم النوى أضعف بناء جسدى بالهوى، فهوى وأحال صبغة حالى، وسقانى كأس بعد مذاقها غير حالى، فعدت ذا سكر دائم وعناء تحل دونه عقد العزائم، القلب مأوى الهموم، والطرف موكل برعى النجوم، والكآبة فى الخاطر خاطرة، والعين إلى نحو الطريق ناظرة، وأسياف الضنى تجرح الجوارح، وسهام الجوى تجنح إلى الجوانح، لا أعرف لذة الوسن، ولا أمل من السير فى حزن الحزن، ولا أرد الماء النمير إلا ويلفحه من كبدى حر السعير، إن مر الفكر فى خلدى شرحت له صدرًا، وإن دعانى الذكر الجميل مرة لبيته عشرًا، ولولا رجاء العود والإياب، لانقصمت من قوى حياة العليل عرا الأسباب، فتبًا لأيام الصد والقطيعة، وسقيًا لأوقات كانت على رغم العدا مطيعة، حيث الأوطان عامرة، ووجوه الأوطار ناضرة، وأغصان العيش مائدة، وصلة الأحباب عائدة:

وسعاد تسعدنا بروضات الرضا   ويعمنا منها سنا وسناء

لهفى على ذاك الزمان وطيبه   فلفقده أنا والخلال سواء

أمبشرى برجوعه لك عن رضا   روحى وما ملكت يداى فداء

والله المسئول فى بلوغ الأمانى، وإباحة ممنوع التلاقى والتدانى، واجتماع المشوق بأهل وداده، ونصرة المظلوم على أعدائه وحساده، فإنه ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]، ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

* * *

الفصل الخامس عشر

فى الاستعطاف

أيها المعرض الهاجر الذى سعى لصده دمع صبه على المحاجر، رفقًا بمن ملك الوجد قياده، وعطفًا على من أذاب الشوق فؤاده، متيم أقلقه فرط صدودك، ومغرم أغراه بحبك قول حسودك، وسقيم لا شفاء له دون مزارك، ومقيم على عهدك ولو طالت مدة نفارك، إلام هذا التنائى والنفور، وعلام يا ذا القد العادل تجور، لقد تضاعف الأسف والأسى، وتطاول التعلل بعل وعسى، وفنى حاصل الصبر ولم يبق إلا المقابلة بالجبر:

هبنى تخطيت إلى زلة ... ولم أكن أذنبت فيما مضى
أليس لى من بعدها حرمة ... توجب لى منك جميل الرضى

نعم لى حرمة وذمام، وسابق خدمة توجب رفع الملال والملام، ولست ألوذ إلا بباب نعمك، ولا أعتمد فى محو الإساءة إلا على حلمك وكرمك، وما جل ذنب يضاف إلى صفحك، ولاعظم جرم يطرد غراب ليله باز صبحك، ومثلك من يسد الخلل، ويغفر الخطأ والخطل، ويقيل العثرات، ويتجاوز عن الهفوات، ويسمح بالعفو تفضلاً، ويزيل القبض عن بسط العذر متطولاً، فلا تخدش وجه رضاك بالغضب، ولا تجمع لمن أسره التفريق بين العتب والتعب، ورق على عبد رقك، وأره الدجا والضحى من فرعك وفرقك، وأذقه أرى وصالك كما جرعته شرى انفصالك:

وكنت أظن أن جبال رضوى ... تزول وأن ودك لا يزول
ولكن القلوب لها انقلاب ... وحالات ابن آدم تستحيل

طالما آنستنى بقربك، ودنوت منى مفارقًا ظباء سربك، واعتنيت بأمرى، وأخمدت برضاب ثغرك جمرى، وأنجزت وعودى، وأطلعت نجوم سعودى، وأطلت سرورى وابتهاجى، وأصلحت بشراب وصلك مزاجى، وجلوت طرفى بمحاسن طلعتك، وأرويت ظمأي بالعذب الفرات من شرعتك:

وكنت إذا ما جئت أدنيت مجلسى ... ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرة ... إلىّ بها فى سالف الدهر تنظر

قـيدت أملى عن سواك، وبهرت ناظرى بنظرة سناك، وضاقت بعدك علىَّ المسالك، وغـدت مطالبـى محفـوفة بالمهالـك، وكسرت جيش قرارى، وتركتنى لا أفرق بين ليلى ونهـارى، أجـول حول الديار، وأعوم فى بحر الأفكار، وأتمسك بعطف عطفك، وأتعلق بأذيال مكارمك ولطفك، أما علمت أن الكريم إذا قدر غفر، وإذا صدرت عن عبده زلة أسبل علـيها رداء العفـو وسـتر، وأن شـفيع المذنب إقراره، ورفض خطيئته عند مولاه استغفاره، ومن أبدل باعترافه الحجة فقد استوجب أن يسلك فى مساحته أوضح المحجة:

ومـن كـان ذا عذر لديك وحجة   فعـذرى إقرارى بأن ليس لى عذر

لهفـى على عيش بسلاف حديثك سلف، وأوقات حلت ثم خلت وأورثت التلف، وزمـان ولى مجانبًا، وحبيب ذهب مغاضبًا، وآهًا لأيام بطيب أنسك مضت، وبروق ليال لولا قربك ما أومضت:

مـا كـنت أعـرف فى الهوى كيف   رحلت وبالأسف المبرح عوضت
الـسبيل إلى إعـادة مثلها مقدارها   وهـى التـى بالبعد قلبى أمرضت

إلى كم أموه وأغالط، وأجاهد فى سبيل الصبر وأرابط، وأكلف اللسان مكابدة حمل الكتمان، وأسر من الصبابة ما أعلنه دمع الأجفان، أتكتم رائحة الطلا، وهل يخفى على ذوى الأبـصار ابن جلا، لقد برح الخفاء، وأطلت يا رقيق الحاشية شقة الجفاء، وأشمت الأعـادى، ومـددت ظـل الـتمادى، وزدت فـى الهجـر والـبعاد، وكلمت القلب بألسنة الـصعاد، فجـد بالتدانـى، واسمح بنيل الأمانى، وارحم والهًا أبدت ظلمة الفراق فرقه، وتـصدق علـى مدنـف سائل دمعه يقبل الصدقة، وألن قلبك القاسى، وعد عن التنائى والتناسـى، وارع الـود القـديم، وأبدل شقاء محبك بالنعيم، ولا تعدل عن منهاج المعدلة وسـلم، فقـد أخـذت حقها المسألة، واغمد سيف حيف صيرته مسلولاً، وأوف بالعهد ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤].

* * *

الفصل السادس عشر

في مجلس الشراب

كان لى صديق مغرى بشرب الرحيق، غزير الفضل والآداب، كثير اللهج بذكر مجالس الشراب، وكان يود حضورى عنده وأنا لا أبلغه مما يود قصده، فأتانى حينًا من الأحيان يدعونى إلى مجلس بعض الأعيان، وألزمنى بأن أحالفه مقيمًا على أن لا أخالفه، فأجبت إلى المحاضرة مشترطًا عدم المعاقرة، فقال: أجل أيها الأجل وسآتيك إذا هزم النهار واضمحل، فلما آنس قدوم الليل آب يسحب سحائب الذيل، وهو يقول:

يا من به ينفى الكمد ... ويثبت العيش الرغد
جد بالوفا قد آن أن ... ينجز حر ما وعد

فمضيت صحبته إلى دار جرى بها فلك السعد، ودار عالية الجناب رفيعة القباب، فاخترقنا أستارها، واجتلينا أقمارها، حتى انتهينا إلى مجلس فسيح، قدح الفائز بأقداحه غير منيح:

لا تسمع الآذان فى جنباته ... إلا ترنم ألسن العيدان
أو صوت تصفيق الجليس ونقره ... وبكاء راووق وضحك قنان

يشتمل على ندمان لا يسمح بمثلهم الزمان، حاشيتهم أرق من النسيم، ومزاج كاساتهم من تسنيم، إن نظموا أودعوا أصداف المسامع درًا، وإن نثروا نفثوا فى عقد العقول سحرًا:

تنازعوا درة الصهباء بينهم ... وأوجبوا الرضيع الكأس ما يجب
لا يحفظون على النشوان زلته ... ولا يريبك من أخلاقهم ريب

بينهم سقاة حسنت صفاتهم، وتكفلت بالإنصاف كفاتهم، كم فيهم ذو وجه جميل وده صحيح وجفنه عليل، سمهرى القوام، جوهرى الكلام، تنعطف الأغصان سجدًا لعطفه، ويسقى بطرفه أضعاف ما يسقى بكفه:

ساق غدا يحكيه من ... بان النقا وريقه
واظمئى وكالزلا ... ل خمره وريقه

بأيديهم أقداح تفتح أبواب الأفراح، مباسمها مفترة، وملاكها ملوك أكاسرة على الأسرة، النور ضمن إزارها، ومعدن الذهب فى قرارها، تعدل وهى جائرة، وتنشد وهى دائرة:

صل الراح بالراحات واقدح مسرة   بأقداحها واعكف على لذة الشرب
ولا تخش من ذنب فأوراق كرمها   أكف غدت تستغفر الله للذنب

وأباريق تسجد لربها، وتقبل الأرض لدى صبها، كم أصلحت فساد مزاج، وأوضحت منهاج ابتهاج، تحكى أوزاً معوجة الرقاب، أو ظباءً أشرفن من ذرى الهضاب:

وكأنما الإبريق عند ركوعه   والإثم يلثم ثغره المنعوتا
طير بمنقار له من لؤلؤ   لما أسف تناول الياقوتا

وأكواب معصفرة الأثواب، تغنى عن المصباح، وتهدى ريح التفاح، تبعث على الحماسة والسماحة، وتتعب سوق ساقيها القلب وهى فى راحة:

لله أكواب همومى حرمت   لما أباحت خمرها المسكوبا
نار ولم تحرق وإن أنكرت ما   أوردته يا صاح فالمس كوبا

وكؤوس تسر بحسنها النفوس، ثغورها باسمة، ومناهلها لمادة الأسى حاسمة، تحمد عند الصبوح والغبوق، وتشرح الصدور فى حالتى الغروب والشروق:

ولرب ساق محسن فى كفه   كأس برؤيتها نفى عنا العنا
وعلى ذراها ليس يبرح ناصبًا   شبك اللآلى كى يصيد لنا الهنا

وينطوى على قيان ينشدن البديع من سحر البيان، لهن أصوات توقظ أعين اللذات، يشنفن الأسماع، ويتقن أجناس الإيقاع:

قيان حكين البدر حسنا وبهجة   زمان الذي يحظى بهن وسيم
إذا هن القين الغناء بمجلس   فعبد عبد والغريض هشيم

وبه شمع يدهش الأبصار، ويحيى ما مات من ضوء النهار، دبيقى الملابس، عقيقى القلانس، وافر الأدب والهمة، لا يبرح واقفًا فى الخدمة:

من كل هيفاء تهوى الشمس رؤيتها   بكت وأنت فلاح الماء واللهب
تجلى على الشرب فى ثوب لها يقق   كحية من لجين رأسها ذهب

وفيه أنواع من الشراب، تلمع فى أوانيها كلمع السراب، فمن خرطوم تخفى بدر حبابها النجوم، وشمول تشمل القوم بالقبول، ومشعشعة منازل كواكبها مرتفعة، وعاتق تقدم عصرها، وخف على النديم أمرها، وخابية حانية قطوف كرومها دانية:

وطوس وقنديل عقار وقرقف   مدام وإسفنط سلاف وجريال
طلا وسباء والحميا وقهوة   كميت شموس خندريس وسلسال

إلى غير ذلك من روح وريحان، ومحاسن وإحسان، ومسموع ومشموم، ومشروب ومطعوم، وعود يحرق ويحرك، ومسك فى الصحاف يفتت ويفرك، وقريض ينشد، وعرف ضائع لا ينشد، وبم وزير وجنة وحرير، وزهور ومزاهر، وملح ونوادر، ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١]:

أيا نديمى لو شاهدت وقفتنا   فى مجلس اللهو حيث الخصم مغلوب
والدف والدن مضروب ومنكسر   والزق يذبح والراووق مصلوب

وبالجملة فإنى عاينت من التفضيل ما يغنى عن التفصيل، وكاد ثقيل الطرب يستخفنى لولا عناية الملك الجليل، ثم نظرت وإذا أمر القوم قد اضطرب، والعترفان يخبر عن ذنب السرحان بحسن المنقلب، فأشرت إلى صاحبى بالنقلة وعرفته أن الليل قد عزم على الرحلة، فقام يهتز من السكر اهتزاز الأفنان، وانصرفنا أنا أمشى كالرخ وهو يمشى كالفرزان، فلما صرنا إلى البيت خر صعقًا كالميت، فجلست معرضًا عن الكرى متفكرًا فيما قد جرى، لائمًا نفسى على اتباع الهوى، ذامًا لها على معاشرة من ضل وغوى، ثم إنى ملت إلى الاستغفار، وسألت العفو من العزيز الغفار، ولذت - كما قال الحريرى - بالمتاب، وآليت أن لا أحضر - ما دمت حيًا - مجالس الشراب.

* * *

الفصل السابع عشر

فى الشيب والخضاب

رأيت بعض مشايخ الأصحاب وهو يتعاطى ما يتعاطاه الشباب، فقلت: يا من وعظه الشيب جاءك النذير بلا ريب، فاصرف عين العيب واتق عالم الشهادة والغيب، نأت الغرابيب السود، ودنت البزاة واثبة كالأسود، وظهرت غرة القمر، وأومض البرق فى ليل الشعر، ورمى فاحم القود بضده، واشتعل المبيض فى مسوده، قدم رائد الهداية وزائد الغواية، وطليعة العفاف، وذريعة الإنصاف، ومظنة الوقار، ومشرق الأنوار، فخل الخلال الجانية عليك، وأحسن كما أحسن الله إليك:

إنما تحسن الرياض إذا ما   ضحكت فى خلالها الأزهار

من شاب عذاره لم تقبل أعذاره، من عزل شبابه ولى مصابه، من لمع ضوء فرعه تفرق شمل جمعه، من كبر ذوى عوده، وغابت سعوده، وأفل نجمه، ووهن عظمه، وضعف بعد القوة جسمه، وخمدت منه الأنفاس عند ظباء الكناس:

لو كان عمر الفتى حسابًا   كان له شيبه فذلك

يا من أدركه المشيب اترك الغزل والنسيب، وارجع إلى الله من قريب، ولذ بالمتاب، واعدل عن الخضاب، واخش نصول الفضول، ودع من يزور ثم يزول، لا تطمع بوصل الحسان، واكتب لهن تسريحًا بإحسان، واحذر منهن العدو الأزرق، واسبق إلى منعهن من قبل أن تسبق:

عذر الكواعب أنهن كواكب   لا يجتمعن مع الصباح إذا بدا

فنظر إلىَّ مليًا، وقال: لقد جئت شيئًا فريًا، يا هذا أنت ناصح أمين، أم ذابح بغير سكين، نكست الأعلام، وفتنت الأحلام، وفخمت الوعيد، وجلت فى ميدان التهديد، وآثرت نيران التلف، ودثرت ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥]، وأدنيت غمام الغم، ومدحت ما يستحق الذم:

ما رأينا المشيب إلا كثلج   أبيض بارد قليل المقام

واهًا له من زائر يظهر العدل وهو جائر، يأتى من الشهب على كل ضامر، ويخرب

من الأعمار كل عامر، ولا يرجى لسليبه عوض، ولا يقضى لصاحبه غرض، ناع ينغص لـذة الرفاق، وساع يطوف بجرم الفراق، معلول لا يعتنى بحفظ ميثاقه، ورسول معجزته الخوف من اجتماعه والفرق من فراقه:

لـه منظـر فـى العين أبيض ناصع ... ولكـنه فـى القلـب أسـود أسـفع

غـرة مـرة، ونـور لـيس معـه مـسرة، يبلـى الجديد، ويصيد الصنديد، ويعتدى على الـشباب، ويفرق بين الأصحاب، ويسود بياضه اللون، وهو عنوان فساد الكون، رفعت عند نصحك مقداره، ونفيت قاره وأثبت وقاره:

وأى وقـار لامـرىء عـرى الصبا ... ومـن خلفـه شـيب وقدامه شيب

ثـم إنـك رثـيت ومـا رثيت، ومـريض المشيب عن معالجة الخضاب نهيت، وأطلت التعنيف، وأكثرت الأراجيف، وسقت الشائب إلى رمسه، ومنعته من التصرف فى نفسه، وبسطت شقة الشقاق، أما سمعت قول الوراق:

للـضيف أن يقـرى ويعـرف حقه ... والـشيب ضـيفك فاقـره بخضاب

فقلت له: إلام يختفى الزامر ويتستر، وحتام يكتم الكتم شيئًا بعد ثلاث يظهر، وهل يرد التمويه ما مضى، أو يخمد ماء الصبغ جمر الغضى:

تـستر بالخـضاب وأى شـىء ... أدل علـى المـشيب مـن الخضاب

فقـال: قـد أطلـت المـلام، وأثخـنت القلب بكلام الكلام، ونشرت رداء الرد، وزاد سيف عذلك فى الحد:

لـمع المـشيب وبعـد عـندى صبوة ... يبلـى القمـيص وفيه عرف المندل

يـا هذا إنى لأعلم أن الخرق يتسع على الراقع، وأن التمادى فى التصابى سم ناقع، لكن الفطام صعب، وكل أحد لا يمكنه رأب الشعب، وترك منصب الإمارة شديد على النفس الأمارة، وهى إلى حضرة الخضرة تميل، وعلى الله قصد السبيل:

لعمـرك مـا خضبت بياض شيبى ... رجـاء أن يعـود لى الـشباب
ولكنـى خـشيت يـراد منـى ... عقـول ذوى المـشيب فـلا تصاب

وأنـا أسـتغفر الله مـن الـزلل، وأسـتعين به على سد الخلل، وأتوكل عليه إنه جواد كريم، وأتوب إليه إنه هو التواب الرحيم.

* * *

الفصل الثامن عشر

فى الخيل والإبل

وفد عليّ يومًا ذو ألوك، يدعونى إلى حضرة بعض الملوك، فلبيت مناديه، ويممت فى الحال ناديه، فرحب بى على عادته، وقرب مجلسى من وسادته، ثم قال لى: عرض لى أن أعرض العتاق، وأتبعها بالنجائب من النياق، فأحببت حضورك، وقصدت نزهتك وسرورك، فشكرت فيض فضله، ودعوت بتوفير خيله ورجله، فما استتم المقال إلا والنجائب تقاد بأيدى الرجال، فمن أشهب يقق إن طلب لحق، وإن طلب سبق، طرف يحار الطرف فى حسنه، ويرى الناظر شخصه فى مرآة متنه، بعيد المنار والمنال، طلعته الفجر وسرجه الهلال، لا يخطر معه الخطار، ولا تعلق الغبراء له بغبار، يهتدى فارسه من حافره بسنا السنابك، ويغتدى عند امتطاء صهوته من الذين ينظرون على الأرائك.

ومن أدهم غربيب لا يعلم أجنوب هو أم جنيب، يسبق السيل فى السير، معقود بناصيتها الخير، ينساب كالثعبان، وينعطف انعطاف السرحان، زاد على زاد الراكب، وزاحم النكباء بالمناكب، يسلب العقول بحسن دسيعه وتليله، ويخطف الأبصار برق غرته وتحجيله.

ومن أشقر خلوقى الجلباب ألبسه الأصيل حلة تفتن الألباب، الراح تحكيه فى لباسه، والرياح لا تقدم على مجاراته، لباسه متقلد بالذهب، متقلب فى اللهب، يشفق من مناظرته الشفق، ويسرق من لين شعره السرق، ينقص الزائد لديه ويفوت أعوج، ثم يعوج متهكمًا عليه.

ومن كميت طاب عرفه واسود ذنبه وعرفه، أسيل الخدين، بارز النهدين عندمى اللباس يجول بين الظباء والكناس، إن وثب ألحق العنان بالعنان، وإن وقف عاينت فى كل عضو منه وردة كالدهان، يجد السير فى حزن الفلاة وسهلها، ويرد الوديعة محمولة إلى أهلها.

ومن أصفر لونه فاقع، كم له فى الحلبة من طائر خلفه واقع، ينتمى إلى الحبشان، ويعبر بلونه الزعفران، الدجا على عرفه قابض، وماء القار على ذيله فائض، يتجلى فى

الـرياض الشمـسية، ويسبح فى الجداول الورسية، لا يمل من التقريب والإلهاب، ويأتى من عدوه بغرائب يشيب منها الغراب.

ومـن أخـضر حـسن وشيًا، وراق للعيون جريًا ومشيًا، زرزورى الإهاب يجمع بين الـشيب والـشباب، زبـرجدى الحافـر أين منه الغزال النافر، يظهر عجز مكتوم، وتخمد عنده جمرة اليحموم، يخجل بتفويفه الرياض، ويسابق أسهم راكبه إلى الأغراض.

ومـن أبلـق عظمـت فصوصه، واشتهر حسنه وشهر قميصه، طويل الحزام والذيل، وهامـته مـن الـصباح وشامته من الليل، يمرح فى جلالة جلاله، ويولع إذا غابت الخيل بمـسابقة خـياله، يـنحط الوجـيه عـن أوجـه، ويغرق الفياض فى موجه، يسبق النعامى والنعامة، وينظر بعينى زرقاء اليمامة:

جـرد بهـن لكـل عـين جـنة   فـإذا جـرين أتـين بالـنيران
يحكـين فـى البـيد الـنعام رشـاقة   ويـسرن فـى الأنهـار كالحيـتان

ثـم إن الملـك أمـر بـرد الجنائب، وأذن فى عرض النجائب، فأقبلت تتهادى صحبة سواسـها، وتتـبختر فـى مـصبغات أكـوارها وأحلاسـها، فمن جسرة لونها أحمر، وليل سـراها واضـح أقمـر، عنكـرة عـيطموس، تمـيل إليها الخواطر والنفوس، موارة اليدين بعيدة، وخد الرجلين أنحلها التسيار، وهذبتها الأسفار.

ومـن سـرداح لـونها أرمك، يكاد خيال السماك بها يمسك، مليئة بالذوح والإساد، تخـالط حمـرتها الـسواد، جمـيلة الـصفات، مـرقال حسنة الشمائل شملال، رحبة السقل والخطا لا يعرف لها عدول عن الطريق ولا خطا.

ومـن رقـوب لـونها أزرق تطفـو فـى بحر السراب كالزورق، ظهيرة دوسرة، منوفة بهـزرة، تطـس الأكـام، وتثبت فـى أثواب ورق الحمام، موصوفة بالإعصاف، معروفة بالإعناق والإيجاف.

ومن أمون لونها جون وكون، مثلها من محاسن الكون، تميل إن شبهتها إلى الدجا ولا تمـل مـن الـسير، ولو براها الوجى، لها فخذان لحمهما وافر، وذنب تكنفه جناحا طائر، تفوت الريح فى خطراتها، وتطأ جمر القيظ بجمراتها.

ومـن وجـناء لـونها أصـهب، ورباطهـا الدمقسى مذهب، ترعى الحدائق، وترعى

الحادى والسائق، شكول عسبور تسامى رأسها أعواد الكور، غائرة الأحداق، سريعة الاندفاع والانطلاق.

ومن مصباح لونها أغبش، وكل من قوائمها أحمش، يخالط بياضها شقرة، يولد الاجتماع بها طريقًا إلى النصرة، هوجاء دفاق، روعاء مزاق، ترض الحصا برضها، وتستطلع الأخبار بنصها.

ومن شمردلة لونها أحوى، مهارق البيد بغيرها لا تطوى، تجوب القفار، وتجوس خلال الديار، مشفرها رقيق، وسبب وظيفها وثيق، تختال فى شنفها وزمامها، وتدهش الأبصار بسنا سنامها:

وحوص غدت سفن المهامه والفلا ... ألم ترها تطفو على بحر آلها

تخط حروفًا بالمناسم فى الثرى ... يقصر عن تحريرها ابن هلالها

فلما تكامل العرض بعد الطول ، وأفلت أقمار الإبل وغابت شموس الخيول، أخذ الحاضرون فى تذكر أشكالها، وأفاضوا فى نعت محاسنها وجمالها، ثم إن الملك أمر بإحضار الطعام، واشتغل الناس بالمائدة عن الأنعام، فقمت مبادراً إلى الذهاب، متفكراً فى رزق الله لمن يشاء بغير حساب، قائلاً: فاز المخفون وهلك المثقلون، تاليًا: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

* * *

الفصل التاسع عشر

فى الوحش

هفا بى هيف الإسفار، وطوحنى بين أنكر صحبة الأسفار إلى خرق متسع الجوانب، تطول على سالكه سبائب السباسب، فسرت أطوى خيفه وصمانه، وأرض جلاميده وصوانه، إلى أن دنت الشمس من الزوال، وآل أمر الظامىء إلى رؤية الآل، فبينما أنا أرود لأرد، لاح لعينى غدير مطرد، فأتيته مسروراً، ونهلت منه ماء مقروراً، ثم توضأت لأداء المكتوبة، وأبرد بالصلاة ما صلى من الجوارح المكروبة، ونظرت فإذا تلعة من التلاع مشرفة على اليفاع من تلك البقاع، فاقتعدت ذروتها، وتلقيت للقيلولة هضبتها، فما استقر المجلس بى، ولا بلغت من الراحة أربى، إلا والغبرة قد نشرت، والوحوش للورد قد حشرت.

فمن أسد ورد شديد الباس، عرد صعب المراس، بين جفنيه مقباس، شثن الكف لا يرهب من أبطال الصف، ملك مهاب، تبرى الإهاب حديد، الظفر والناب، يخلفه الشبل إن غاب عن الغاب:

متخضب بدم الفوارس لابس   فى غيله من لبدتيه غيلا
يطأ الثرى مترفقًا من تيهه   فكأنه آس يجس عليلا

ومن نمر شرس الأخلاق، دم الفريسة بين يديه يراق، الجلبة ضمن جلبابه، والنوائب كامنة فى أنيابه، وثباته لا تنكر، وثباته أشهر من أن يذكر، يقطع الطريق، ويحب شرب الرحيق:

أحسن به من النمور أهرتا   يحار فى تدبيجه أهل الحجا
إذا بدا يريك من إهابه   طرة صبح تحت أذيال الدجا

ومن فهد خصره رقيق، وعقد فقاره وثيق، واضح الجبين، أفطس العرنين، كم فرى من فرا، واجترح واجترا، وظفر فظفر، وتخفر به الصيد فما خفر:

فهد كحيل المقلتين مرقش   جهم المحيا لا يمل من الحنق
والليل فيه والنهار تغايرا   لله ثوب ألبساه من الحدق

ومن دب مختلف الطباع، يأكل مما تأكله الدواب والسباع، بعيد مقترب، مغرى باللهو واللعب، كثير الشهوة، قليل الغيرة والنخوة، يقبل التعليم والتأديب، ويأتى من بحر فطنته بكل عجيب:

وذى وبر قوى مصلخد تراه يدب ما بين الدباب
له ظفر إذا ما عن صيد له ظفر وناب غير نابى

ومن ضبع حضاجر كنيتها أم عامر، موصوفة بالعرج، تفترس من دب ودرج، تشتهى السفاد، وتميل إلى الفساد، وتخرج من الوجار، ولا ترعى حق الجار ولو أجار:

صنعنا جميلاً قابلونا بضده وهذا فعال الخائنات الفواجر
ومن يصنع المعروف فى غير أهله يجازى كما جوزى مجير أم عامر

ومن ذئب أطلس عمر وعسعس، يسطو بأنياب حداد ويألف الوحدة والانفراد، الغدر له شيمة، والغنم لديه غنيمة، صبور على السفر، شديد الخوف والحذر:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

ومن ثعلب رائغ، زائل عن الطريق زائغ، وافر المكر والحيل، يضرب بخديعته المثل، حسن اللباس، يرتدى بالسندس والقرطاس، يحب الدجاج والحمام، وربما أوقعه فى شرك الحمام:

يطير قلب الطير فى وكره مخافة من نابه النابل
لكنه يلقى الردى بعدها كم أكلة أجنت على الآكل

ومن هر يسبق الهرهور، حاد الناب والأظفور، عيناه كالزجاج، ومرطه كالديباج، أخنس الأنف، لطيف محل الشنف، يقعى إقعاء الأسد، ويلوى من ذنبه حبلاً من مسد:

وهر أهرت الشدقين ضار له حسن بديع غير خافى
بكعبة ربه كم طاف سبعًا ويغسل وجهه قبل الطواف

ومن نمس كميت اللون، ما للطير والثعبان منه صون، صائل صائد، ظهره عظم واحد، طويل الخطم، قصير اليدين، ليس له سوى صماخين من الأذنين:

وظربان يألف الظرابا ويقتص الحسول والضبابا
جلدته كالقد فى قوتها لا يقطع السيف له إهابا

ومن سنجاب أبلق، بطنه أبيض وظهره أزرق، يأوى الأشجار العالية، ويسكن الأماكن الخالية، جميل الملابس، حسن اليلامق والقلانس:

لله سنجاب بر ذو ناظر كالشهاب
في الدوح يعدو ويبدو كقطعة من سحاب

ومن فيل له خرطوم طويل يشبه الصولجان، ويحكى فى تلويه الأفعوان، وأذنان كالترسين تحتهما نابان كالرمحين، عقبة كؤود شديد الغيرة، حقود يرتاح إلى الطرب، وينخرط فى سلك العجب:

وهندى كطود مشمخر ذكى القلب يفهم ما تقول
لقاء العسكر الشاكى عليه يهون لأن منظره يهول

ومن كركدن كالجاموس، تنفر منه الخواطر والنفوس، قوته شديدة، وأسلحته عتيدة عديدة، له اختيال فى مشيته، وقرن غليظ فى جبهته، يظهر بأرض الهند والحبشان، فيخضع هيبة له سائر الحيوان:

وكركدن كدن فى خلقه عجائب
له سلاح حاضر والعقل منه غائب

ومن زرافة حازت أنواع اللطافة، بردها بالوشى ملمع، وقرنها بالسبج مقمع، طال جيدها جدًا، وجاوز غضب عجبها حدًا، عالية الصدر، منحطة المآخر، جميلة الأوصاف والمفاخر:

نوبية المنشا تريك من الطلا روقًا ومن بزل المهارى مشفرا
جبلت على الإقعاء من إعجابها فنخالها للتيه تمشى القهقرى

ومن مها ثمر حسنها قد زها، عنقاء مبهر خدها مضمخ بالعنبر، تفتن العقول بأحداقها، ويعز على القلوب غداة فراقها:

عيون المها مهلا على ذى صبابة صبور على الهجران ليس يحول
يحن إلى سلع ونجد وحاجر منازل فيها صحبكن نزول

ومن أيل ضباضب يحمى من قضب شجرتيه بالقواضب، يأكل الأفاعى، ويحسن فى تحصيلها المساعى، يشتغل بالصفير والطرب، فيشتعل بنيران العطب:

متشعب القرنين يدعى أيلاً من دمعه باد زهر الحيوان

ومن فرا ليس فى حسنه مرا، كل الصيد فى جوفه لا يستقر على الثرى من خوفه، يميس فى برده القشيب، ويطول عمره ولا يشيب:

شــغلته لـــواقح ملأتــــه غـــيرة فهـــو خلفهـــن كمـــى

ومـن وعـل أرقـب لا يفـارق الـنفق والمرقب يحمى الأروية، ويحتجب فى البر عن البرية، يسكن فى الأماكن الوعرة، ويصبر على شدة القرة والوغرة:

إن شـئت تلقـى راهـبًا ذا رغـبة فى شامخ عالى الذرا فالق الوعل
سـامى التلـيل بالـضياء مـرتد مـن تـيهه وبـالظلام منـتعل

ومن ظبى غرير، متلفع بمطارف الحرير، كحيل الطرف، ذكى العرف، جميل الصفات، حسن الالتفات، إن حضر أحيا الأرواح، وإن أحضر فات الرياح:

غـــزال قـــد غـــزا قلبـــى بأســـياف مـــن الطـــرف
لـــه عطـــف بـــه مـــيل ولكـــن لا إلى العطـــف

ومـن أرنـب يـرتع بين الشيح والزرنب، بطنه يقق، ومتنه شفق، قصير اليدين، ينام وهو ساهر العين:

وأرنـب ذى وثـوب فـى سياحته أثـوابه صـبغت مـن مـاء عقـيان
إذا جـرى فى فلاة خوف مقتنص تخالـــه كـــرة تهفـــو بمـــيدان

ومـن قـرد نـسناس، فـى خلقـه مـا يشبه الناس، خفيف الروح، يغدو فى الشواهق ويروح، نزيه يهفوف، بالفهم والذكاء معروف:

أحـسن بقـرد سـريع الفهـم ذى شـبه بالآدمـى وهــذا القــدر يكفــيه
لــه لــسان ولكـــن لا يـــوافقه يكـاد يـنطق لـولا عجمـة فـيه

فلمـا عاينـت مـن تلـك الوحـوش ما راقنى، وشـاهدت من أصنافها وأوصافها ما شـاقنى، واجتليت محاسن عرائسها، وتنزهت فى رياض ملابسها، قمت من شكر بارئها بمـا يجـب، وأعلـنت بتوحـيد رازقهـا مـن حـيث لا تحتسب، وتلوت إذ أدهشنى جمعها وخلقها: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

ثـم إنهـا مالـت مـن الورد إلى الصدر، وتفرقت بعد الاجتماع شذر مذر، فنهضت عازمًا على الإياب، متوكلاً على الكريم الوهاب، عائجًا إلى حيث أتيت، مثبتًا فى ديوان الغرائب ما رأيت.

* * *

الفصل العشرون

فى الطيور

أخبرنى بعض الإخوان أنه رأى بلدة من البلدان متسعة الفناء، محكمة البناء، تروق العيون، وتحرك السكون، بالقرب منها واد خصيب يشتمل من الأطيار على كل غريب، مديد الأشجار، منسرح الأنهار، وافر الخير، يعرف بوكر الطير، فتقت إلى رؤية ذلك الوادى، وحدا بى من الشوق إليه حادى، فسرت أطوى البيد، وأصل التحليج بالتخويد، إلى أن أتيت إليه، وأنخت راحلتى عليه، فما بنت منه ما حقق مطالبى، ووجدت به ما صاح بى كما قال صاحبى:

واد عليه للمحاسن رونق — وبه طيور طاب عيش نديمها
أرجاؤه مشحونة بسباعها — وكلابها وبغائها وبهيمها

فمن صقر شريف النجار، رفيع المقدار، القمر منظره، والهلال منسره، له ثوب أرقط، بياضه بالسواد منقط، حسن السلوك، لا يصحب إلا الملوك.

ومن باز أشهب، جمر مقلتيه يتلهب، خفيف الجناح، سريع النجاح، يلمع فى الجو كالبارق، وينقض انقضاض الطارق، قوى الافتراس، يثب على الطريدة وثوب الهرماس:

وصقر أحمر الجلباب شهم — طموح العين معقود اللواء
يطير إلى الفلاة يروم صيداً — فيرجع بالأرانب والظباء
وشاهين رحيب الصدر جون — يجيد السبح فى بحر الفضاء
إذا الكركى لاح سما إليه — وعاجله بمحتوم القضاء

ومن كوهية حالية الحلة، تجلى كالعرائس فى الأكلة، ملابسها مدبجة، ومخالبها بدم القلوب مضرجة، ذات درع ظلها ضافى، منتظمة القوادم والخوافى، تمر مر السحاب، وتأتى بما لم يكن فى الحساب.

ومن باشق فرعه مع صغر حجمه باسق زعرور الأخلاق، ذهبى الأحداق، شاكى السلاح، محمود الغدو الرواح، يمرق كالسهام، ويوقع الحمام فى شرك الحمام:

وطاوس أعار الروض لما ... مشى فى اللازوردى المدثر
يلوح على المفارق منه تاج ... بديع تاج قيصر عنه قصر
وديك عرفه من أرجوان ... وجؤجؤه من الوشى المحبر
يرى سهر الدجا حتى إذا ما ... دنا الإصباح هلل ثم كبر

ومن ببغاء جميل الصفات، قوى على حكاية الأصوات، فهمه صحيح، ولسانه فصيح، هندى الأوطان، زبرجدى الأردان، طرفه مركب من قار، وله من الياقوت منقار.

ومن هدهد وافر الهداية، نافر عن الضلالة والغواية، يرى الماء فى باطن الفجاج كما ينظره الإنسان فى داخل الزجاج، مرقوم البرود، كثير الركوع والسجود، يميد فى حلله الفاخرة، ويميس كأنما ألبسه سليمان تاج بلقيس:

ودراج تبدى فى قميص ... نضير الزهر زهرى أنيق
فصوص بنفسج فى ياسمين ... وريحان تشقق عن شقيق
ومن حجل يعاقيب عليها ... مروط أشبهت لون الدبيق
لها طرف تركب من نضار ... ومنقار تكون من عقيق

ومن قطا يا له من قطا، حسن المشى، متقارب الخطا، جيده مطوق، ومبسمه بالزعفران مخلق، منقوش الإزار، كأنه عب من كأس عقار، جناحه مخضوب، وصدره بماء الذهب مكتوب.

ومن يمام يفى بالعهد والذمام، مشهور بالسجع، معروف بالذهاب والرجع، يألف الرياض، ويرفل فى ثوب فضفاض، يؤدى الأمانات إلى أهلها، ويتحرى فى رواية الأحاديث ونقلها:

ومن هزار كامل المعانى ... حلو الحلا منطلق اللسان
تراه إن غنى على العيدان ... يطرب ما لا تطرب المثانى
وبلبل بلبل قلب العانى ... حلته من أسود الجنان
قام خطيبًا فى ذرا الأغصان ... يأمر بالعدل وبالإحسان

ومن ورشان يودع المسامع أطيب الألحان، نوبى الدار على المنار، شهى التغريد، معبدى الأناشيد، يحسن الأنغام، ويغرى الخلى بالوجد والغرام.

ومن قمرى أخفى القمر، كم نهى على منبر الأيك وأمر، ساجع مطراب، إعجامه لذى المعارف إعراب، أشهل العيون، وفى جيده من خط القلم نون، يستديم شكر الدائم، ولا تأخذه فى التسبيح لومة لائم:

وفواخت كدرية أطواقها ... مسكية والطرف منها أسود
طوراً تنوح على الغصون لفقد من ... تهوى وطوراً للوصال تغرد
وغراب تغريب فصيح أعجم ... داجى الإهاب مقامه لا يحمد
يهوى نوى أصحابه فإذا نأوا ... أضحى مقيمًا بالديار يعدد

فيالله من واد أنبت السرور، وحوى أصنافًا جمة من الطيور، لا أجمع بين أشخاصها وأسمائها، ولا أتحقق شيئًا من أحوالها وأنبائها، فسبحان المتكفل بأرزاقها، المباين بين طباعها وأخلاقها، فلما سبرت سر الوادى، تطلعت إلى طلعة شمس بلادى، فلويت زمام الراحلة، وودعت من الطير نجومًا غير آفلة قائلاً: اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأوطان، تاليًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

* * *

الفصل الحادى والعشرون

فى الكتابة

الكتابة - ألهمك الله معرفة فضلها، ولا حرمك نفع صداقة أهلها - أشرف الوظائف والمناصب، وأرفع المنازل والمراتب، وأفلح صناعة، وأربح بضاعة، قطب دائرة الآداب، وصدر أسرار الألباب، ورسول صادق، ولسان بالحق ناطق، وسيف تحد بجده المعارف، وميزان يميز التالد من الطارف، تلحق خبر الحاضر بالغائب، وإليها تنتهى الآمال والرغائب.

بها تتم النعمة، وتفصل شذور الحكمة، تبرز إبريز البلاغة، وتصوغ لجين الكلام أحسن صياغة، لطف حواشى رقاعها محقق، وجدولها المسلسل على الريحان يتدفق، قد تحلت بصحة الوضع والتركيب، وحلت بما حكت من أعضاء الحبيب، فاللام والألف كعذاره وقده، والجيم كصدغه المعقرب على خده، والصاد والنون كعينه وحاجبه، والميم فمه النائى عن رائد ورده بجانبه:

لا تعد عن فن الكتابة إنها مغنى الغنى ومفاتح الأرزاق
واخش اليراعة وارجها فهى التى عرفت بنفث السم والدرياق

والكتاب عماد الملك، وأركانه، وعيونه المبصرة، وأعوانه، وبهاء الدول ونظامها، ورءوس الرياسة وقوامها، ملابسهم فاخرة، ومحاسنهم باهرة، وشمائلهم لطيفة، ونفوسهم شريفة، مدار الحل والعقد عليهم، ومرجع التصرف والتدبير إليهم، بهم تحلى العواطل، وتبتسم ثغور المعاقل، مجالسهم بالفضائل معمورة، وبندائهم أندية القصاد مغمورة.

يهدون إلى الأسماع أنواع البديع، وينزهون الأحداق فى حدائق التوشيح والتوشيع، هم أهل البراعة واللسن وشيمتهم، لف القبيح، ونشر الحسن، يميلون إلى القول بموجب المدح، ولا يملون من مراجعة الراغبين فى المنح، دأبهم استخدام الناس بالمعروف، وعدم التورية عن العانى والملهوف، يجلون الكبير، ويبجلون الصغير، ولا يخلون بمراعاة النظير، لهم إلى الخير رجوع والتفات، وبالجملة فقد حازوا جميع جميل الصفات:

فإن كان زهراً فهو صنع سحابة   وذاك حرام قست خطك بالسحر
كتبت فلولا أن هذا محلل   وإن كان دراً فهو من لجة البحر

بأيديهم أقلام تختلس بلطفها الأحلام، صافية الجواهر، زاهية الأزهار، لينة الأعطاف، ناعمة الأطراف، تبكي وهي مبتسمة، وتسكت وهي بما يطرب السمع متكلمة، قد اعتدلت قدودها، وأشرقت في سماء البراعة سعودها، أسنتها مرهفة، ومطارفها مفوقة، تجتهد في خدمة البارى، وتبدى من دررها ما يفضح الدرارى.

تميس في وشى أبرادها، وتشرح الصدور بعذوبة إيرادها، نشأت على شطوط الأنهار، وتعلمت اللحن من إعراب الأطيار، طويلة الأنابيب، تسلب القلوب بحسن الأساليب، تدهش الناظر، وتخجل العامل، ولا ترضى بامتطاء غير الأنامل، الشجاعة كامنة في مهجتها، والفصاحة جارية على لهجتها، تبهر بالنضارة نواظر البهار، وتطرز بالليل أردية النهار، إن قالت لم تترك مقالاً لقائل، وإن صالت رجعت السيوف مستترة بأذيال الحمائل، سجدت للطرس فرفعت إلى أعلى الرتب، وحلت وشببت، فلا غرو إذا سميت بالقصب:

قلم يفل الجيش وهو عرمرم   والبيض ما سلت من الأغماد
وهبت له الآجام حين نشا بها   كرم السيول وصولة الآساد

يكرع من دواة حالكة الحياض، مشرقة الأدواح والرياض، جنية الأثمار، مطعمة الأشجار، ريقها رائق، ونيل نيلها دافق، تكشف غطاءها عن كل معنى أنيق، وتفتح فاها بكسر العدو وجبر الصديق، شرفها ليس فيه نزاع، وسقطها من أنفس المتاع، تحنو على أولادها طول المدى، ثم تقط رءوسهن - ولا ذنب لهن - بحد المدى، سمت إلى المعالى بنفسها، وأعارت المسك السحيق بنقسها، ترشد بنور جمالها، وتنشد بلسان حالها:

إن السعادة حيث كنت مقيمة   والبحر أخبار الندى عنى روى
كم من عليل مقاصد أبرأته   فأنا الدواة حقيقة وأنا الدوا

لله أطراسها التي أضاءت بمدادها، وأشبهت عيون العين ببياضها وسوادها، وانطوت المحاسن تحت رق منشورها، وصدحت حمائم البلاغة على أغصان سطورها، صحائف تنوب عن الصفائح، وقراطيس تزف إلى الأسماع عرائس القرائح، ألبسها الحبر أثواباً من الحبر، ودبجها صواب الفكر لا صوب المطر، كم حازت من در منظوم، وعلم لفظ

بوشى المعانى مرقوم، وفقر تفتقر إليها أجياد الحسان، وغرر كلم تذهب العقول بسحرها وإن من البيان:

كراح فى زجاج بل كروح مناجيه من الأحزان ناجى
كتاب فى سرائره سرور سرت فى جسم معتدل المزاج

فاجتهد أعزك الله فى طلابها، واحرص على الدخول فى زمرة أربابها، وتمسك بأذيال بنيها تجد جوادًا أو نبيلاً أو نبيهًا، وحسبهم شرفًا أن الله تعالى نوه بذكرهم فى العالمين، ووصف الكتبة بالحفظ والكرم، فقال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

* * *

الفصل الثانى والعشرون

فى الحرب والسلاح

منع الجزية أهل الصليب، فى عام عاموا منه فى بحر عجيب، فأشار الأمير بالتأهب للنزال، وأمر بتحريض المؤمنين على القتال، فأخذوا فى الاستعداد، وجدوا فى تحصيل الجياد، فأحببت الدخول فى زمرة المجاهدين، ورفضت قاعدة الذين قالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]. فلما كملوا عَدداً وعِدداً، وتحروا فى أهبتهم رشداً، ساروا إلى جهة العدو المخذول، وطيور السعد تحوم عليهم ولا تحول، يا له من جحفل تحفل بالشوس، وكتيبة تميل إلى خضرتها النفوس، وجيش عرمرم وخميس لهب أسلحته يتضرم، وعسكر جرار وفيلق يتلو: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ [الأحزاب: ١٦]، يهول المنظر مثار العثير، قوى القلب والجناحين، كم ليده الطولى من جناحين، يدنى بعيد الآجال، وينفر حتى الوعل والآجال، النصر من جملة آياته، والظفر معقود براياته:

محلى بالسيوف وبالعوالى	وبالحلق الموانع والقسى
وفيه عيون درع ناظرات	إلى الأعداء من طرف خفى
ببحر الحرب منه سابحات	تملك حسنها قلب الكمى
ألا لا تخش فيه ليل نقع	فكم قد حاز من وجه مضى

ينطوى على غضنفر كاسر، وعقاب يصول من النصال بمناسر، وذفر مشيع وباسل، عمر خصمه مضيع، وبطل ثبت الغدر، وأحمش لامنجا منه ولا وزر، وشهم أيام عداه مدلهمة، وقدم صمة وما أدراك ما الصمة:

من كل مرهوب السطا رحب الخطا	عرد المطا ليث تأبط أرقما
يبدو هلالاً فى سماء عجاجه	ويريك من زرق الأسنة أنجما

أكرم بهم شجعة برزوا للكفاح، واشتملوا على أنواع من السلاح، فمن سيف يفرى بحده، ويأنف من المقام فى غمده، أمضى من أمس، وأشرق من الشمس، ينتقل من القراب إلى الرقاب، ويدب النمل منه على الذباب، يروع ويروق، ويخفى بلمعه البروق، يتمايل كالخمائل، وينجلى فى حلى الحمائل، يجتهد فى هلاك النفوس، ويبتسم حيث الأجل عبوس:

ومهـــند إن قابلـــته فريـــسة ينقض من جو القراب كأجدل
مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل

الموت كامن فى غربه، والحتف قريب من قربه، إن جرد عاينت عيون الجراد، ورأيته مطبوعًا على الجدال والجلاد، وإن سل حكم بقطع الأرزاق، وطفق مسحًا بالسوق والأعناق، يرتعد لا من الخوف، ويجل فعله الماضى عن السين وسوف، لم يبرح كارعًا من موارد الوريد، تاليًا: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٦]:

حسام وبتار جراز وصارم رسوب وقرضاب صنيع ومخدم
قشيب وصمصام وعضب ومرهف قضيب ومأثور ونصل مصمم
نهيل وهزهاز وأبيض قاطع رسول المنايا فى الدماء محكم

ومن رمح مثقف أسمر اللون مهفهف، لدن القوام يبدل الكلام بالكلام، له نصل مطعان وسنان غير وسنان، صدق صادق مارق فى المارق، يفرق الجموع ولا يفرق، ويصيب العدا بناظره الأزرق، يستوفى النفوس وهو عامل، ويضرب حاصل الكماة ولا يجامل، لهذمه ألمع من الشهاب، وكعبه أيمن من طلعة الكعاب، فعله حميد، وظله مديد، سلب اللطف من الأغصان، وتعلم الرعدة من جنان الجبان، خطار عظيم الخطر، خطى لا يخطىء فى قص الأثر، طويل يقصر الأعمار، قناة تجرى بدم الأذمار:

وأسمر من رشف كأس الدما يهتز بالسكر اهتزاز الطروب
يبسط فى الإشراق بسط الردى ويقبض الأرواح عند الغروب

ومن قوس حنانة سحائب سهامها هتانة، تطلع كالهلال فى سماء الرهج، وتسبح فى الهواء سبح النون فى اللجج، ضروح تسكن الضريح، عطوف لكن لا على الجريح، تبهر بأبهرها العيون، وتبلغ المنى برسل المنون، لها يد تمنح جميل الأيادى، ورجل تسعى فى قتل الأعادى، تضم شمل أولاد نوافر، يصلن بلا أنياب ولا ظوافر، ذوو أجنحة تروع السباع مثنى وثلاث ورباع:

عطوى مروح تريح المنبضين لها هنانة لفراق السهم مرنان
أولادها تدرك الأغراض عن وناظر السيف قد أخفته أجفان

ومن ترس عنتر يفل به حد الأبتر، جنة واقية، ومنة باقية، جوب يجوب حرة الحرب،

ولا يمل من ملاقاة الطعن والضرب، برىء من الختل والختر، معروف بالحماية والستر:

لله جـــنة جـــنة لا يجتلـــيها مـــن طغـــى
مـــن حـــل تحـــت ظلالهـــا أنجـــته مـــن نـــار الوغـــى

ومن بيضة حسن ملبسها، وزاحم الفلك قونسها، وصفها بديع، وحرم حماها منيع، الـرءوس بهـا محفـوظة، والـنفوس بعـيونها ملحوظة، تعلو على المفارق، وتطرق لهيبتها أجفان الطوارق:

يـا رائـد الحـرب تقـنع واقتـنع بمغفـر أحـسن بـه مـن مغفـر
سـامى الـذرا عـالى الجـناب مانع ذمامـه يـوم الوغـى لم يخفـر

ومن درع ستور، روض وشيها منثور، مضاعفة دلاص، منجية يوم لات حين مناص، فضفاضة مسرودة، ألوية النصر بها معقودة، كأنها سراب بقيعة، أو حباب يطفو على شريعة، أو سلخ أفعوان، أو لهب نار لم يشب بدخان، تنظر بعيون الجنادب، وتصبر على وخز العوالى والقواضب:

يـا رب سـابغة حبتنـى نعمـة كافأتهـا بالـسوء غـير مفـند
أضحت تصون عن المنايا مهجتى وظللـت أبـذلها لكـل مهـند

ومن أشياء يطول ذكرها، ويعز على البليغ البارع حصرها.

ثم إنهم جدوا فى الرحيل، وتمسكوا بالنص واتبعوا الدليل، إلى أن وصلوا إلى بلد الأعداء سيس، وأرهبوا بجمعهم الراهب والقسيس، فسارعوا إلى النزول، وغصت بهم الوعور والسهول، وصابحوهم بما أشقى مساءهم، وناوحوهم بما دمرهم وساءهم، ونادوهم بألسنة الحمام، وناجوهم برسائل السهام، ونصبوا آلات الحصار لكسرهم، وأعدوا ما استطاعوا من القوة لقتلهم وأسرهم، وأحاطوا بأسوار المدينة، وصدموها بمن فى آذانهم وقر عن الوقار والسكينة.

فلم تكن إلا ساعة من نهار حتى تحرك البناء، وانهار وسال السور بعد أن ماج، وهوت بكواكب المنجنيق منه الأبراج، فدخلوا البيوت من غير الأبواب، وجرعوا أعداء الدين مذاب العذاب، وحصل أهل الشرك فى شرك القبضة، وعجزوا عند قص أجنحتهم عن النهضة، وتمشت فى مفاصلهم حميا السيوف، وصافح الرغام وجوههم على رغم الأنوف:

لله در فـــوارس كـــم أقـــبلوا نحـو الحروب ونافسوا فى وصلها
قـــوم إذا دخلـــوا معـــالم قـــرية لعـــداتهم جعلـــوا أعـــزة أهلـــها

ثـم عاجـوا لاقـتلاع قلعـتها، ومالـوا إلى محـو أسـطار بقعتها، فقدموا إليها النقابة، وحـسروا عـن وجـه الاجـتهاد نقابه، وباتوا يطلقون فيها ألسنة المعاول، ويعرضون عن رأى مـن قـال: وأيـن الثـريا مـن يد المتناول، فأصبحت على الخشب معلقة، ثم عادت بـذات الوقـود محـرقة، فلم تمض عليها إلا لمحة غافل، حتى صارت الأعالى منها أسافل، وأحـيط بطاغيـتهم وفرسـانه، وقـبض علـى أعوانه وأعيانه، ونزعت التيجان، ونكست الـصلبان، وبـل غلـيل الـسيف، وارتفـع الحـتف والحـيف، وهـدمت البيع والكنائس، واسـتخرجت الذخائـر والـنفائس، وأسـر النـساء والأطفال، وبلغ الطالب من الأموال منتهى الآمال.

وأعـز الله جـنده، وأنجـز مـن التأيـيد وعده، ومنّ بعوائد ألطافه الخفية، وجعل هام الملحـدين لحـوداً للمـشرفية، ومـا النـصر إلا من عنده، وهو المتصدق بجزيل رفده على عـبده. ثـم إن العساكر عادوا إلى أوطانهم غانمين سالمين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

فى رمى البندق

برزت يوماً مع رفيق رقيق، يسر بمنادمته سر الصديق، لا يخرج عن الواجب، ولا يحجبه عن ذكر الجليل حاجب، رفيع المقام، صادق الكلام، ينطق بالحكمة، وفصل الخطة، وهو لدائرة الفضل بمنزلة النقطة، يجتنى من الرياض أزهار الرياضة، ويعتنى بما يشرح الصدر ويزيل انقباضه، ويحب معالى الأمور، ويتقدم إلى كل مقدمة تنتج السرور، ويتمسك بما كان داعياً إلى المروة، باعثاً على امتثال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] قد ألف لخطبة الطير كل خطب مهول، واعتاد خوض المنايا فأيسر ما تمر به الوحول، إلى روضة أنيقة تهدى الأنق، وتضىء فى جوانبها وجه الملق، والغيم ممدود الرواق، والطل دمعه يراق، والجو مسكى الإهاب، والشمس قد توارت بالحجاب:

والأرض وشى والنسيم معنبر   والماء راح والطيور قيان

فنزلنا بفنائها، وشممنا الأرج من أرجائها، واجتلينا محاسن أزهارها، وطربنا لسماع نغمات أطيارها، وقبلنا هناتها وهباتها، ورعينا على كلا الحالين كلأها مع نباتها، ورأينا بها عصبة من الرماة، وفرقة تفرق منهم الأبطال والكماة، فألممنا بحضرتهم، وانتظمنا فى سلك زمرتهم، فلما أنست بذراهم، وآنست نار قراهم، شاهدت قوماً نفوسهم أبية، ومقاماتهم علية، فى وجوههم سيما القبول، ومعهم وصول بالوصول، يرعون حق الذمام، ويقتفون آثار الكرام، ويرفلون فى حلل العفاف، ويسلكون سبل الإنصاف، ويحفظون الحديث عن القديم، ويثبتون الصحيح، وينفون السقيم، ويوقرون الكبير، ويرضون من العيش باليسير، ويعتمدون حسن الوفاق مع الرفاق، ويعرضون عن أهل العرض لعلمهم أن ما عندهم ينفد وما عند الله باق:

أهل الصبابة إن قالوا وإن سمعوا   وللسماع كما للقول إعراب

كل يحاول ما يبغى الفلاح به   فالمبتغى واحد والناس أضراب

فلو رأيتهم وقد أتوا إلى الخطة، والتفوا وحملوا غير متحاملين، واصطفوا وخطروا فى تلك المطارف، يؤمهم القديم إلى جهة المواقف، مسرعين إلى الأخذ بالثارات، متدرعين

الغبار لشن الغارات:

لعاينت قومًا فى مقامات عزهم   وقوفًا وكلاً منهم قد ترسما
جفوا فى الظلام النوم كى يتقدموا   ومن سهر الليل الطويل تقدما

جماعة طريق حرمهم للنزيل قبله، وحسن شيمهم للعقول عقله، كم فيهم نقى خد أخجل الدمى، ورشيق قد جبل طرفه على سفك الدما:

شغل الطيور بحسن منظر وجهه   فتوقفت فأصابها بالبندق

وكم لهم من دعرة وشطارة يقولون: ما أهون الحرب على النظارة، ونكتة غريبة يأتى بحرها بالعجب، ومصطحب شريف، وما أدراك ما المصطحب، ما ألطف سجاياهم الطاهرة، وأطيب أوقات وجوههم الناضرة:

فى غدوة ومصبح ورواجع   ومصوغ وخوارج وعشاء

بأيديهم قسى قدودها رشيقة، وملابسها مدبجة أنيقة، من الطين اللازب نجمها، ومن الدمقس المفتل لحمها، أجاد خرمها الصناع، وهذبت كماة الرماة منها الطباع، كأنها حواجب مقرونة، أو نونات معرقة موضونة، أو أهلة مشرقة النور، أو مناجل لحصاد أعمار الطيور:

حوامل إذا دنا نتاجها   تقذف من أكبادها كواكبا

ومعهم للرمى بنادق أسرع فى الإصابة من اليفالق، كأنها كرات دورية، لا بل كواكب درية تمر بهم عساكر الطيور المختلفة، وهى تختال فى برودها المفوفة، ولم تدر أن أيدى المنون إليها ممتدة، وأن سيوف الحتوف لها معدة، إن هبطت مسبقة أصابتها عيون أوتارها المبصرة، وإن نهضت محلقة فكرات قسيهم عنها غير مقصرة، فتسقط عليهم سقوط الندى، وتهوى إليهم مجيبة لداعى الردى:

تهوى إليهم وتأتى   من كل فج عميق
يا حسن بدر منير   يسعى لصب مشوق

فبينما هم فى وجه عشاؤه أضاء بنور التهانى، ولمعت فيه بارقة بروق الأمانى، والليل قد أرخى أستاره، وأبرز من النجوم درهمه وديناره، والأنهار سارية وسارحة، والأطيار فى الملق سابحة وسائحة:

نزه الطرف يا أخا الظرف ليلاً   فى طيور أحسن بها من طيور
فوق وجه الماء تسعى وترعى   كنقوش قد خيلت فى ستور

عنَّ لصاحبى أوزة فضية اللون، بينها وبين المرزم فى الحسن بون، كأنما خاضت فى اللهب، وكرعت من ماء الذهب، تسبق الريح فى المطار، وترتفع إلى أن تغيب عن الأبصار، فرماها فى حال بعدها عن العيون، وصرعها عاجلاً أسرع ما يكون، فحسنت له الجفة وباركت فيه، وأظهر من سر الظفر ما كان يخفيه، وخرج فرحًا بتحصيلها مائدًا، وحملها من كان له شاهدًا، ورمى لمن قبله وسبقه، وفى بحر الحمد والشكر غرقه، ثم تواتر الرمى من يد كل نبيه ونبيل، وتفرقوا من ذلك الوجه على وجه جميل:

كم طائر للأرض أمسى واقعًا   بنجم قوس للسماء قد سما
من حيث لا يشعر يأتيه الردى   فأعجب له من صامت تكلما
لم يدر من أين أصيب قلبه   وإنما الرامى درى كيف رمى

فلما شاهدت من أحوالهم ما راقنى، ومن نوالهم ما قيدنى عن غيرهم، وعاقنى أثنيت على من بهم عرفنى، وبالطيب المسكى من أنفاسهم عرفنى، وقمت ناشراً وصف المواقف والأطيار، قائلاً على سبيل التشوق والتذكار:

ياصاح قم نسعى إلى الأملاق   فنحوها قد ذبت من أشواقى
الله ما أحلى حلى أوقاتها   وأملح الولدان فى جناتها
والجو يجلى فى ثياب دكن   يستلب اللب بفرط الحسن
والسحب قد تتابعت وفودها   وانفرطت على الربا عقودها
وروضة الأنس يفوح طيبها   وينثنى فى دوحها رطيبها
ونغمات الطير بالألحان   تغنى عن الجنوك والعيدان
أحسن بها يا سعد من أطيار   تلوح كالأنجم للأبصار
تخالها إذا سجى جنح الغسق   كأسطر خطت على وجه الملق
من وارد وصادر وواضع   وناهض وطائر وواقع
وأبيض كالصبح إذ تبلجا   وأسود محلولك يحكى الدجا
وأخضر مدبج اللباس   وأزهر يزهو على النبراس
مختلفات فى الحلى والشكل   عن حصرها يعجز أهل الفضل
لكنها جليلها معروف   وهو لدى أربابه موصوف

فهاكها من بعد عشر أربع ... كعمر بدر التم حين يطلع
قد جمعت أوصاف كل طائر ... مبينات المجد والمآثر
فالتم يبدو فى لباس يقق ... كأنه مركب من ورق
فى الرأس منه نقطة تحكى السبج ... من الرماة نحوه تصبو المهج
والكى شيخ أبيض جلبابه ... معلق فى عنقه جرابه
منقاره كحربة من أسل ... وظهره محدب كالجبل
وللإوز نغمة الأوتار ... إذا بدت تختال فى المطار
فضية منقارها من عسجد ... يا سعد فى حبى لها كن مسعدى
واللغلغ المسكى كالإوز ... فى الحسن والوصف وفرط العز
لكن له مثل اللجين غره ... تدنى لمن يصرعه المسره
وحبذا الأنيسة الملونه ... لباسها المنقوش ياما أحسنه
يبكى عليها الصب بالدموع ... لأنها عزيزة الوقوع
خذ يا أخا الرمى صفات الحبرج ... يحكى القطا فى لونه المدبج
يألف أيام الربيع الزاهرة ... فيجتنى ويجتلى أزاهره
والنسر راميه شديد الأسهم ... لأنه عال كنسر الأنجم
أقرع ذو مخالب حداد ... يذكر عصر تبع وعاد
وبعده وصف العقاب الكاسره ... تلك التى للوحوش تغدو آسره
مغبرة ظافرة أظفارها ... بالصيد كم أدنى الردى منقارها
قم نجتلى الكركى تحت الشفق ... فقد بدا فى ثوب خز أزرق
ومد جيداً يا له من جيد ... وأطرب الأسماع بالتغريد
إذا بدا الغرنوق فى الفضاء ... شبهه بالغمامة الدكناء
كأنه الكركى فى لباسه ... سوى سواد عنقه وراسه
والضوع مبيض شبيه الفلق ... أطواقه مصبوغة بالعلق
يختال فى الحمرة والبياض ... كخد من قد زاد فى الإعراض
ومرزم يا حسنه من مرزم ... كأنه قد خاض فى بحر الدم
أبيض وضاح طويل العنق ... راميه قد فاز بفضل السبق
وتلوه السبيطر المسموم ... أبيض ضخم وصفه معلوم
يسكن فى الأماكن العلية ... وطعمه الحيى والسحلية

وأقبل العناز بعد الجمع   أسود ذا صدر كضوء الشمع
قد جمع الضدين صبحًا ودجا   من يرمه يعد من أهل الحجا
وهذه تكملة الأطيار   أعنى طيور الواجب المختار
ترفل فى محاسن الملابس   وتنجلى فى الطرس كالعرائس
كأنما تنظرها حقيقه   سابحةً فى غدرها الأنيقه
لا زلت ترمى الطير والأعادى   بأسهم ذى ألسن حداد
ودمت تلقى السعد فى مسيركا   حتى تعد الكل من طيوركا
ما سهر الليل رماة البندق   وقبل الطير خدود الملق

* * *

الفصل الرابع والعشرون

فى الكرم والشجاعة

مـررت ببعض أحياء العرب فى يوم طما بحر آله واضطراب، فلمحنى شخص من بعـيد حـوله جماعـة مـن الخـدم والعبيد، فأرسل واحدًا منهم فى طلبى، فلما دنوت منه رحب بى وأحسن منقلبى، ورفع قدرى ومنزلى، وأعذب موردى ومنهلى، وأعز جانبى، وأتـرع مـشاربى، وأجـزل نـولى، وعظم قومى وقولى، وأتحفنى باللطائف، وأمدنى بكل ساع من البر وطائف، وأضرم نار القرى، وسقى بدماء البدن ظامئ الثرى، ومنحنى من الجـود بأنـواع مختلفة، وأسدى إلىّ المعروف من غير معرفة، وعقر النعم وغمر بالإنعام، وتجـاوز الحـد فـى الكـرم والإكـرام، وعم بفضله البسيط وإحسانه الشامل، وآلى أن لا أرحل عن حيه مدة شهر كامل:

وحقــق آمــالى وقــرب مجلــسى　　وأرشــفنى كــأس الــنوال مــروقا

وقيدنــى بالمكــرمات أمــا تــرى　　لــسانى لــه بالــشكر أصبح مطلقا

يـا لـه جوادًا لا يلحق، وغيدقًا لا يطرق حين يطرق، وقلمسًا بعيد المدى، وخضرمًا تفـيض أنديته بالندى، وصنديدًا سخى البنان، وسميدعًا لا تبرح ربوعه ربيعًا للضيفان، وهمامًـا تهمى سحائب جوده، وأريحيًا لم يزل مرتاحًا لملاقاة وفوده، يطوى حاتم الطائى عند نشره، ويفنى هرم بن سنان لبقاء شارح ذكره، ويطوف كعب بن مامة بكعبة حرمه، ويخلد به خالد القسرى ليقتبس من كرمه، وينقص لديه معن بن زائدة، ويلتقط يزيد بن الملهب فى هلبة الزمان فرائده:

مفــيد ومــتلاف إذا مــا ســألته　　تهلــل واهتــز اهتــزاز المهــند

متــى تأتــه تعشو إلى ضـوء نـاره　　تجـد خـير نـار عـندها خير موقد

جـزيل المـروة، شريف الأبوة، كريم النجار، جليل المقدار، علىّ الهمة، طليق الوجه عـند الملمة، يحرز المجد، ويذهب الذهب، ويتبدئ بالإحسان إلى العفاة قبل الطلب، ظله ممـدود، وجـوده موجـود، وفناؤه مقصود، وباب منزله عن الواردين غير مردود، يعطى من لا يرجوه، ويفصل قضية المتقاضى، وعده على أحسن الوجوه، كم أولى من أيادى، وأنجـز إيعاد الأعادى، ومنح برًا، وكف عن نزيله ضرًا، وأجرى نيل النوال، وأماط عن

المجتدى سوء السؤال:

علـم المـزن الـندى حتـى إذا　　مـا حكـاه علـم الـبأس الأسـد
فلـه الغـيث مقـر بالجـدى　　ولـه اللـيث مقـر بالجلـد

ولقـد شاهدت منه في مدة مقامى ما يكبو دون منتهاه جواد كلامى، من كرم زهت كرومه، وشجاعة طال أسلها وزهت نجومه، ونعم تجل عن الحصر ونجدة مؤذنة بالنصر، وسماحة، وحماسة، وتدبير، وسياسة، وثبات أقدام، وصبر وإقدام، ولسان لذوى المسألة مجيب، وصدر لمن ورد وصدر رحيب، وهبات طاب هبوب نسيمها، ومنح راقت جنات نعيمها، وسـخاء بحره زائـد، وصـلة نفعها على من وصل إليه عائد، وأخلاق حسنة، ومناقب تقصر عن وصفها الألسنة:

وعـدل أبـاح الـشاء أتلعـة الفـلا　　تلـس كلاهـا والـذئاب رعـاء
وفـضل حـباه الله سـبحانه بـه　　ولله وضـع الفـضل حـيث يـشاء

لله نـسبه الـذى علا على الفلك، وفـتحت السعادة له الأبواب، وقالت: هيت لك، وبيته الذى رفع المجد قواعده، وأطلع الرفد فى آفاق الإنفاق موائده، وقومه الذين زكت نفوسـهم، وأيـنعت فـى حدائـق العطايـا غروسـهم، وملكوا أعنة المعالى، ورفعوا خيام خـيمهم بأطـراف العـوالى، يـسير الفخر تحت ألويتهم، وتتعطر المجالس بطيب أنديتهم، يقـتحمون عقبة الوغى، صابرين على الطعن والضرب، ويفضلون مقارعة كماة الحرب علـى معاقـرة كميت الشرب، طالما كفوا أكف العدى، ووجد أبناء السرى على نارهم هدى، وشتتوا شمل الأبطال، وجروا على تاج المجرة فضل الأذيال:

إن تـرد خـبر حـالهم عـن يقـين　　فـأتهم يـوم نائـل أو نـزال
تلـق بـيض الوجوه سود مثار الـ　　نقـع خـضر الأكناف حمر النصال

وبعد فمحاسنه لا تحصى بعد، وأوصافه لا تدرك لأنها لا تنتهى إلى حد، والإسهاب يضع ممن زاد طولاً، واختصار القول أجدر وأولى.

فلمـا انقـضت مـدة أليـته، وقـرت عينى بما عاينت من لطف محبته، وآن للمقيم أن يـرحل، وللـضيف العائـد بالفـرائد أن يجبر، وإن لم يسأل استأذنته فى الظعن، وأعلمته باشتياقى إلى الوطن، فأذن لى مكرهًا، وأنشدنى متأوها:

تفـضلت الأيـام بالجمـع بينـنا فلمـا حمـدنا لم تدمـنا على الحمد
جعلـت وداعـى واحـد الـثلاثة جمالـك والعلـم المـبرح والجـد

ثم إنى سرت شاكرًا بره المألوف، ناشرًا ألوية معروفه المعروف، حامدًا إنعامه الذى شمـل القريب والبعيد، مادحًا شخصه الذى لم يشك وحشة قط، وهو فى الدنيا وحيد، مجريًا ذكر ما حواه من عزم العزائم، مثنيًا على أياديه الجميلة ثناء الروض على الغمائم.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

في العدل والإحسان

إن الله يأمر بالعدل والإحسان، فبادر إلى امتثال الأمر أيها الإنسان، وانشر أعلام الإنصاف، واتصف بمحاسن الأوصاف، وارفق بالرعية، وأكثر من البر إلى البرية، وابسط رداء المعدلة، وساو بين الخصوم فى المنزلة، واسمح بجبرك وخيرك، ولا تظلم الناس لغيرك، واعلم أن العدل حارس الملك، ومدبر فلك الفلك، وغيث البلاد، وغوث العباد، وخصب الزمان، ومظنة الأمان، وكبت الحاسد، وصلاح الفاسد، وملجأ الحائر، ومرشد السائر، وناصر المظلوم، ومجيب السائل والمحروم، به تطمئن القلوب، وتنجلى غياهب الكروب، ويرغم أنف الشيطان، وترتفع به قواعد السلطان، عليه مدار السياسة، وهو مغن عن النجدة والحماسة:

عن العدل لا تعدل وكن متيقظًا ... وحكمك بين الناس فليك بالقسط
وبالرفق عاملهم وأحسن إليهم ... ولا تبدلن وجه الرضا منك بالسخط
وحل بدر الحق جيد نظامهم ... وراقب إله الخلق فى الحل والربط

وإياك والظلم فإنه ظلمة، وداع إلى تغيير النعمة وتعجيل النقمة، يقرب المحن، ويسبب الإحن، ويخلى الديار، ويمحق الأعمار، ويعفى الآثار، ويوجب المثوى فى النار، وينقص العدد، ويسرع يتم الولد، ويذهب المال، ويتعب البال، ويجلب العقاب، ويضرب الرقاب، ويقص الجناح، ويخص بالإثم والجناح، والمظلوم أنفاسه متعلقة بالسحاب، ودعوته ليس بينها وبين الله حجاب:

كن منصفًا واسلك سبيل التقى ... فالبغى ليل جنحه مظلم
واجتنب الظلم ولا تأته ... والله لا يفلح من يظلم

وأيقظ عيون حزمك، وشيد مبانى عزمك، واحتم بالاحتمال، فهو أنصر لك من الرجال، وزين مجلسك بألمعيتك، وسس نفسك قبل رعيتك، وامزج الرغبة بالرهبة، وارع لأوليائك حقوق الصحبة، وادفع بالتى هى أحسن، وأت من المعروف بما أمكن:

واصنع جميلاً ما استطعت فإنه ... لا بد أن تتحدث السمار

وتجاوز عن الهفوات، وادرأ الحدود بالشبهات، وأنجز الوعد، وأخلف الوعيد، وقيد لفظك فلديك رقيب عتيد، وتفكر فى العواقب، والحظ الأخرى بعين المراقب:

من لم يفكر فى العواقب ناظرًا ... فيما يؤول إليه آخر أمره
خسرت تجارته وضل عن الهدى ... ورأى مساعيه بطرف أمره

وعليك بالحلم فإنه معدن السرور، وعقال الفتن والشرور، يبلغك من المجد قاصيته، وتملك به من الحمد ناصيته، مطية وطية، وعطية يا لها من عطية، وخصلة محمودة، وشيمة ألويتها بالسعد معقودة، يسهل الأمور، ويقى كل محذور، همة صاحبه علية، ومرآة متعاطيه جلية، لا يظهر إلا من ندب كريم، ولا يصدر إلا عن صدر سليم:

قابلت بالإحسان من ساءنى ... ميلاً لتحصيل الثناء المقيم
وقمت بالواجب من شكره ... إذ عرف الناس بأنى حليم

واعف عمن ظلمك، وصل رحمك، وارحم حرمك، واطف بالأناة جمر الغضب، واحذر من غاسق الغيظ إذا وقب، وصن عرضك عن الأدناس، وادخل فى زمرة العافين عن الناس، فهم أهل الفضل يوم القيامة، والمتقلدون بكرم الكرامة، يرفلون فى أثواب الثواب، ويدخلون الجنة بغير حساب، ولا تعج عن سنن السنن، وراقب الله فى السر والعلن، واتبع فى الإحسان طريق من أفلح به المؤمنون، والزم التقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

* * *

الفصل السادس والعشرون

فى الشكر والثناء

شكر المنعم واجب، والثناء على المحسن ضربة لازب، فاشكر من وضع الخير لديك، وكن مثنيًا على من أحسن إليك، حيث أجاب سؤالك، وحقق آمالك، وصدق ظنك، وأضحك سنك، وأتحفك بكرائم كرمه، وأطلع فى أفقك نعائم نعمه، ولبى دعوتك، وروض عدوتك، ورعى جانبك، وبلغك مآربك، وقوى معينيك، وأيد معانيك، وأسكنك من العليا قبابًا، وفتح لك إلى دار السعادة أبوابًا:

وأولاك الجميل بغير مطل   وعن وجه الندى رفع الحجابا
وبل ثراك بالجدوى فحق   عليك تصير التقريظ دابا

إن قصر عن المكافأة بنانك، فليطل بنشر الشكر لسانك، فبه تدوم النعم، وهو داعية الجود والكرم، كثرته تبعث على بذل الألوف، وقلته تزهد فى اصطناع المعروف، فاجتهد فى إقامة شعاره، واحتفل برفع علمه وإعلاء مناره، وإياك والتقصير فى حق من شملك بفضله الغزير، وقم بواجب من قلدك عقود المنة، ولا تجعل الاعتذار بعجزك من غير حرص جنة:

أطلق لسانك بالثناء على الذى   أولاك حسن غرائب ورغائب
واشكره شكر الروض حياه الحيا   كيما تقوم له ببعض الواجب

أيها المتطول بأياديه، المتفضل بما غمر من غواديه، الجائد بأمواله، الزائد نيل نواله، المرتدى بأثواب الجلال، المبتدىء بالعطاء قبل السؤال، لو استطعت تمثيل حمدك ومدحك، واعتدادى بإفضالك العميم ومنحك، لأبرزته فى صورة تروق النواظر، وأفرغته فى قالب يسر القلوب والخواطر، لقد أترعت مواردى ومناهلى، وحملتنى من حقائب الجود ما أثقل كاهلى، وأرحت سرى بهبات هباتك، وقطعت أملى إلا من موارد صلاتك:

كم من يد بيضاء قد أسديتها   تثنى إليك عنان كل وداد
شكر الإله صنائعًا أوليتها   سلكت مع الأرواح فى الأجساد

إلام تنشر علىّ ملابس العوارف، وحتام تهدى إلى نفائس اللطائف، وتلحظ بعيون العناية، وتمد ظل الرعاية، وتصل أسباب الصنائع، وتأتى من الإحسان بما عهده محفوظ ونشره ضائع، من غير خدمة سابقة، ولا حرمة لهدى العواطف سائقة، طالما غنيت بالغناء من خيرك، وألهمتنى هاك عن الاجتماع بغيرك، وقابلتنى عطاياك بجبرك، ومنحتنى سماحتك من كنزها الوافر بخالص تبرها:

فلأشكرنك ما حييت وإن أمت   فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

صيرت لسانى كليلاً بعد حدته، وأعدت قلمى جافًا بعد غزارة مدته، فها أنا لا أطيق أداء بعض حقك، ولا يخرجنى فرط برك عن عهدة رقك، وكلما فرغت من شكر يد كثر مددها وصلتها بأياد جزيلة، أعد منها ولا أعددها، فلا تحدث لى بعدها زيادة، وارفق بعبدك فقد ملك العجز قياده:

أنت الذى قلدتنى نعمًا   أوهت قوى شكرى فقد ضعفا
لا تسدين إلىّ عارفة   حتى أقوم بشكر ما سلفا

وماذا عسى مادحك أن يقول، يا من فتن بحسن مناقبه العقول، المتكلم يقصر عن وصفك باعه، والبليغ يعجز عن حصر فضلك يراعه، والعالم يغرق فى بحرك، والناظم يلقط جواهر نثرك، على أن كلاً منهم لو استعار الدهر لسانًا، واتخذ الريح فى نقل أخبارك ترجمانًا، أدركه الملال ولم يصل إلى غايتك، وأعياه الكلال دون الوقوف عند نهايتك، فالله يتولى من مكافأتك ما هو أبلغ من شكر الناس، ويمتع الأولياء ببقاء ذاتك التى جلت عن النعت والقياس.

* * *

الفصل السابع والعشرون

فى الهناء

صحبنى شخص من الكتاب، له رفيق يدعى معرفة الآداب، فجاءنى يومًا من ديوان النظر قائلاً: كان رفيقى غائبًا ثم حضر، وقصدى إملاء شىء فى هذا المعنى، ولست أعرف لروض الأدب سواك مزنًا، فقلت له اكتب:

ورد البشير بما أقر العيون، وسكن هواجس الظنون، وشرح الصدور وأبهجها، وألجم خيل السرور وأسرجها، من إياب مولانا، مصحوبًا بالسلامة، مالكًا قياد الفضل وزمامه، فتلقاه العبد بمزيد القبول، واعترف بطيب عرفه الضائع قبل الوصول:

وتقاسم القوم المسرة بينهم قسمًا فكان أجلهم حظًا أنا

ولم يزل مدة غيبته مستديمًا لذكره مشاهدًا له، وإن شط المزار بعين فكره، متشوقًا إلى أيامه التى راق نعيمها، مرتقبًا نجوم لياليه التى رق كخلقه نسيمها:

ليالى لم نحذر حزون قطيعة ولم نمش إلا فى سهول وصال

إلى أن جمع الله به شتات الأمور، وألف بمقدمه من الأنس كل نفور، وأعاد بدره إلى منازل سعوده، وفطر قلب حسوده بصعدة صعوده، فله الحمد على نعمه التى لا تعد، وكرمه الذى تجاوزت سيوفه غاية الحد، وهو المسئول أن يعيذه من شر من حسد وطعن، ويكلأه بعينه التى لا تنام إن أقام أو ظعن.

ثم إنه وافانى بعد مدة، فحمل يراعه ومن النقس مده، وقال: إن رفيقى قد أبل من المرض، وما يخفى عن مثلك - أيدك الله - سر الغرض، فقلت له اكتب:

الحكمة - أطال الله بقاءك، وأدام صحتك وشفاءك - تقتضى المنح والمحن، وتوجب الفرح والحزن؛ ليتذكر أولو الألباب، وتتأكد أسباب الثواب، ولقد منعنى لذيذ الرقاد ما حصل لمولاى من الافتقاد، وأسكرنى بخمر التحير ما حصل لمزاجه اللطيف من التغير، يا لها غفلة من الدهر صدرت، وهفوة على غرة من الأمل ظهرت، حيث أزعج كريم جسده، وعلا على ذخر الملك وسنده، وارتقى من الرياسة إلى رأسها، وامتطى ذروة كاشف غمها ومزيل بأسها، وبالجملة فما اعتل إلا لأنه كالنسيم لطفًا، وما جاورته

الحمى إلا أنه كالأسد وصفًا:

لا تخش من ألمّ ألم مودعًا يا من بسيط العمر منه طويل
إن التى يدعونها الحمى على أسد الشرى وكذا النسيم عليل

وأنا أحمد الله على لبسه أثواب الصحة، ودخوله من العافية منزلاً مهد البرء صرحه، وأسأله أن يفيض عليه سحائب نواله الزائد، ولا يحوج شخصه المغرى بالصلة إلى عائد.

ثم إنه جاءنى بعد حين وأساريره تخبر أنه من الفرحين، فقال: إن رفيقى ولى الوزارة، فهل من رسالة تسفر عن حسن السفارة، فقلت له اكتب: أيد الله مولانا الوزير، وأفاض على الكافة فضله الغزير، وهنأه بهذه الرتبة التى أوضح وجه مذهبها، وبلغها بتحرير قلمه المهذب نهاية مطلبها، وأنمى بتدبيره أموالها، وقرر على القواعد المرضية أحوالها:

فلم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها

هذا ما كانت تنتظره النواظر، وتشهد بوقوعه خطرات الخواطر، وأسند الأمر إلى أهله، واجلب الخير بخيله ورجله، وأصاب الدهر فيما أمضاه من فعله، وانتهت القوس إلى باريها، وتمسكت الرعايا بعرا أمانيها، وزفت عروس الوزارة على كافلها وكافيها، ما أحق هذه البشرى بأن تبدى الرياض من ورودها لورودها نشرًا، وتميد الأغصان وتميل، ويتخلق الكون بزعفران الأصيل، ويتقلد الأفق بعقود نجومه الزواهر، وتنطق بشكرها ألسن الأقلام من أفواه المحابر:

سرت بك الدنيا وسكانها وامتلأت بشرًا صدور الصدور
وأجرت الأعداء سحب البكا للحزن وافترت ثغور الثغور

فالحمد لله، ثم الحمد لله والشكر له على ما أولاه من إسباغ نعمه المألوفة، ومعروف أياديه المعروفة، وإليه الرغبة فى إدامة سروره المتوالى، وإدارة فلك سعده على ممر الليالى.

ثم إنه قدم إلىّ بعد أيام وقال: إن الوزير بشر بغلام، فأمل علىّ - زادك الله رفعة - ما أشنف به من الهناء سمعه، فقلت له: اكتب: أهلاً بطلوع نجم السعادة، ومرحبًا بظهور هلال السيادة، غصن الشجرة الوارف ظلها، العالى فى جنات الفضائل محلها، أكرم بها من شجرة أصلها ثابت وفرعها النامى كل طرف إليه باهت، تؤتى أكلها كل حين، وتمنح برها الغادين والرائحين، يا له مولودًا راقت نضرته وتبسمت من خلال المكارم

زهرته، واهتزت لقدومه قدود العوالى، وارتاحت لمورده نفوس المعالى، واستشرفت له صدور المحافل، وتهيأت لخطبته عقائل المراتب والمنازل، فتهن به أيها الوزير وتمل بمشاهدة صبحه المنير:

وابشر فقد وافاك يوم رزقته   حظ بتخليد السرور زعيم

لا زالت التهانى بكعبة حرمك طائفة، ولا برحت المسرات على جنابك متضاعفة، ودمت راويًا حديث الجود عن أصلك بإسناده، جامعًا بين كرم طارف نجلك ويمن تلاده:

وبقيت حتى تستضىء برأيه   وترى الكهول الشيب من أولاده

فلما فرغ من نقشها، وتأمل محاسن رقشها، نشر أعلام الثناء والشكر، وتمايل طربًا كالثمل من السكر، واعتذر من التثقيل، واستعفى من القال والقيل، ثم ودعنى وبان، ولم أجتمع به إلى الآن.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

فى الرثاء

مات لمن يعز علىّ ولد، لم يبلغ من فصاله منتهى الأمد، وكنت أستحليه وأستجليه، إذا حصل الاجتماع بينى وبين أبيه، فأكثر وهو معذور من الوجد عليه، فكتبت على سبيل التعزية إليه:

برغمى أن أعنف فيك دهرًا قليلاً فكره بمعنفيه
وأن أرعى النجوم ولست فيها وأن أطأ التراب وأنت فيه

الدنيا مد الله فى عمرك وصبرك، ومحى آية الحزن من صحيفة صدرك، دار تمكر بسكانها، وتغدر بأهلها وجيرانها، كم أفنت قرونًا، وأسخنت بالبكاء عيونًا، ونثرت عقدًا، وأضرمت وقدًا، وأخلقت جديدًا، وأخذت من والد وليدًا، وفرقت شمل الأحباب، وألبست الأتراب أردية التراب:

وكم قد روعت قلبًا وساقت نحوه حزنا
وملت بعد أن مالت وأذوت بالردى غصنا

ولا كغصن دوحك الرطيب، وزهرة روضك الخصيب، الذى عز فقده، وهتك ستر المدامع بعده، وأحيا بموته الأسف، وشوى الأكباد على جمر التلف، يا له زائرًا، ما سلم حتى ودع مهاجرًا، خشع القلب لصده وتصدع، وطفلاً ذهب مبرأ من الذنوب والأوزار، وعصفورًا طار إلى الجنة وتركنا نتقلب فى تلهب النار، ودينارًا ولعت بصرفه أيدى الزمان، ودرة نقلها الدهر إلى صدف الأكفان، وهلالاً عاجله الخسوف قبل الإبدار، ونجمًا أخفاه إسفار صبح الأقدار:

يا كوكبًا ما كان أقصر عمره وكذاك عمر كواكب الأسحار

وقد علم الله شوقى إليه، وشدة قلقى وحرقى عليه، وغمى لمغيبه بعد إشراقه، وفرط بثى وحزنى لفراقه، وما سال من دموعى وساح، وأصاب جوارحى من الجراح:

موت الصغير مصيبة غاراتها ما تنقضى وكميها لم يقهر
قسمًا بمن يحيى رفات الخلق ما فقد الهشيم كفقد روض مزهر

ولقد أجرى ماء العيون معينًا، وكنا نرجوه معينًا، أعاد أيامنا سودًا وكانت به بيضًا لياليـنا، لـو أن الحتف يقبل الفدا، أو أن الحمية ترد الردى، لفديناه بالأموال والأرواح، وخضنا دونه بحار السيوف والرماح، ولكنه الكأس الذى يستوى فى شربه الصغير والكبير، والسبيل المحتوم سلوكه على المأمور والأمير، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وبحكمه راضون، ولأمره طائعون، له ما أعطى، وله ما أخذ، وهو الذى يرسل سهم المنية، ولولاه ما نفذ، وأنت أبقاك الله أولى من للقضاء سلم، وسكن منبسط النفس ولو بأنياب النوائب تكلم، وقابل القدر بوجه الرضا لا الغضب، والحمد لله على كل حال إن وهب أو سلب، فالجزع لا يجدى ولا يفيد، والماضى لا يعاد إلى يوم الوعيد، والأجر موقوف على الاحتساب، والله عنده حسن الثواب، فادخره للأخرى، فالدنيا متاع الغرور، ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

يا راحلاً أذهب عنا السرور	وكادت الأرض بنا أن تمور
ويا هلالاً بالخسوف اختفى	من قبل أن يدرك شأو البدور
إن كنت قد فارقت أهلاً فكم	حولك ولدان حسان وحور
جاورت من بعدك من ساءنى	ليهنك الجار الذى لا يجور
ويلاه من بدر رفيع مضى	تجارة العانى به لن تبور
شق الجيوب القوم لما سرى	لو أنصفوا شقوا عليه الصدور
ما كنت أدرى قبل دفنى له	أن الدرارى فى الصحارى تغور
لهفى على طفل فؤادى له	نعش ودمع العين غسل طهور
لهفى على زهرة روض زهت	فعوجلت بالقطف دون الزهور
لهفى على غصن ذوى قبل أن	يبدو لنا من نوره الغض نور
آهًا لذاك الوجه كيف انطوت	آياته الحسنى ليوم النشور
آهًا لدر قد غدا ثاويًا	فى صدف اللحد جوار القبور
آهًا لمر الهجر حلو الحلى	الوجد حق فيه والصبر زور
والله ما عجل يوم النوى	إلا لنحظى فى غد بالأجور
ما هذه الدنيا وسحقًا لما	تلهى به الأمتاع الغرور
تمحو بكف الحتف رسم الورى	لما اغتدوا فى رقها كالسطور
ما تأتلى من غير خوف إلى	دار البلى تنقل أهل القصور

كـم مـن رحى للموت فيها على   ضـائع أعمـار الـبرايا تـدور
أخنـى علينا الدهـر فى أخذ من   كـنا نـرجيه لـسد الـثغور
يـا دهر بالإمرة كـم تعتـدى   ألا إلى الله تصيـر الأمـور

* * *

الفصل التاسع والعشرون

فى الحكم

العلم نعم السمير، والعقل بشير بالخير يشير، اجتهد فى طلب العلوم تنفرد بما يرفعك إلى النجوم، الجد يبذل اللها، والفضل بالأدب والنهى، من صادق العلماء زها بدره، ومن رافق السفهاء وهى قدره، العلم ثمرته الإنصاف، والزهد نتيجته العفاف، التقوى أفضل حلة، والمروءة أجل خلة، الحق سيف قاطع، والحلم درع مانع، الزم الحجا فهو ألطف سائس، ولا تعدل عن العدل، فهو أحفظ حارس، العقل أحسن المواهب، والجهل أقبح المصائب:

العقل أحسن معقل فاهرع إلى ... أبوابه العليا تنل كل العلا

واعلم بأن الشيء يرخص كثرةً ... والعقل إن كثرت حواصله غلا

من رضى بالقدر وقى شر الحذر، اليأس يعز الأصاغر، والطمع يذل الأكابر، حاسب نفسك تسلم، ولا تقتحم الأخطار تندم. من سره الفساد فى الأرض ساءه طول التعب يوم العرض، لا تقل إلا ما يطيب عنك نشره، ولا تفعل إلا ما يسطر لك أجره. السعيد من اتعظ بماضى أمسه، والشقى من ضن بخيره على نفسه. لا تغرنك صحة بدنك اليسيرة، فمدة العمر - وإن طالت - قصيرة. من لم يعتبر بالمساء والصباح لم يرتدع بقول اللوام والنصاح. من قنع برزقه استغنى، ومن صبر نال ما يتمنى.

إذا الرزق عنك نأى فاصطبر ... ومنه اقتنع بالذى قد حصل

ولا تتعب النفس فى تحصيله ... فإن كان ثم نصيب وصل

من أنس بالآخرة فاز بالملابس الفاخرة، من رفع حاجته إلى الله نجحت، ومن تمسك بغيره خسرت تجارته وما ربحت. من لم تفسد شهوته دينه، وصل إلى الأماكن المكنية. أبصر الناس من نظر إلى عيوبه، ولجأ إلى ربه فى التجاوز عن ذنوبه. أرفع الأعمال ما أوجب شكراً، وأنفع الأموال ما أعقب أجراً. الدنيا ظل زائل، والشيبة ضيف راحل. من غالب الحق غلب، ومن استهان بالدين سلب. لا تخل نفسك من فكرة تدنى من طرفك وقلبك قراراً وقره. عد عن طاعة هواك، واحذر من مخالفة مولاك:

لا تتابع هواك يا ذا المعاصي واجتنب ذلة الهوى والهوان
أحمق الناس من أطاع هواه وتمنى على الإله الأماني

من وثق بالله أغناه، ومن خرج عن حكمه عناه، من لزم شأنه دامت سلامته، ومن حفظ لسانه قلت ندامته. الصمت يرفع لك المنار، ويخلع عليك ثوب الوقار. الزمان لا يبقى على حال، والدنيا طبعها الغدر والملال، تفتن بزهرتها الذاوية، وتخدع بزينتها المتلاشية. لا تفن عمرك فى المعاصى، وخذ حذرك من مالك النواصى. إياك وكثرة الكلام، فإنها تنفر عنك الكرام. ما سعد من شقى صاحبه، وما عز من ذلت أقاربه. من لزم شكر الإحسان استدام عدم الحرمان. لا تودع سرك غير صدرك، ولا تتكلم بما يحوجك إلى إقامة عذرك:

تفرد بحفظ السر وحدك لا تثق إلى أحد فيه ولو كان من كانا
فإنك أن أودعت سرك عاقلاً يزل وإن أودعته جاهلاً خانا

من بسط يده بالجود خرج من العدم إلى الوجود. من علا علم شيمته غلا مقدار قيمته. استر براً يظهر من يديك، وانشر معروفًا يسدى إليك. من أحسن إلى جاره أطلع قمر الحمد فى داره، ومن جاد لطلب الجزاء فليس بكريم، ومن صفح لعدم القدرة فليس بحليم. أحسن الخلق ما حثك على المكارم، وأوضح الطرق ما كفك عن المحارم. عى تسلم بميلك إليه خير من نطق تندم عليه. من قل عقله كثر قوله، ومن زكا أصله تواتر طوله. توق جناية اللسان، ولا تأمن من سطوات الزمان، واستعذ من شر أفعى أفعالك، وتحل بالصدق فى جميع أحوالك.

الصدق يورث قائليه مهابة سر نحوه نعم الطريق طريقه
واحفظ به عهد الصحاب فإنه من قل منه الصدق قل صديقه

لا تعج عن سبيل الصواب، ولذ بجناب رب الأرباب، واسع إلى باب من بيده الملك وهو على كل شىء قدير، واخش من يعلم السر وأخفى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

* * *

الفصل الثلاثون

فى المواعظ

أعلمنى من أثق بنقله، ولا أشك فى معرفته وفضله، بقدوم بليغ من الوعاظ، يبرز دقائق المعانى فى جليل الألفاظ، وأشار بحضور مجلسه، والاهتداء بضوء قبسه، فقبلت الإشارة، وانتظمت فى سلك السيارة، حتى أفضينا إلى ناد فسيح، لسان مناديه فصيح، قد جمع بين الغنى والفقير، واشتمل على المأمور والأمير، وإذا بشيخ قائم فى بهرة حلقته، يفتن بسحر الكلام قلوب فرقته، فسمعته يقول: أيها الناس، ما الموت بساه ولا ناس، فتأهبوا لحلوله، واستعدوا له قبل نزوله، وحصلوا الراحلة والزاد، وردوا العاصى إلى الطريق فقد زاد، ولا تعدلوا عن محجة الحجا، واتقوا دعوة المظلوم فى ظلام الدجا، وآمنوا بالقدر خيره وشره، وارضوا بالقضاء حلوه ومره، وأفرغوا ذنوب الذنوب، وافزعوا إلى علام الغيوب، وامنعوا من الأمل ما كان جموحًا، وتوبوا إلى الله توبة نصوحًا:

وتجنبوا سبق الخطا فلكم هوى رب الهوى من حصنه وعقابه
وتمسكوا بجناب تقوى ربكم كى تسلموا من خزيه وعقابه

وإياكم والدنيا فإنها تمكر بصاحبها، وتهدى إلى أقاربها سم عقاربها، عامرها خراب، وغامرها سراب، أمدها قصير، وإلى الفناء تصير، صفوها كدر، وجرحها هدر، والخاطر بها على خطر؛ لأنها لا تبقى ولا تذر، بحرها العميق كم له من غريق، فاركبوا فيها من التقى فلكًا منيعة، واجعلوا شراعها التمسك بعرا الشريعة، لعلكم تبلغون الساحل، ويقدم بشير بشركم الراحل، وهى قنطرة فاعبروها ولا تعمروها، واخشوا عيون شركها المفتوحة لكسركم واحذروها:

مجاز حقيقتها فاعبروا ولا تعمروا هونوها تهن
فما حسن بيت له زخرف تراه إذا زلزلت لم يكن

ابن آدم ما أكثر حرصك وشرك ومرضك، وأجزل حرصك وأشرك، وأقوى على من دونك ظفرك، وأضعف بمن فوقك ظفرك، وأخجل من يؤنبك، وأتعب من يتعبك، ووثبك إلى صيد الحرام، وأشد شرهك على الحطام، أما علمت أن الشره فى عين

الرجل مره لا بالقليل تقنع، ولا من الكثير تشبع، ولا إلى المواعظ تصغى، ولا تبغى أنك لا تبغى، أنفاسك معدودة، وأوقاتك محدودة، ومالك عارية مردودة، وذاتك الموجودة عن قريب مفقودة:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يومًا أن ترد الودائع

ويحك أتحسب أنك تترك سدى، أو أن الحقوق تبطل بطول المدى، كلا يا كليل الذهن، لتبعثن يوم تكون الجبال كالعهن، ولتحاسبن على الذرة والبرة، إن الله لا يظلم مثقال ذرة:

تنبه أيها المغرور واسأل إلهك مرة من بعد مره
وقف بالباب معتذرًا لتحظى من البر المهيمن بالمبره
ولا تركن إلى الدنيا ففيها من الأحزان ما يخفى المسره
ألا بعدًا لها من دار قوم بها يرضون وهى لهم مضره
تعر من الذنوب فعن قريب تحل من الممات بك المعره
وبالنزر اقتنع فالحرص ذل وإياك الهوى وتوق شره
وحلو العيش لا تقربه واصبر وإن كانت حميا الصبر مره

يا أرباب الملابس الفاخرة، الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة، ما هذه الغفلة التى رانت على قلوبكم؟! ما هذه الدعة التى خطبتكم إلى خطوبكم؟! ما هذا القذى الذى أعشى أبصاركم؟! ما هذا الطمع الذى ألحق بالعبيد أحراركم؟! أما آن لكم أن تنيبوا وتصغوا إلى داع الفلاح وتجيبوا؟! بلى والله آن وظهر فجر الحق، وبان فاجنحوا إلى الطاعة، ولازموا أهل السنة والجماعة، واشتملوا على الخيرات قبل أن تمزقوا، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وأخلصوا فى الأعمال، واقطعوا حبائل الآمال، وتزودوا للرحيل عن الوطن، واجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحلوا بعقود المكارم، وتخلوا عن انتهاك المحارم، وجدوا كى تنالوا جد المجتهدين، ﴿ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، واعقلوا بالشكر شوارد النعم، وصونوا أعراضكم ببذل النعم، واتخذوا الصبر على البلوى عدة وجنة، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة:

أحسن بها من جنة عالية قطوفها للمجتنى دانيه
آذان أهليها أولى العزم لا تسمع فيها أبدًا لاغيه

وجـوههم فـيها ويـا حـسنها   ناعمـة مرضـية راضـيه
الحـور والـولدان مـن حـولهم   يـسعون فـى روضـاتها الـزاهية
كـم سـرر للـوفد مـرفوعة   فـيها وكـم مـن أعـين جاريـه
مبـثوثة فـيها زرابـيها   موضـوعة أكـوابها الـصافيه
فاجتهـدوا كى تدخلوها غـدا   يوم دخـول الفرقـة الناجيـه

إلام تهتمون فى إدراك الغرض؟ وتذهبون جوهر نفوسكم فى تحصيل العرض؟ وتستبدلون الضلالة بالهدى؟ وترتدون بما يوقعكم فى الردى؟ وتسمحون بشركم وتبخلون بخيركم؟ وتسوفون بالعمل كأن منفعته لغيركم؟ ألا حسنوا الصفات لتكريم الذات، وأكثروا من ذكر هاذم اللذات، واستيقظوا من سنة الفترة، واتقوا النار ولو بشق تمرة، فأنى بكم إذا أصبحتم أمواتًا؟! وعدتم بعد الرفاهية رفاتًا؟! ونقلتم إلى دار البلى؟ وأجيب السائل عن بقائكم بلا؟! وفجع بكم الأحباب؟ وغلقت دونكم الأبواب؟ وانقلبتم فى قليب البرزخ؟ وأضحت عقودكم تحل وتفسخ؟! أم كيف بكم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور؟! ووقفتم للعرض على من بيده مقاليد الأمور؟! ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

ثم إنه بسط للدعاء يديه، وأجرى سوابق دمعه على خديه، فبكى القوم لبكائه، وأمنوا على صالح دعائه، فلما فرغ أقبل الناس إليه، وأكثروا من تعظيمه والثناء عليه، فمن لاثم راحته، وقاصد بالجود راحته، وملتمس بركة عنايته، وناطق بشكر نصحه وهدايته، وهو يروح أرواحهم المكروبة، ويسقى كل واحد منهم مشروبه، ثم ولى يتهادى بين صحابته، وانسحبت عنا أذيال سحابته، فمضيت قرير الناظر، منشرح الصدر والخاطر، متعظًا بما استمعت من قول النصيح، مستنشقًا من عرف الشيخ عرف الشيح، حامدًا صحبة المشير الذى لم يزل من المحسنين، مصليًا على من أنزل عليه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

هذا آخر ما نطق به لسان اليراع، وانتهى ما أورده نسيم الصبا من أخباره الطيبة على الأسماع، والله المسئول فى غفر الذنوب، وستر العوار، ومسامحة ذى اللعب، والخوض بوروده الحوض يوم الأوار، وله الحمد على سابغ نعمه، وما مَنَّ به من فيض فضله ودوام ديمه، والصلاة والسلام على صاحب المقال والمقام، سيدنا محمد المؤيد باللسن والبراعة، صلاةً وسلامًا دائمين إلى يوم الساعة، آمين.

صفة صاحب الذوق السليم ومسلوب الذوق

لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

المتوفى سنة ٩١١ هـ

اعتنى به

مصطفى عبد القادر عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف فى سطور

نسبه:

هـو: عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الخضيرى الأسيوطى، ويلقب بجلال الـدين، ويكنى بأبى الفضل، والخضيرى، والأسيوطى نسبة إلى بلده «أسيوط» التى ولد فيها وعاش أبوه وأجداده قبل أن يأتوا إلى القاهرة.

مولده:

ولد السيوطى فى القاهرة فى أول رجب سنة تسع وأربعين وثمان ومائة، تولى والده أمـر تعلـيمه مـنذ صـغره، وقد حفظ من القرآن حتى سورة التحريم ثم توفى والده ولم يكن قد أتم حفظ القرآن كله، وكان وقتئذ فى الخامسة من عمره.

ترجمة السيوطى لنفسه:

ولقد ترجم السيوطى لنفسه فى كناية «حسن المحاضرة» فقال: عبدالرحمن بن الكمال ابـن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان ابن ناصر الدين محمد بن سيف الـدين خـضر بـن نجـم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الخضيرى الأسيوطى.

أمـا جـدى الأعلـى همام الدين فكان من أهل الحقيقة، ومن مشايخ الطريقة، ومن دونـه كانـوا مـن أهـل الـوجاهة والرياسـة، منهم من ولى الحكم ببلده، ومنهم من ولى الحـسبة بهـا، ومـنهم مـن كـان تاجراً فى صحبة الأمير شيخون، وبنى مدرسة بأسيوط ووقـف علـيها أوقافًـا، ومـنهم مـن كان متجولاً، ولا أعرف منهم من خدم العلم حق الخدمة إلا والدى.

وأما نسبتنا إلى الخضيرى فلا أعلم ما تكون هذه النسبة إلا الخضرية محلة ببغداد.

وقـد حدثنـى من أثق به أنه سمع والدى رحمه الله تعالى يذكر أن جده الأعلى كان أعجميًا أو من الشرق، فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة.

وكـان مـولدى بعـد المغـرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وحملـت فـى حـياة أبـى إلى الـشيخ محمد المجذوب، رجل من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيس، فبارك على.

ونشأت يتيمًا، فحفظت القرآن ولى دون ثمانى سنين، ثم حفظت العمدة، ومنهاج الفقه، والنحو، عن جماعة من الشيوخ، وأخذت الفرائض عن العلامة. فرضى زمانه الشيخ شهاب الدين الشارساحى الذى كان يقال إنه بلغ السن العالية، وجاوز المائة بكثير - والله أعلم بذلك - قرأت عليه شرحه، وأجزت بتدريس العربية فى مستهل سنة ست وستين وثمانمائة.

وقد ألفت فى هذه السنة، فكان أول شىء ألفته «شرح الاستعاذة والبسملة» وأوقفت عليه شيخنا علم الدين البلقينى، فكتب عليه تقريظًا، ولازمته فى الفقه إلى أن مات.

فلزمت ولده، وقرأت عليه من أول التدريب لوالده إلى الوكالة، وسمعت عليه من أول الحاوى الصغير إلى العدد، ومن أول المنهاج إلى الزكاة، ومن أول التنبيه إلى قريب من الزكاة، وقطعة من الروضة، من باب القضاء، وقطعة من تكملةشرح المنهاج للزركشى، ومن إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها، وأجازنى بالتدريس والإفتاء من سنة ست وسبعين وثمانمائة وحضر تصديرى.

فلما توفى سنة ثمان وسبعين وثمانمائة لزمت شيخ الإسلام شرف الدين المناوى، فقرأت عليه قطعة من المنهاج، وسمعته عليه فى التقسيم إلا مجالس فاتتنى، وسمعت دروسًا من شرح البهجة، ومن حاشيته عليها، ومن شرح البيضاوى.

ولزمت فى الحديث والعربية شيخنا العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى فواظبته أربع سنين، وكتب لى تقريظًا على شرح ألفية ابن مالك، وعلى جمع الجوامع فى العربية تأليفى، وشهد لى غيره مرة بالتقدم فى العلوم بلسانه وبنانه، ورجع إلى قولى مجردًا فى حديث، فإنه أورد فى شرحه على الشفا وحديث ابن أبى الجمرة فى الإسراء، وعزاه إلى تخريج ابن ماجه، فاحتجت إلى إيراده بسنده، فكشفت فى ابن ماجه فلم أجده، فمررت على الكتاب كله فلم أجده، فاتهمت نظرى فمررت مرة ثانية فلم أجده، فعدت ثالثة فلم أجده، وجدته فى «معجم الصحابة» لابن قانع، فجئت إلى الشيخ وأخبرته، فبمجرد ما سمع منى ذلك أخذ نسخته، وأخذ القلم فضرب على ابن ماجه وألحق ابن قانع فى الحاشية، فأعظمت ذلك، وهبته لعظم منزلة الشيخ فى قلبى، واحتقارى فى نفسى، وقلت: إلا تصبرون لعلكم تراجعون! فقال: لا، إنما قلدت فى قولى ابن ماجه البرهان الحلبى، ولم أنفك عن الشيخ إلى أن مات.

ولزمت شيخنا العلامة أستاذ الوجود محيي الدين الكافيجى أربع عشرة سنة، فأخذت

عنه الفنون من التفسير والأصول والعربية والمعانى وغير ذلك، وكتب لى إجازة عظيمة.

وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفى دروسًا عديدة فى الكشاف والتوضيح، وحاشيته عليه، وتلخيص المفتاح، والعضد.

وشرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين وثمانمائة، وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه.

وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، والتكرور.

ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور منها: أن أصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى، وفى الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر.

وعقدت إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة.

ورزقت التبحر فى سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعانى، والبديع، على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم، وأهل الفلسفة، والذى اعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التى اطلعت عليها لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضلاً عمن دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخى فيه أوسع نظرًا وأطول باعًا.

ودون هذه السبعة فى المعرفة: أصول الفقه، والجدل، والتعريف، ودونها الإنشاء، والترسل، والفرائض، ودونها القراءات - ولم آخذ عن شيخ - ودونها الطب.

وأما علم الحساب، فهو أعسر شىء على، وأبعد عن ذهنى، وإذا نظرت مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلاً أحمله، وقد كملت عندى آلات الاجتهاد بحمد الله. أقول ذلك تحدثًا بنعمة الله، لا فخر أو أى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها فى الفخر، وقد أزف الرحيل، وبدأ الشيب، وذهب أطيب العمر.

ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفًا لها بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها وتقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيهما لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولى، ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وقد كنت فى مبادىء الطلب قرأت شيئًا فى علم المنطق، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى، وسمعت أن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك، فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث الذى هو أشرف العلوم.

أما مشايخى فى الرواية سماعًا وإجازة، فكثيرون أوردتهم فى المعجم الذى جمعتهم

فـيه. وعـدتهم نحـو مائـة وخمـسين، ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالى بماهو أهم وهو قراءة الدراية.

ثـم ذكـر الإمام السيوطى أسماء مصنفاته فأطال فى ذكرها، وقد ذكرناها فى كتاب «حسن المقصد فى عمل المولد» الدراسة.

ثناء العلماء على السيوطى

ثناء ابن العماد الحنبلى: قال ابن العماد فى الامام السيوطى:

«المسند المحقـق المدقـق صاحب المؤلفات الفائقة..... ولو لم يكن من الكرامات غلا كثرة مع تحريرها وتدقيقها لكفى شاهداً لمن يؤمن بالقدرة».

ثناء الأمام الشوكانى: قال الإمام الشوكانى فى الإمام السيوطى:

«إمـام كـبير فـى الكتاب والسنة، محيط بعلوم الاجتهاد إحاطة متضاعفة، عالم بعلوم خارجة عنها».

وقـال: «بـرز فـى جمـيع الفـنون، وفـاق الأقران و اشتهر ذكره، وبعد صيته وصنف الكـتب المفـيدة كالجـامعين فـى الحـديث، والدر المنثور فى التفسير، والإتقان فى علوم القرآن، وتصانيفه فى كل فن من الفنون مقبولة وقد سارت فى الأقطار مسير النهار».

وفاة الإمام السيوطى:

وهكـذا فإننا نجد أنفسنا أمام قمة من شوامخ العلم والحفظ وتنوع الثقافة، والإجادة فى الكثير جداً من الكتب.

وفـى لـيل الجمعـة فـى التاسـع من جمادى الولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة أسلم السيوطى روحه الطاهرة إلى بارئها، ودفن بحصن قوصون، خارج باب القرافة بالقاهرة، ومازال حياً بيننا بما تركه لنا من تراث ننهل منه علماً فى كل لحظة.

رحم الله **الإمام السيوطى**، وجعل أعماله فى صحائفه يوم القيامة و أجزانا به.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

ينظـر تـرجمته فـى: الكواكب السائرة (١/ ٢٢٦) وشذرات الذهب (٨/ ٥١) وآداب اللغة (٣/ ٢٢٨)، والضوء اللامع (٤/ ٦٥).

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نثق

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، وفضله على جميع الحيوان، بنطق اللسان، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، وجعله سميعاً بصيراً، ثم هداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً، كور الليل على النهار، وكور النهار على الليل، وخلق الخلق أطوار، وجعل الثقلين فريقين، فله الحكم والتدبير، فريق في الجنة وفريق في السعير. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون، وأما الذين شقوا فمأواهم النار جزاء بما كانوا يعملون.

أحمد حمداً يوافي نعمه، وأسأله المزيد من رفده «وإن مِن شَيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ» ثم الصلاة على سيدنا محمد رسوله وعبده.

أما بعد: وفقنا الله وإياك للصواب، وفتح لنا ولك من الخير أحسن باب، فتدبر ما حوى هذا الكتاب، من صفات أولي الألباب، وأضدادهم الحائدين عن الصواب.

أعلم بأن الذوق السليم نتيجة الذكاء المفرط، والذكاء المفرط نتيجة العقل الزائد، والعقل الزائد سر أسكنه الله في أحب الخلق إليه، وأحب الخلق إليه الأنبياء، وخلاصة الأنبياء نبينا محمد ﷺ، فهو عليه السلام أكمل الناس عقلاً، وأرضاهم خلقاً، وأكثرهم فضلاً، فمن وصفه صلى الله عليه وسلم ما قاله القاضي عياض في (الشفا) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً».

وعن علي رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن ستة، فقال: «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر زادي، والرضى غنيمتي، والفقر فخري، والصدقة شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني الصلاة».

ومما أفيض من بركته ﷺ على علماء هذه الأمة وعقلائها وفصاحتها، فمن ذلك صاحب الذوق السليم ومن ذلك صاحب الذكاء المفرط ومن ذلك صاحب العقل الزائد.

وضدهم من الأشرار في الدرك الأسفل من النار.

صاحب الذوق السليم: مزاجه مستقيم، طبعه وزان، وفيه أنواع الإنسان، يتخذ التواضع سنة، والعطاء من غير منة، والعفو عند المقدرة، والتغفل عن المعيرة، لا يزدري فقير، ولا يتعاظم بأمير، لا ينهر سائل، ولا هو عما لا يعنيه سائل، كريم طروب، قليل العيوب، كثير المزاح، جميع خصائله ملاح، منادمته آلف من الراح، صاحب الأصحاب، حبيب الأحباب، ليس بكثيف، مكمل الذات، مليح الصفات ليس بقتات، يواسيك ويسليك، ويتوجع إليك، ويعظك ويتحفك بعلمه وماله، ولا يحوجك إلى سؤاله، ينظر إلى المضطر بعين الفراسه، ويواسيه بكياسة، رجل همام والسلام.

صاحب الذكاء المفرط: جوابه مسكت، يشارك العلماء من غير اشتغال، ولا يتكلم بمحال على كل حال، تخيله صحيح وتكلمه مليح فصيح، لا يحتاج إلى المنطق ولا إلى الألفية، وتلك المعالم من نفسه سجية، يرتب الألغاز والأحجيات، ولا يحتاج إلى العروض في تلك الأبيات، يصنف مثاتيل وخزعبلات، رجل دهقان، صاحب ذكاء ملسان، يصنف مثل الألفية، وله في تلك العلوم غية، يهندس ويرتب ويفصل، ويديون، ويحصل، صاحب حساب وديونة، وفراسة وعنونة، يركب أطعمة وشرابات، ومعاجين وعلوكات، يعرف الطب والجراح، وأياديه في كل صنعة ملاح.

صاحب العقل الزائد: خيره متزايد، شره متباعد، رضي الخلق حليم، عفيف النفس كريم، ليس بكذاب ولا لئيم، لا يفرح بالمصيبة لأعدائه، مشتغل بأدوائه، لا يقصد إلا رضى الله، راش بما قسم الله، ينظر إلى المضطر بعين الفراسة، ويواسيه بكياسة، لا يحسد الأمير لإمارته، ولا التاجر على تجارته، مشتغل بالله فهو عبد الله، كثير الصمت والسكون، جعل الله لقلبه عيون، فهو ضد المجنون، لا يتكلم بغيبة، ولا يفرح بمصيبة، كيس ليس بزاعج، وهو للأرواح ممازج، يبذل المجهود في رضى الأصحاب، وهو من أولي الألباب، يفتح لكل خير باب، عارف بطريق الصواب، يكرم الفقراء، ولا يجالس كثيف، ولا يمل كل لطيف، رجل همام والسلام.

وضد ذلك من الأشرار في الدرك الأسفل من النار، وهو المنافق، لغير دين الله موافق، كلب أجرب، للقلب خرب، ثوب جثمانه من النفاق مضرب، فهو للشيطان أقرب، بالدينين يلعب زنديق مذبذب، لا يأكل لحم الأضاحي ولا يبات ليلة في رمضان

صاحي، إن عبر كنيسة اليهود قاموا له بالجلود، وإن عبر كنيسة النصارى وقع في الخسارى، صلاته عوجاء، لا وضوء ولا استنجاء، لا يعبر جامع المسلمين، إلا أن يكون يتفرج على القناديل، خوان ليس بأمين، يشهد بالزور في كل الأمور، إن خوصم فجر، وإن شهد قهر، وإن استؤمن خان، في كل زمان، في كل الملل حيران، فهو من أهل النيران.

الثاني: المسلوب الذوق الأحمق، عقله ممزق وعيناه تتبحلق، يعيط ويبقبق، ساحله مزحلق، من كثرة حمقه يزملق، ولزوجته يطلق، لا يهتدي لصواب، ولا يتأمل رد جواب، إن مدحته ازدراك، وإن تركته عاداك وهجاك، ما لعلته دواء، والخير والشر عنده سواء، لو فرشت خدك بالأرض، ظن إن ذلك عليك فرض، إذا لبس الشيء الحديد، يظن الناس كلهم له عبيد، في نفسه غلطان، ويظن أنه سلطان، هيولى مطلق، سالبه كلية فهو من لبلية.

وَمِنَ البَلِيَّةِ عَذلُ مَن لا يرعوي عن جَهلِه وخِطابُ مَن لا يَفهَم

فهو من أنكاد الدهر، والخلق جميعاً منه في قهر، رجل مطلاق، سيىء الأخلاق، سبحان الملك الخلاق.

لِكُلِ داء دواء يُستَطَبُّ بِه إلاّ الحَماقَة أعيت مَن يُداوِيها

قيل للسيد المسيح صلوات الله وسلامه عليه، أنت تبرىء الأكمة والأبرص، وتحيى الموتى بإذن الله تعالى ولا تداوي الأحمق؟ فقال: هذا الداء أعياني.

الثالث: النذل من الرجال، قليل الوفاء، مصفوح القفا، قليل الغيرة، مع كل خيل مغيرة، قليل الأدب، كثير الضحك بلا عجب، كثير النوم، قليل الهمة بين القوم، لا يقضي حاجة، كثير اللجاجة، يأكل الكد الكثير، ولا يرى لذلك تأثير، ولو خربت الشام وسائر الثغور، تراه من غير فكره في البجاقات يدور، يلتذ بالكفاح كما يلتذ غيره بالنكاح، يغوى الخصال القباح، ويترك الخصائل الملاح، كثير العيوب، وهو من الذوق مسلوب، وفيه أحسن من قال:

يَدَعُ الذُبابُ جَميع جِسمِك سالِماً وتَراهُ لا يأوي لِغيرِ جَرِيحَةِ

كالنَّذل يَعدِلُ عن جَميلِ صَديقِهِ وتَراهُ لا يأتِي لِغيرِ قَبيحَةِ

رحم الله من تأمل هذه الخصال، وجعل بينه وبينها انفصال.

فصل صاحب الذوق السليم من الملوك

قد سلك في المملكة أحسن سلوك، أقامه الله لمصالح العباد، بذلك أجاد وساد، وعاد إلى الخير وصار بذلك لأولد الملوك أستاذ، يعدل في الرعية ولا يجعل عسكره سوية، بل ينزل الناس منازلهم، ولا يقطع عوائدهم، يستن السنة الحسنة، ويعلم إن (عدل ساعة خير من عبادة ألف سنة)، كريم سيوس، لا يعجل في إتلاف النفوس، يجير الخائف، ويغيث الملهوف، حامي دين الله بحد السيوف، مجاهد مرابط، فهو لدين الله ضابط، يملك سائر الثغور، مؤيد منصور، ناصر طاهر، كامل وافر، رأيه سعيد، فعله رشيد ورأيه سديد، إذا وعد وفا، قليل الجفاء، لا يقرب السفهاء ولا الفساق، خشية من سخط الخلاق، قليل الخطاء، كثير العطاء، تاج الملوك، مليح السلوك، فهو لله مملوك، كثير التواضع والسماح، خصائله كلها ملاح، وقد وهبه الله النصرة والنجاح والعفة والصلاح.

وضد ذلك المسلوب الذوق الأحمق من الملوك

لا يفهم للملكة سلوك، يتبع خطوات الشيطان، يستعمل أظلم العمال، لأجل جمع المال، فيخرب البلاد، ويهلك العباد، وتصير بذلك أمراؤه جائعين ومماليكه ضائعين، فما بال حال البائس الفقير المسكين، تعطلت صناعته، وكسدت بضاعته، فلا أمير فرحان بإمارته، ولا تاجر يربح في تجارته. يؤمر اللؤماء على الكرماء، ويهين الفقراء ويزدري العلماء، أيامه ظلام، على جميع الأنام، فيصير القدر مهان، وكأن الخلق في زمن عبد الملك بن مروان، إذ ولى الحجاج، كم لها من هاج، في ذلك المنهاج، لما فعله بالمسلمين، ﴿ الا لَعـنَةُ اللهِ عَلـى الظـالِمِين﴾ . جبار عنيد، كأنه الوليد، وأعظم من ذلك في الظلم يزيد، إن وعد أخلف، وإن أصلح أتلف، ما لمملكته رتبة، وأجلابه أنحس جلبة، لا يغيث ملهوف ولا له مع رافد معروف، ولا يكشف كربة، ولا يطلب عن الله قربة، كأنه الشيخ عقبة، يقتدي بآراء الفساق، أحمق سيىء الأخلاق، سبحان الخلاق؛ يعجل في إتلاف النفوس برأيه المعكوس، لا يتأمل كلام من كذب عنده ولا من صدق، والدعوى عنده لمن سبق، لا ينظر من كذب في أحوال العباد، كأنه من قوم عاد، يريد أن يكون ل بالصلاح سمعاً، وهو كما قال الله تعالى: ﴿ وَهُم يَحسَبون اَنَّهُم يُحسِنون صُنعاً﴾.

صاحب الذوق السليم من الأمراء

يميل الميمنة على الميسرة في الحرب، ويكشف عن الجيوش الكرب، سيفه قاطع ودرعه مانع، وهو للمسلمين أنفع نافع، يوهب المماليك، ويتفقد الأرامل والصعاليك، فارس الخيل كرمه كالسيل، جوامك غلمانه مغلقة ، مكثر الشفقة، كثير الخير والصدقة، رماح مليح، واعتماده في النشاب مليح، يضرب بالسيف ما عنده جور ولا حيف، معاملته جيدة، وحركاته مؤيدة، يخالف الشيطان، وهو طوع الإنسان، ما عنده لا كير ولا نفاق، بشوش طيب الأخلاق، لا ينهمك على الأقداح ، بل ينهمك على الصلاح، ذو حشمة وهمة، وهيبة ولمة، يملك الأمر، أشجع من تسور على أفراسه للعدى، كثير الاحتمال، عارف بمواقع الرجال في الحرب والنزال، يأكل السلطان حلال، واقف بباب الفقير كالأسير، فهو نعم الأمير.

وضده المسلوب الذوق من الأمراء

في الأصل جندي خرا مسخرة، بيته مسكرة، عيشه مكدرة، جوامك غلمانه منكسرة، قليل الدين، يظلم المساكين ومماليكه ضائعين، لا جامكية ولا عليق، فهم يخطفون العمائم ويقطعون الطريق، ما يؤدي حقاً من الحقوق، لا لله ولا لمخلوق، فهو شيخ الفسوق، بيته من الخير ناشف، ما يخدمه عارف، إن خدمه أستادار وقع في النار، كذلك المهتار والفراش والطشتدار، قليل الهمة، ما يطلع لخدمة، في نفسه غلطان، وفي ظنه يبقى سلطان، منتن الذقن خسيس، أنحس من إبليس، ظالم غاشم، ما يخشى المآثم.

صاحب الذوق السليم من الأجناد

قليل العناد منفعة للعباد، لا يتلفظ بستكم ولا بقواد، في رمي النشاب، وضرب السيف ولعب الرمح أستاذ، طيب الكلام، ما يلعب بلكام، مواظب الخمس، ما عنده لا حيف ولا ميل، كميت الحرب فارس الشرق والغرب، قد عرف مواقع الرجال، كثير الاحتمال والنزال سلامه مليح، وإيمانه صحيح، يتجنب القول القبيح، لسانه فصيح، من أحسن الجيوش، عاقل سيوس، ما يستخدم غلام منحوس، ما يحاسب عائلته على شيء من الفلوس.

وضده المسلوب الذوق من الأجناد

كثير العناد، مرصد لظلم العباد، يقال له يا سيدي، يقول عله ستكم قواد، خرباطي

عتيق، يخطف العمائم ويقطع الطريق، زنديق حليق، ما له صاحب ولا صديق، شرابه الأمراق وصرمه مخرق من الأطباق علق زقاقي، لا يصلح منه تبع ولا وشاقي، ما يقدر على عليق الفرس، وفي قلوب الحكام منه غصص،ما له دين، يظلم المساكين، لا هو عاقل مع العقال، ولا مجنون مع المجانين.

صاحب الذوق السليم من الأتراك

كبير ظريف، عفيف شريف مشتغل بكمال نفسه، وملاعبة زوجته ويعلم فرسه، وإصلاح قوسه، فذلك أحب المباحات إلى الله، يبتغي بذلك وجه الله، سيفه قاطع ودرعه مانع، ثابت الجنان ليس بجبان، ولا باخل ولا منان، كثير الإحسان، باليد واللسان، لكل إنسان، يحب الكريم من أهل الهمم، يترك الكثافة ويقوي اللطافة، لا يعاشر كودن، ويتخذ من كل شيء الأحسن، من العجب والكبرياء مجرد، فهو في أبناء جنسه مفرد، كلام أهل العلم عنده مقبول، عارف بالأصول، فهو مليح وتخيله صحيح.

ضد ذلك المسلوب الذوق من أبناء الترك

كثير العلاك، تحدثه بالعربي، يحدثك بالتركي، ولا يعرف الآماجي من اليلكي، لا يعرف رمح ولا نشاب، يفتح للشر أبواب، لعبه لكام، ويخبط في الكلام، يغير هيئته بالزنظ والمنشفة، وغيته القمار بالكنجفة، يتلعبط ويتلبك، ويغير اسم أحمد باسم بردبك، يقطع الطريق ولا له صاحب ولا صديق، مضارب مخانق لوالديه عائق، يشرب شخاخ النصارى، ويضارب كل من في الحارى.

صاحب الذوق السليم من الغلمان

الخيل معه في آمان يخرز العنان، ويحيط الشليته والتعبان، فهو للخيل بلان، نظيف العرض والثياب، يحرز العقوبات والألباب، مطلوع في الصواب، لا يشتغل بخدمه، شاطر صاحب همة، لا يدمدم لانقطاع الجامكية، يخدم الضيوف ولو كانوا ميه، ويقضي الحاجة ولو كانت بإسكندرية، وله في الغلمان غية، يداوي الوقرة واليرقان، ويقطع الجلد ويداوي السرطان، رجل همام، فهو نعم الغلام.

ضد ذلك المسلوب الذوق من الغلمان

يسرق عليق الفرس، في قلب الجندي منه غصص، حرفوش ما يملك قنشار، ما

يصحو من المزر لا ليل ولا نهار، يخدم الأجلاب، لأجل الخناق والضراب، والخويلات معه ضائعة، وبطونهم جائعة، تجده في قلب الأربعانية بفرد طاق، وأطواقه مقطعة من الضراب والخناق، يخطف العمائم ويقطع الطريق، مفلس لا له صاحب ولا صديق، كثير العياط والشياط، جمعة في المحلة وجمعة في دمياط، يرهن العرقية والدبوس، مقامر لص منحوس.

صاحب الذوق السليم من القضاة

لا يقبل الرشوة، ويترفق في الدعوة، لا يسعى في وظيفة، ويتأمل ما كان عليه أبو حنيفة، ينظر في حال المسكين ويحصل له عليه من المشقة كمن ذبح بغير سكين، رضي الخلق سيوس، ضاحك غير عبوس، يساوي بين الخصمين، وينظر في حقيقة الدين، لا يميز صاحب ألف دينار على من لا يملك أن يقول حكمت ورب قائل يقول ظلمت، لا يراعي في الحكم جار، ويخشى أن يحرق بالنار، له معان وبيان، وفقه وتصريف بإمكان، فهو خير إنسان، نطقه وخيره يزيد، وقد أقامه الله تعالى لمصالح العبيد، لا يحكم بإغراء من الأمراء، لما سلك طريق العلماء، وعزة الفقراء، ولا يحكم بأغراض الملوك وقد سلك بهذه الطريقة أحسن سلوك، يعلم أن كل ملك لله مملوك، فهو خائف من الله متوكل على الله، لا يحكم إلا بحكم الله، لا يقبل شهادة الزور، ولو كان على وزن الخردلة في كل الأمور، فهو القاضي، لأنه تميز عن القاضيين.

فرحم الله تعالى من تأمل هذه الخصال، وجعل بينه وبينها اتصال.

ضد ذلك المسلوب الذوق من القضاة

البغلة والكوديان، والفرجية والطيلسان، قد فتح له بهم دكان، لا فقه ولا معاني ولا بيان، عاري من نوع الإنسان كأنه حيوان، ألكن اللسان، لا يسوي بين الخصمين، ويقبل الرشوة ولو كانت فلسين، إذا غضب يقول: حكمت، ولا يفكر فيمن يقول: ظلمت، يحكم بأغراض الأمراء، ولا يرافق العلماء، ويزدري الفقراء، عبد الجاه، رجل وجاه،قد أفلح من هجاه، لا يكشف كربة، عامله كبة، هيولى مطلقة،سالبه كلية، فهو من البلية، لا يستشير لأحد بشأن، كثير الشقشقى ملسان يعرض عن الحق عيان، فهو أحد القاضيين، قد حرم الجنان، يقبل شهادة الزور، لا ينظر في عواقب الأمور، كأنه لا يؤمن بالبعث والنشور، ولا يرى في التنقل من القصور إلى القبور، فهو رجل مغرور أو مسحور، فلا

يفيق من الغفلة، كأنه أخذ زماناً من المهلة، فهو أضعف من نملة، فقد قيل في هذا المعنى:

فـلا تُـؤذِ نمـلاً إن أرَدتَ كمالكـا فـإنَّ لهـا نفـساً تَطـيبُ كمـا لَكـا

ليس هو أهل الوظيفة، ولا يتأمل ما قال أبو حنيفة، الذي دون الفقه رضي الله عنه فـالله تعالى راض عنه، ولا رضي يقبل القضاء بعدما جرى له من الأمور ما جرى، فهو في الآخـرة مـسرور، ممـتع في القـصور بالحـور، وقـد رضـي عنه الرحمن وأسكنه فسيح الجنان، فرحم الله من اتبع النعمان وأعرض عن القضاء في هذا الزمان.

صاحب الذوق السليم من الموقعين

لكاتـب الـسر معـين، علـى أسرار الملوك أمين، قد قرا ودرا، وفهم مكاتبات الملوك والأمـراء، والمباشـرين والوزراء، ومكاتبات النياب، ومراسلات الأحباب والأصحاب، رأيـه صـواب، يفـتح لكل خير باب، يعرف علم الإنشاء علم الكلام، رجل همام على الملـوك مقـدام، صـاحب معرفة وآداب، ذكاؤه مفرط عجب، عارف بمقام أهل الرتب، صـاحب مـنظوم ومنـثور، وتـدبير في جمـيع الأمور، خطبه مليح، ولسانه فصيح، يعجز الفـصحاء مـن الكـتاب، بـسرعة قـراءة الكـتاب ورد الجـواب، عرف مصطلح الأتراك والأعجـام، والتكـرور والأروام، تركـي عربـي، ويحـل العقيلـي والمغربـي، والفهلـوي والـسرياني، والمغلـق الـصعب الديوانـي، لـه مشاركة في جميع العلوم، ليزيل بذلك من قلوب الملوك الغموم، لا متكبر ولا رقيع، قد اتقن صناعة التوقيع، رجل همام والسلام.

ضد ذلك المسلوب الذوق من الموقعين

أدلـع الدلعين، لا كاتب ولا معين ولا هو لأسرار الملوك بأمين، لا قرا ولا درا، ولا يعـرف مـصطلح الملوك ولا الأمراء، ولا المباشرين ولا الوزراء، إن كاتب النواب، أوقع الـشر والـضراب، وأعظـم مـا تراه غلطان، إذا كتب مرسوم السلطان، اشترى الوظيفة بالفلـوس، بـرأيه المعكـوس، وأخـذ لـه فـرس يا ليته اشتغل بكتابة القصص، في قلوب طائفـة المـوقعين مـنه غـصص، كـيلون علكي، والخاتمة يتحدث بالتركي، لا يعرف علم الإنشاء ولا علم الكلام، رجل مهمل والسلام، ينصب على بابه دكة، وبيته عبرة وهتكة، عـاوز ألفـين صـكة أحمـق رقـيع، أيش بلاه بصناعة التوقيع، ما يحسن قراءة كتاب، ولا يفهـم رد جـواب، ولا يعـرف مراسـلة الأصحاب والأحباب، مسلوب الذوق والخاتمة يعمل له طوق، لا تاريخ ولا أدب، وهو في الحماقة عجب، جبان غير مقدام، ولا يفهم

شيئاً من الكلام والسلام.

صاحب الذوق السليم من الخطباء

علي الرتبة، قصير الخطبة، معانيه منتخبة، ألطف من نسيم الصبا، يعظ نفسه قبل أن يعظ الناس،عوذته برب الفلق والناس، يخفف الركعتين، والجلسة بين الخطبتين، يعرف ولا يعرف، يبشر ولا ينفر، لا يقنط ولا يبعد الأمل، ولا يبالغ في الرجوة خوفاً من إبطال العمل، بل يعرفهم طريق الإسلام، ويرغبهم في الجنة بصفاتها، ويحذرهم من النار وآفاتها، يردع المتكبرين، ويبشر الفقراء والمساكين بأن الجنة لهم فضلاً منه ومنة، يعرف لكل شيء خطبة، وذلك لمعرفته بطريق الرتبة، ويبالغ في نعت الصحابة أجمعين، والخلفاء الراشدين، يبتدي بأبي بكر وخصائله الملاح، ويختم بأبي عبيدة بن الجراح، خطبته لها رونق وسمعة، وتؤثر في القلوب، موعظته من الجمعة إلى الجمعة، إنسان مليح، لسانه فصيح، لا يحتاج في إنشاء الخطبة إلى مساعدة، كأنه قس بن ساعدة، يبتدي بالحمد لله، ويختم بالصلاة، والسلام على رسول الله، ﷺ، وشرف وكرم له في الدين تمكين، هذا خطيب المسلمين.

ضد ذلك المسلوب الذوق من الخطباء

لا يراعي القوافي، وحسه من فوق المنبر خافي، لا يعرف الناس من العجلة ما يقول، كأنه بهلول، يتلف التصنيف، ويروي الحديث الضعيف، كأنه من فقهاء الريف، يجعل الخطبة بأجمعها وعيد، ويذكر العذاب الشديد، لا يعرف تأليف الخطبة، وليس له رتبة، لا تؤثر موعظته في القلوب، لأنه من العلم والعقل مسلوب، يطيل الخطبتين، ويقرأ في كل ركعة بسورتين، لا يسلم من اللحن والغلط، والناس معه في تعب وشطط، كثير الوسواس، ومع ذلك يزدري الناس، حاله عجيب، لا يصلح أن يكون خطيب.

صاحب الذوق السليم من الشهود

يخشى الرب المعبود، رأيه مسعود، قلمه بالخير ممدود، قرأ الكتاب وفهم الصواب، لو عينت له مملكة مصر وسائر الثغور، ما يقرب شهادة الزور، قبل الوصية من خير البرية، فعيشته رضية، عالم بأصول الدين، وصحة عقود المسلمين، فهو صاحب العدل والنقاء، ولا يناله تعب ولا شقاء، رجل أمين، حافظ على الدين، خائف من رب العالمين، لا يرافق الفساق، ولا ياكل في الأسواق، كثير التواضع والسكون، له أجر غير ممنون، طيب

الأخـلاق، يحسن للرفاق، ويكره الرجل المطلاق، يصلح بين الرجل وزوجته، ويرضي أخلاقهـا علـى نفقـته، ويأمـرها لـه بالطاعـة، ويذكرها أن الله يسألها عن صحبة ساعة، ويأمره بمعاشرتها بالمعروف، ويكون لها مساعد وبها رؤوف،لا يكتم الشهادة، اتخذ الخير عادة، فهو من أهل الشهادة والسعادة.

ضد ذلك المسلوب الذوق من الشهود

مـا يخـشى الرب المعبود، رأيه مفسود، يوقع نفسه في النار لأجل الدينار، يضيع مال الأيتام، ويحصل الآثام، يساعد المرابي، وإثمه رابي، يشهد قبل أن يستشهد، بالشر معود، يشهد بالزور، في كل الأمور، آذى من العقارب، والخير منه هارب، لا يقبل معذرة، ولا يفكر في الآخرة، قتل بشهادته ثلاثاً ولا يعتبر بمن مات، عديم الدين والسلام، وفرغ منه الكـلام، يأكل مال اليتيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يفسد نظام المرأة مع زوجها، ويقـول لهـا: أنا أفكر لك في المصالح، وأريحك من هذا المالح، وأنت امرأة جليلة وهذه النفقة قليلة الرجال خير من هذا كثير، ويخليه معها كالأسير.

صاحب الذوق السليم من الكتّاب

صـحيح الحـساب، سريع الجواب، رأيه صواب، يفتح للخير كل باب، قلمه أخضر وشـرابه سـكر، ومحلـه معطـر، وغلامه مدبر، وعبده صبيح، وخطه مليح، خيره مديد، تخدمـه الجـواري والممالـيك والعبـيد، جـواره طيـبة وانشراح، ومباركة وصباح، وعبده الآخـر سـعيد، يعـرف صـناعة الديـونة ولا عـنده علـونة، إن خدم الأمراء، كان رأس المـشورة، وإن خدم الوزير، كان له مشير، وإن خدم الملوك، سلك معهم أحسن سلوك، إن ركب المساحة، وجد الفلاح به راحة وعمر البلاد، وطمن العباد، وإن باشر الجهات، كـان في غايـة الـسعادات، حبـيب الصباح، خصائله ملاح، يحب الوجوه الصباح، يترك عـشرة الـوقاح، ويتفقد البطالين والأرامل. ولا يحتاج لستوفو ولا لعامل، سيد الرفاق، سبحان الملك الخلاق، شمعته موكبية، ورتبته علية، وعيشته هنية، ومجامعه سكرية.

وضد ذلك المسلوب الذوق من الكتّاب

قلـيل الحـساب، كثير المواقعة، لا ينفع بنافعة، له ألف واقعة، أقلامه مكسرة ودواته معـصرة، قلـيل القـسم، يـنهب حوائج المراء ويسعى بها عند أقل الأمراء، ويصير عنده مـضحكة ومسخرة، حتى ابنه ولد خرا، يكتب وحش وبيته عفش، وكبره وسخ ووجهه

غبش، وبالفشار ينتفخ، ويقول قال لي السلطان، قلت للسلطان، إن باشر عند الوزير، عمله في البير، وإن باشر في أحد الجهات أحدث المصائب والآفات، باب الخير عنه ممنوع، وعيلته ميتين من الجوع، حزين رزين، وعبده وغلامه من المساكين، لا يعرف صناعة الديونة، كثير العلونة، وطائفة الكتاب معه في عناء، كثير الأذى ما يساعد أبداً.

صاحب الذوق السليم من المؤذنين

حسن الصوت أمين، لا يطلق نظره إلى حريم المسلمين، يعرف الأوقات، يعلم الميقات، يعرف أسامي النجوم والكواكب، مكانه فوق السحاب راكب، يعرف عروض البلاد والميل، وما زاد في النهار وما نقص من الليل، يعرف منازل الشمس والقمر، وما للنجم من تأثير إذا ظهر، يعرف في تحديد القبلة في الأسفار، في الليل والنهار والبر والبحار، شاطر حيسوب قهرمان، يعرف الأحكام، دين صين، يتقن صنعة الأذان.

وضد ذلك المسلوب الذوق من المؤذنين

ليس بأمين يحب الصغيرين، ويمد بصره إلى حريم المسلمين، لا يعرف الجيب من الميل، ولا ما نقص من النهار ولا ما زاد من الليل، لا الزهرة من سهيل، ولا الطالع من الغارب، ولا أسامي النجوم من الكواكب، لا يعرف قوس الليل ولا قوس النهار، وحسه يشبه صوت الحمار، لا يعرف البروج، وهو كثير الخروج، إذا أذن بالقرب من الحارة، شمتت بالمسلمين اليهود والنصارى، ولا يعرف المهلل من المقنطر، وهو في صناعته محير،يؤذي الآذان بالأذان ، لا يعرف تحرير القبلة في الأسفار، لا في الليل ولا في النهار، كثير النوم كسلان، يؤذن أي وقت كان، قليل العقل خسيف، يصلح أن يكون يؤذن في الريف.

صاحب الذوق السليم من المتكلمين على الكراسي

ينبه الغافل والناسي، أقامه الله لمنافع الناس، غسل قلوبهم من الغل والحسد والوسواس، ودفع الأرجاس، يؤلف بين قلوب العوام، بأطيب الكلام، ويأمرهم بإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام، ويعلمهم أمور الدين، ويصير لهم بذلك الأمان بتمين، الموعظة الحسنة للنسوة، ويخلصهم بذلك من البلوة يأمرهم بطاعة بعولتهن، وحفظ فروجهن من النيران ويوصيهن بإكرام الجيران، فهو فقيه مكمل، صوفي مجمل، قرا ودرع، باع نفسه للناس واشترى النفوس، بمواعظه من المكوس، يعمل

الميعاد، يذكر يوم المعاد، يعرف ولا يعنف، يبشر ولا ينفر، رجل أمين، فذلك واعظ المسلمين.

وضد ذلك المسلوب الذوق من المتكلمين على الكراسي

لنفسه وأفعاله ناسي، رجل وجاه، ألجأه الإفلاس للكذب على الناس، فجلس على الكرسي، ونسي ما فعله بالأمس، جمع النسيوات، وحكى لهم حكايات، وأنشد لهم أبيات، ودخل بالزوكرة فيهم، وواخا أجمل ما فيهم، ويقول يا أخت أنت جميلة، ونفقتك قليلة، فلابد ما أنفعك بورقة، لتزداد لك الكسوة، والنفقة، وقد فتح باب التبتال في غيبة الرجال، وأظهر الوجد والبكاء الكاذب، وذلك من أعظم المصائب، وإذا دعاه أحد من الأنام لشيء من الطعام، يقول أنا صائم، فلا يلومني في ذلك لائم، ويظهر أنه صائم الدهر، والله مطلع عليه في السر والجهر، وربما غر بعض الناس، بتلبيس الخناس،يأكل الدنيا بالدين ويتواضع للمتكبرين، ويزدري الفقراء والمساكين، ويتلفظ بكلام شيطان، في هيئة إنسان، له أفعال قبيحة، وتخالها مليحة، من الغوامض فليس هو بواعظ.

صاحب الذوق السليم من الشعراء

لسانه فصيح، وتخيله مليح، وهجوه قبيح، التغزل والاقتباس والحماسة والجناس، والطباق والاكتفاء، والتشابيه بمعرفة، ينظك الموشح والزجل، وكان مثل العسل والذوبيت والمواليا، والتهاني والمرثيا، نظمه سريع، عارف بصناعة البديع، من أهل الهمم، وشعره حكم، قال سيد هذه الأمة: «وإن من الشعر لحكمة».

يسكر بشعره الأنام، أعظم من المدام، أفديه من نديم، يذكرني العهد القديم، وصاحب الصحاح، اكتب منه الأفصاح، يعجب أهل الألباب، بالتواضع للأصحاب، ولا مكابرة ولا محاورة، وله الأمثال السائرة.

وضد ذلك المسلوب الذوق من الشعراء

أبياته مكسرة، قليل القشمرة، يسرق أبيات الناس ويكابر ويدعي وقع الحافر على الحافر، لا يعرف صناعة القريض، والناس معه في الطويل والعريض، قليل العقل خسيف، ثقيل الدم كثيف، يدعي اللطافة وهو مجبول على الكثافة، لا يعرف فناً من الفنون والناس معه في غبون، يعترض على الحذاق مجنون سيىء الأخلاق قرقاع مطلاق، سبحان الخلاق، لا يعرف الأوزان، ولا فيه نوع من أنواع الإنسان كأنه حيوان.

صاحب الذوق السليم من الندماء

أشعار ومنادمات، ونوادر مضحكات، وتواريخ وحكايات، وأسمار مذهبات، يقضي حاجتك، ويلبي دعوتك، ولا يخذل كلمتك، يجلب إليك السرور، ويساعدك في كل الأمور، يأتيك بالفرح، ويذهب عنك الترح، يحببك إلى الأصحاب، ويجمع بينك وبين الأحباب.

لـو لم يكُـن مِـثلَ النَّـسيمِ لَـطـافَـةً   مـا كـان يعطِـفُ لـي غُـصون البانِ

رجل مطواع، لقولك سماع، يدري الجميل، ويقنع منك بالقليل، ويسيرك أحسن سير، يعلمك الكرم، ويترك عنك الندم، ويعلمك السخاء السماح والخصائل الملاح، ينبهك على صلة الرحم والقرائب والأصحاب والحبائب، يواسيك ويسليك، ويتوجع إليك ويكفيك، فهو الخليل والرفيق، فنعم الصديق.

وضد ذلك المسلوب الذوق من الندماء

كثير الغلبة، مالح الرقبة، وعشراؤه معه في غلبة، مقراض الأعمار، غمر من الأغمار، يكابر في المحسوس، وهو أبلم من التيوس ذو فهم معكوس، ما يعشرك إلا لأجل الفلوس، يظهر الشفقة إليك، وهو في الحقيقة عليك، يقطع على الحاكي حكايته، ويحكي مثلها بسماجته، يشبه الماء بالماء، ويدعي البصيرة وهو في الحقيقة أعمى، ينغص العيش بالمكابرة وبثقالة الدم والمحاورة، يظهر القبيح، ويخفي الجميل، لا يفعل من الخير كثير ولا قليل، رديء النفس طماع، خسيف العقل قرقاع، يصافي من يعاديك، ويصاحب من يجافيك، يفشي الأسرار، مكار عيار، كثير الفشار، كمثل الحمار يحمل أسفار، يعلمك البخل وقلة الخير، ويسيرك أحسن سير، يحسد على النعمة، ويفرح للنقمة، دعوته عريضة وطويته مريضة، يبغضك إلى الأصحاب، ويبعد بينك وبين الأحباب، كثير الدلاعة كذاب، رأيه غير صواب، لا ينفع ولا يشفع، وهو من أشعب أطمع لا يسعفك ولو كنت في الغرق، ويبيعك بفلسين عتق.

صاحب الذوق السليم من الطفيلية

خدمة أبناء الناس في نفسه سجية، نظيف الثياب، سريع الجواب، يشد وسطه في المقام ويدير المدام، يقدم النعال ويجعل ركبته وسادة لمن قال، تربية الأحرار، يقنع بالفول الحار، إذا سقيته دمعة يخدمك جمعة، لعوب ضحوك، للأصحاب مملوك، يشرح

الأصحاب، ويجلب لهم الأحباب، داخل الطباع، لقولك سماع، كثير الاحتمال، لا يلح في السؤال.

وضد ذلك المسلوب الذوق من الطفيلية

لا يعرف شيئاً من المسخروية، عشرته بلية، يفرزن بيت الوليمة ويحضر بلا عزيمة، شيطان عيار، أوكل من نار يأكل خروفاً، ويحسبه صاحب الدار من الضيوف، ضبه من الضباع، يصابح على الملاح، وفي الخاتمة يخطف الأقداح، لا لطيف ولا كيس، يركب بلاش ويغمز امرأة الريس، يثقل المجالس ويحفظ المناحس، غير موفق، لا يغني ولا يصفق، كودن دقنيس، دواءه السك بالبراطيش، إن مات لا يجيبه يعيش، ينزل الخندريس، ولا يبلع إلا الحشيش، شيخ الفسوق، مأواه باب اللوق.

صاحب الذوق السليم من الشحاذين

قليل السؤال، كثير الاحتمال، يرضى بالقوت، حتى لا يصير ممقوت، راضٍ بقسمة الله، متوكلاً على الله، يمضي خماصاً ويعود بطان، فهو من الشيطان في آمان، لا يكنز من المال، كثير الصبر والاحتمال، يقينه صادق، يكره سؤال الخلائق، وزاهد فيما في أيدي الناس، خلي من الهم والوسواس، مواظب على الخمس، لا يحزن على ما فاته بالأمس، مهذب الأخلاق، لا يخالف الرفاق، كل خلوة عنده حلوة، إذا حصلت له المؤونة، فلا يشق المدينة عفيف النفس نظيف، لا يسأل الناس في أكثر من رغيف.

وضد ذلك المسلوب الذوق من الشحاذين

يشحت بالقسم ويقلق الأمم، ثقيل الدم لحوح، لو حلفت له بالطلاق ما يخليك ويروح، جربنديته ملآنة كسر، ويحلف أنه ما فطر، يشحت من بكرة إلى العشاء، ويقول أنه بات بلا عشاء، يجهل نعمة الله، ولا يرضى بما قسم الله، وقلبه ملآن من الحسد، ولا يشكر أحد، يكنز الفضة والذهب ورؤيته في القذارة عجب، يسأل وعنده ما يكفيه بالمزيد، فكأنه من نار جهنم يستزيد، لا يشتري له حاجة بفلوس، بل يشحت من النصارى واليهود والقسوس، كثير السؤال قليل الاحتمال، نذل من الأنذال، ما يكفيه كافية، فلا شفاه الله تعالى بعافية.

صاحب الذوق السليم من العوام

يفهم بعض الكلام، كثير القشمرة، قليل المعيرة، ترف مسخرة، يقضي حوائج أولاد الحارة، ولو أنه يقع في الخسارة، يردف الرفيق، ويؤانسه في الطريق، قشمر عصبي، يعمل بلان وجلبي يتحسن ويتكيس، ولو نزلت في رقبته ما يعبس، خفيف الروح مزاح، كثير السماح، طعم لين المعيشة، عبائته مفروشة وطبقته مرشوشة، يلعب بالطاب والكنجفة، وله في طريق الخراع معرفة، بشاش كان وكان، وله في السخرية إمكان، عامي مخلوع، شريف النفس مطبوع.

وضد ذلك المسلوب الذوق من العوام

ما يفهم معنى الكلام، ولا يعقد الكاف، كثير النكاف، كذاب حلاف، عاوزه برذعة ولكاف، وعلقة سراميج وسك جزاف، حتى يقلع من دماغه هذا النشاف، لأنه للحشيش سفاف وللقاذورات لفاف، وإن كان جبان، فعيبه قد بان، وإن كان خباز فهو للذرة ممتاز، وإن كان زيات في قطارميزه ألف فار قد مات، مشيه حافي، عدو الإسكافي وإن كان عطار فشرابه من غسالة الأمطار، وإن كان جبان، فجبنه الأزرار جميعه منتن على الأجهار، عمره ما صلى ركعة، وله في الشر سمعة، يناقر بالديوك، ويناطح بالكبوش. قذر كثير الوساخة والعماش.

صاحب الذوق السليم من النساء

صينة، دينة، الجنة لها معينة، لينة المعاطف، قلبها من الله خائف، لا يتكلف بعلها ما لا يطيق، فهي من المؤمنات بتحقيق، ليست سخابة ولا كذابة، جفونها وسنة، وألفاظها حسنة، تقنع باللباب ولو كانت الخيشة لها جلباب، شفوقة، رفوقة، فهي نعمة وثيقة، تأكل من ماله بالمعروف، ولو ذبح كل يوم خروف، لا تشكو بعلها للجيران، خائفة من النيران، نهارها صيام، وليلها قيام، ودينها تمام، كثيرة السكون، سوداء العيون، عاشقها مفتون، كيسة ظريفة، عفيفة شريفة، لطيفة نظيفة، لا تنقض العهود، قليلة الصدود، ناعمة الخدود، الملكين لها شهود، لاتسفر عن وجهها لغير بعلها، ولا تلين كلمتها إلا لأهلها، تزيد محاسنها بالعبادة، وتتخذ الخير عادة، داعية إلى الله أن تموت على الشهادة.

وضد ذلك المسلوبة الذوق من النساء

سخابة، سخاطة، حمرية، شرواطة، حرفوشة، عياطة، لا يصطلى لها بنار، وهي من الأشرار، تتمنحس وتغير، وزوجها معها كالأسير، تكلف زوجها ما لا يطيق، فهي في

جهنم بتحقيق، لا تقنع بالقليل، ولا تراعي في الأنام خليل، كثيرة الملل، ولو لبست حلة من الحلل، زرافية المعنى، فافهم هذا المعنى، ويعجبها كل من حصل، تكره الحلال، وتبدي له الضجر والملال، كثيرة الرفاق وتهوى السحاق، قال فيها بعض الحذاق:

شَيخَةَ الفُسق والمغانِي جَميعاً   حَللت فِي الحَرامِ ما لا يَجُوز

ساحقت طفلة، ولاطت وزنت كهلة، وقادت عجوز مكارة، عيارة، يركبها صغار الحارة، كأنها حمارة الراهب زرارة، نحسها معروف، وكم أنفق عليها من الألوف، حالها متلوف ولو ذبح لها كل يوم خروف.

فرحم الله امرأة تأملت هذه الخصال وجعلت بينها وبينها انفصال.

صاحبة الذوق السليم من الجواري

صحة وسلامة من كل عار، راشدة ورشيدة، مباركة وسعيدة، ناعمة ولذيذة، أحسن من حضر في المقام، تفتن الأنام حلوة وسمرة، زهرة خضرة، فهي لمن حصل بها طيبة وانشراح، كأنها نور الصباح، تعد من الملاح خود رداح، تصلح للنكاح، خصائلها ملاح، بها زاد المال كثيرة الاحتمال، ربيت في الدلال، يرى الخير بها والاعتدال وكيد الحسود، وسيدها عليها محسود، ناعمة الأكعاب، فهي من الأتراب، تهدي للأحباب من باعها خاب، ومن اشتراها أصاب، أحسن من غزال وأحلى من وصال، جوهرة يتيمة، هدوة كريمة، لها فنون وذوق، ولها زاد الشوق، أزكى من نيلوفر ونسرين وتفاحة وياسمين، فهي شمس الضحى، للملوك صالحة، وصل للحبيب، من عاش بها يطيب، أنعم من حرير فهي شفاء القلوب، لقاء المحبوب، بفن العود مشغولة ونقر الطار، فهي طرفة بين الجوار.

وضد ذلك المسلوبة الذوق من الجواري

لا صحة ولا سلامة، في كل عار، أفشر من فشار، تصلح لتصفية الأمزار ولسلخ جلد الفار، ولجمع الزبل والأقذار، وفي المعاصر لوقيد النار، بائعها عيار وشاربها حمار، سارقة هاربة، بالليل والنهار، لا راشدة ولا رشيدة، ولا مباركة ولا سعيدة، متعوسة، منكوسة، كأنها وجه جاموسة، صنانها فاح، معكوسة الصياح، لا يحصل بها طيبة ولا انشراح، إذا خرج خلقها تختنق بنتها، وأيضاً تقتل ستها، وتشتم سيدها بالسوداني، وتعاكسه في جميع ما يعاني، إن طلب منها زبدية، تجيئه بركوكية أنحس الجنوس. وتفهم

المعكوس، ما تسوى أربع فلوس، ما يجيبها إلا قلس من القلوس، أو سحيتي منحوس، كثيرة الدمدمة، وأقبح ظلمة من أعوان الظلمة، لا هي نصرانية ولا يهودية ولا مسلمة، لو أقامت عند أستاذها عشر سنين، كانت تتحدث بالسين، كردوشة، منبوشة، سرموجة، برطوشة، ما تسوى قرقوشة، قحبة كورة، تربية النورة.

صاحب الذوق السليم من العبيد

راشد رشيد، موفق سعيد، مبارك وليد، مفتاح لأبواب الصلاح، فلاح ونجاح، لسانه فصيح، ووجهه صبيح، ما يعرف فعل قبيح، محافظ على الصلوات والآداب، رأيه صواب، أشجع من عنتر وأفخر من ياقوت وجوهر، سعد أكبر، وسعد مدبر، به يحصل السرور مساعد سيده في الأمور، به يحصل الفرج، وشذاه عنبر تأرج ، عبد نافع، لسيده مطاوع، ريحانة العبيد، أقوى من الحديد، شاطر أسمر، أسرع أكبر، أضرأ من هلال، أغلى من دينار، نجيب عليه إقبال يسوى ألف مثقال، حامي حمى سيده بالحسام، فهو سيد أولاد حام، يحصل لسيده الفرح، ويذهب عنه الترح إن دخل وإن خرج.

وضد ذلك المسلوب الذوق من العبيد

ابلم بليد، لا سعد ولا سعيد، ولا مقبل ولا رشيد، قوته لحم الفار، وشرب الأمزار، ما يسوى قنشار، ولا ربع ثمن سدس دينار، عاوز نقلة جدار، أو برذعة وحمار، يملأ وينقل عليه طول النهار، أو حمل بلا أسطار، الحرام له غية، وفيه سائر العيوب الشرعية، مخانق مضارب، سارق هارب، إن شبع فسق، وإن جاع سرق، أنجس الجنوس يصلح لرعي الجاموس، فهو لكل شر مفتاح، ما فيه نجاح ولا فلاح ولا صلاح ولا خير، وسيره أنحس سير، أنحس من جلب من الصعيد، جبار عنيد، عاوزه قيد جديد، وما ربك بظلام للعبيد.

باب المطرب

صاحب الذوق السليم من المطربين من أهل السماع والعوادين: أستاذ أمين، يعرف طرائق التلحين وجس العود، في حركاته مسعود، وهم أربع طرائق، يفهمها صاحب الذوق السليم الحاذق،الكد، واللفظ، والمضعف والمدور، يسلكهم في سد الأصل والمحير والأوج والكرادانية فيحصل للنفوس بذلك طمأنينة، تراجيه ترجع إلى الإيقاع، ونقوشه على الأوضاع، فهو قوت الأرواح، ومعدن البسط والانشراح، بعوده الملذذ، قلب

الحسود أكمد كأنه مخارق في الغناء أو معبد، إن جس الرست والعراق يهيم العشاق، وإن جس الزر وكنده والأصفهان، يهيم كل الجيران.

صاحب الذوق من المطربين بالنايات

فبلغ من الطرب الغايات، وإن جس الرهاوي، فكأنه لإبراهيم ابن المهدي مناوي، وإن جس النوى، فكأنه لقلوب العاشقين دواء، أرفق الرفاق، فيحصل في الطرب غاية الإنفاق، لطيف الذات فيصير المستمع في غاية السعادات، رجل مسرور، فيحصل به غاية السرور، يعرف الفواصل كريم النسب فاضل، رجل جواد، فهذا هو العواد، ماهر في الأصل والفروع، طيب النفوس قنوع.

وضد ذلك المسلوب الذوق من العوادين

يؤذي المستمعين، فهو من المجانين، سفيه ويلعب في خراه، سعد من لا يراه، من يجالسه بالنهار، يرتكب العار، لا يعرف كف ولا مدور، وهو في صناعته محير، عاوزه الصفع بالجلود، بما أعكسه في العود، كأنه حديد عاوزه نفيه للصعيد، بعوده المائح، ثقيل الدم مالح، إذا قصد شيئاً من النقوش، أفسد حال الحاضرين لأنه كردوش، يملأ المكان غوش، لا يعرف إيقاع العيدان وعوده أنحس من طنابير السودان، سخيف كثيف، ويظن أنه على القلب خفيف، لا يعرف ما يراد منه، جميعه غم وهم، لكن الجنية علة الضم، يستوي عنده الوحش والمليح، ولا يعرف الحسن من القبيح كما قال فيه بعض واصفيه:

وَعَوادٍ سَليب الذَّوقِ حَقاً ... لَهُ نَغَمٌ وَضَرب في اِنقِلابِ
إذا ما كرَّ فرَّ البسط عنّا ... وإن غنّى فَصِرنا في سَرابِ
فَلا في نَفسِهِ نَفَسٌ ولكن ... يُصَدِّعُ سامِعِيه باصطِخابِ
يَظِن بأنّهُ لِلعودِ يدري ... ولا يَدري الخَطأ مِن الصَواب

داوه الصفع بالكف،ألفاً بعد ألف.

صاحب الذوق السليم من المغاني

يفهم كثير المعاني، يعرف صناعة الإيقاع، مطرب يطرب الأسماع، يسكر بلفظه كسكر الراح، وينعش الأذن بالطرب، محاضرته عجب، فهو للطف النفس سبب، ذاته مجموع حسن، ينفي الوسن، بلفظه الحسن، وفي معانيه رقة، يعرف النكتة والدقة، يعرف

الفن والأوتاد، في علم الموسيقى أستاذ، عارف له بذلك نغمة، وذلك من الله أكبر نعمة، يستنجب الأشعار الطيبة، فإنه المراد والبغية، يدخل على القلب السرور، ويعرف العروض والبحور، سلاحياته ذهب، لكل أستاذ غلب، يداوي كل قلب مجروح، لا كودن ولا بيشاني، لطيف لا يؤاخذ كل جاني ويباديه بالإحسان، ما له في فنه ثاني.

وضد ذلك المسلوب الذوق من المغاني

ليس له معنى من المعاني، في فن الأصول كأنه بهلول، صوته من الطيبة هارب، كأنه يضارب، أحمر رقيع، كبير البلعة سقيع، ما له صديق، بارد النغمة، مخبل اليدين، ما يوافق لواحد معية، غناؤه من البروية، كأنه ليالي الأربعانية، ومن سماحته يتعاجب، ويقول كنت أغني عند ابن الحاجب، ثقالة دمه معروفة، كأنه نغمة صوته نعجة بلعت صوفة، يجلب الأخلاط السوداوية، يخانق من في المقام ولو كانوا مية، يثقل المجالس، ويكذب ويتهالس.

خاتمة الكتاب وتحفة أولي الألباب

هذه المقدمة اللطيفة، والنبذة المنيفة، في عرفان الصوت الحسن وأنواعه المنسقة للأسماع، والصوت وأنواعه المؤلمة المؤذية المنفرة للطباع، والأنغام وأصولها وكيف تفرعت وما به تنوعت.

الصوت الحسن: جنس ولا بد لكل جنس من أنواع تحته، فأنواع الصوت الحسن الشجي والندي، والطيب والصحيح والرمل.

فالشجي غذاء الروح منعش الدم الصالح، والندي منعش للبخار الغريزي، والطيب: مسكن الأخلاط السوداوية، والصحيح: كامل الأوز، والرمل: مسكن البلغم.

وضد ذلك: الفج والرتق: محرك الأخلاط الصفراوية، والخارج: ينفر الطباع السليمة، مهيج للبلغم والمقلوب: مهيج الدم الفاسد.

كما قال الشاعر في هذه الأرجوزة:

اعلم بِأنَّ الرَّستَ أصلُ الكُلِّ ... تَفرَّعت مِنه بِحكمِ العَقلِ
فإنهُ أولُ ما تَفَرَّعا ... ثلاثةُ عَنه فصارت أربعا
الرَّستُ أول والعِراق تابِعه ... والزُّوركند أصفهانُ رابِعه

وأنـــزَلوهُنَّ عَلـــى الأركـــانِ وعـــدَّة الأخـــلاطِ فِـي الإنـسانِ
مُـشبِّهوا الأوّلِ فِـي الأوتـــارِ بالمــرَّةِ الـصفرا وركُــن الــنارِ
وثانـــيه بِـالـــدمِ والـهـــواءِ وثالِــثه بِــبَلـغمٍ ومـــاءِ
والخَـتمُ بِالـسَّودا وركــنِ الأرضِ عِــند الطـباق وسُــلوكِ العَــرضِ

الرَّسـتُ للحـذَّاق يـبدُو زَنكَــلا وَيكتَـسِي العُـشّاقُ مِـنه حُلـــلا
عــراقُ يَـشفِي الـسامعين إذ حَـلا بمائـــةٍ وبـوســـلِيك نَـــزَلا
والــزَّروكند والبُــزُركُ اشــتَمَلا لــولا العُلــوّ بالــرُّهاوي اتَّــصَلا
نَـوى حُـسينِي ومـا قــد دَخَــلا مــع أصـفَهان بِدُخــولٍ وَصَــلا

فهــذا الأصــل ومــا تفــرع مــنه والكــلام متــسع، وفي هــذا القــول مقــنع.
وانتهى بنا إلى هنا حسن الكلام، والسلام.

تم بحمـد الله الملـك الـوهاب، سبحان ربـك رب العـزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمـد لله رب العـالمين، وصـلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً.

الفهرس

كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار

تقبيح الحسن وتحسين القبيح

نسيم الصبا

KAŠF AL-ʾASRĀR
FĪ ḤUKM AL-ṬUYŪR WAL-ʾAZHĀR

by

ʿIzzuddīn ben Aḥmad al-Maqdisi

followed by

TAQBĪḤ AL-ḤASAN
WATAḤSĪN AL-QABĪḤ

by

Abū Manṣūr al-Ṯaʿālibi

followed by

NASĪM AL-ṢABĀ

by

Ibn Ḥabīb al-Ḥalabi

followed by

ṢIFAT ṢAḤIB AL-ḎAWQ AL-SALĪM
WAMASLŪB AL-ḎAWQ

by

Jalāluddīn al-Sayūṭi

Edited by

Muṣṭafā ʿAbdul-Qādir ʿAṭā

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon